المجلد السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول

صفحة 3 -150

زَناتَة

الخبر عن زناتة من قبائل البربر يوم كان بين أجيالهم من

العز والظهور وما تعاقب فيهم من الدول القديمة والحديثة

هذا الجيل في المغرب جيل قديم العهد، معروف العين والأثر؛ وهم لهذا العهد آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل، والتغلّب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطّف الناس من العمران، والإباية عن الانقياد للنصَفة. وشعارهم بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر. ومواطنهم في سائر مواطن البربر بأفريقية والمغرب. فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى أنّ عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم كما نذكره. ومنهم قوم بالتلول بجبار طرابلس وضواحي إفريقية، وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد، وأذعنوا لحكمهم، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط، حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال: وطن زناتة. ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين. وكان لهم فيه دول أخرى في القديم. ولم يزل الملك يتداول في شعوبهم حسبما نذكره بعد لكل شعب منهم إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نسبة زناتة وذكر الخلاف الواقع فيه وتعديد شعوبهم:

أمّا نسبهم بين البربر فلا خلاف بين نسّابتهم أنهم من ولد شانا وإليه نسبهم، وأمّا شانا فقال أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة، قال بعضهم: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورماك بن ضري بن رحيك بن مادغيس بن بربر. وقال أيضاً في كتاب الجمهرة: ذكر لي يوسف الورّاق عن أيوب بن أبي يزيد، يعني حين وفد على قرطبة عن أبيه الثائر بأفريقية أيام الناصر قال: هو جانا بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن مقبو بن قروال بن يملا بن مادغيس بن رحيك بن همرحق ابن كراد بن مازيغ بن هرك بن برا بن بربر بن كنعان بن حام. هذا ما ذكره ابن حزم. وبظهر منه أنّ مادغيس ليس نسبة إلى البربر وقد قدّمنا ما في ذلك من الخلاف، وهذا أصح ما ينقل في هذا الآن ابن حزم، موثوق ولا يعدل به غيره.

ونقل عن ابن أبي زيد وهو كبير زناتة، ويكون البربر على هذا من نسل برنس فقط، والبتر الذين هم بنو مادغيس الأبتر ليسوا من البربر. ومنهم زناتة وغيرهم كما قدّمنا لكنهم إخوة البربر لرجوعهم كلهم إلى كنعان بن حام كما يظهر من هذا النسب.

ونقل عن أبي محمد بن قتيبة في نسب زناتة هؤلاء أنهم من ولد جالوت في رواية أن

زناتة هو جانا بن يحيى بن ضريس بن جالوت، وجالوت هوونور بن جرييل بن جديلان بن جاد بن رديلان بن حصى بن باد بن زحيك بن مادغيس الأبتر بن قيس بن عيلان.

وفي رواية أخرى عنه أنّ جالوت هو ابن جالود بردنال بن قحطان بن فارس، وفارس مشهور.

وفي رواية أخرى عنه أنه ابن هربال بن بالود بن ديال بن برنس بن سفك، وسفك أبو البربر كلهم، ونسّابة الجيل نفسه من زناتة يزعمون أنهم من حِمْيَر، ثم من التبابعة منهم. وبعضهم يقول إنهم من العمالقة، ويزعمون أنّ جالوت جدّهم من العمالقة، والحقّ فيهم ما ذكره أبو محمد بن حزم أولاً، وما بعد ذلك فليس شيء منه بصحيح. فأمّا الرواية الأولى عن أبي محمد بن قتيبة فمختلطة وفيها أنساب متداخلة. وأما نسب مادغيس إلى قيس عيلان فقد تقدّم في أوّل كتاب البربر عند ذكر أنسابهم، وأن أبناء قيس معروفون عند النسّابة. وأمّا نسب جالوت إلى قيس فأمر بعيد عن القياس، ويشهد لذلك أنّ معد بن عدنان الخامس من آباء قيس إنما كان معاصراً لبختنصر كما ذكرناه أوّل الكتاب. وأنّه لما سلّط على العرب أوحى الله إلى أرَمْيَاء نبيّ بني إسرائيل أن يخلّص مَعَدّاً ويسير به إلى أرضه، وبختنصّر كان بعد داود بما يناهز أربعمائة وخمسين من السنين، فإنه خرّب بيت المقدس بعد بناء داود وسليمان له بمثل هذه المدّة.

فمعدّ متأخّر عن داود بمثلها سواء؛ فقيس الخامس من أبنائه متأخّر عن داود بأكثر من ذلك، فجالوت على ما ذكر أنه من أبناء قيس متأخّر عن داود بأضعاف ذلك الزمن. وكيف يكون ذلك مع أنّ داود هو الذي قتل جالوت بنصّ القرآن؟.

وأمّا إدخاله نسب جالوت في نسب البربر، وأنه من ولد مادغيس أو سفك فخطأ،

وكذلك من نسبه إلى العمالقة. والحق أنّ جالوت من بني فلسطين بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام أحد شعوب حام بن نوح، وهم إخوة القبط والبربر والحبشة والنوبة كما ذكرناه في نسب أبناء حام. وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد، ولم يبق إلاَّ البربر، واختص إسم فلسطين بالوطن الذي كان لهم فاعتقد سامع إسم البربر مع ذكر جالوت أنه منهم وليس كذلك.

وأمّا ما رأى نسّابة زناتة أنهم من حِمْيَر فقد أنكره الحافظان أبو عمر بن عبد البرّ وأبو محمد بن حزم وقالا: ما كان لحِمْيَر طريق إلى بلاد البربر إلاَّ في أكاذيب مؤرخي اليمن، وإنما حمل نسّابة زناتة على الانتساب في حِمْيَر الترفّع عن النسب البربري لما يرونهم في هذا العهد خَوَلاً وعبيداً للجباية وعوامل الخراج. وهذا وَهْمُ فقد كان في شعوب البربر من هم مكافئون لزناتة في العصبية أو أشدّ منهم مثل هّوارة ومكناسة، وكان فيهم من غلب العرب على ملكهم مثل كتامة وصنهاجة ومن تلقّف الملك من يد صنهاجة مثل المصامدة، كل هؤلاء كانوا أشدّ قّوة وأكثر جمعاً من زناتة. فلمّا فنيت أجيالهم أصبحوا مغلّبين فنالهم ضرٌ المغرم، وصار إسم البربر مختصًّا لهذا العهد بأهل المغرم، فأنف زناتة منه فراراً من الهضيمة.

وأعجبوا بالدخول في النسب العربي لصراحته وما فيه من المزيّة بتعدد الأنبياء ولا سيما نسب مُضَر وأنهم من وُلْد إسماعيل بن إبراهيم بن نوح بن شيث بن آدم، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب إبراهيم الذي هو الأب الثالث للخليقة إذ الأكثر من أجيال العالم لهذا العهد من نسله. ولم يخرج عنه لهذا العهد إلّا الأقل مع ما في العربية أيضاً من عزّ التوحّش، والسلامة من مذمومات الخلق بانفرداهم في البيداء. فأعجب زناتة نسبهم وزيّنه فهم نسّابتهم، والحق بمعزل عنه، وكونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب والعزة، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك وأعظم منه. وأيضاً فقد تميزت الخليقة وتباينوا بغير واحد من الأوصاف، والكلّ بنو آدم ونوح من بعده. وكذلك تميّزت العرب وتباينت شعوبها والكلّ لسام ولإسمعيل بعده.

وأمّا تعدّد الأنبياء في النسب فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولا يضرّك الاشتراك

مع الجيل في النسب العام إذا وقعت المباينة لهم في الأحوال التي ترفع عنهم، مع أنّ المذلّة للبربر إنما هي حادثة بالقلّة ودثور أجيالهم بالملك الذي حصل لهم، ونفقوا في سبله وترفه كما تقدّم لك في الكتاب الأوّل من تأليفنا. وإلّافقد كان لهم من الكثرة والعزّ والملك والدولة ما هو معروف.

وأمّا أنّ جيل زناتة من العمالقة الذين كانوا بالشام فقول مرجوح وبعيد من الصواب لأن العمالقة الذين كانوا بالشام صنفان: عمالقة من ولد عيصو بن إسحق، ولم تكن لهم كثرة ولا ملك، ولا نقل أنّ أحداً منهم انتقل إلى المغرب، بل كانوا لقلّتهم ودثور أجيالهم أخفى من الخفاء. والعمالقة الأخرى كانوا من أهل الملك والدولة بالشام قبل بني إسرائيل، وكان أريحاء دار ملكهم. وغلب عليهم بنو إسرائيل وابتزّوهم ملكهم بالشام والحجاز وأصبحوا حصائد سيوفهم؛ فكيف يكون هذا الجيل من أولئك العمالقة الذين دثرت أجيالهم؟ وهذا لو نقل لوقع به الاسترابة فكيف وهو لم ينقل؟ هذا بعيد في العادة. والله أعلم بخلقه.

وأما شعوب زناتة وبطونهم فكثير ولنذكر المشاهير منها فنقول: اتفق نسّاب زناتة على أنّ بطونهم كلها ترجع إلى ثلاثة من ولد جانا وهم: ورسيك وفرني والديرت، هكذا في كتب أنساب زناتة. وذكر أبو محمد بن حزم في كتاب الجمهرة له من ولد ورسيك عند نيّابتهم مَسَّارَت ورغاي وواشروجن، ومن واشروجن واريغن بن واشروجن. وقال أبو محمد بن حزم في ولد ورسيك أنهم مسارت وناجرت وواسين.

وأمّا فرني بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة يزمرتن ومرنجيصة ووركلة ونمالة

وسبرترة، ولم يذكر أبو محمد بن حزم سبرترة وذكر الأربعة الباقية. وأمّا الديرت بن جانا فمن ولده عند نسّابة زناتة جداو بن الديرت، ولم يذكره ابن حزم. وإنما قال عند ذكر الديرت: ومن شعوبه بنو ورسيك بن الديرت وهم بطنان دمّر بن ورسيك وزاكيا بن ورسيك. قال: ودمّر لقب واسمه الغانا. قال: فمن ولد زاكيا بنو مغراو وبنو يفرن وبنو واسين. قال: وأمّهم واسين مملوكة لأمّ مغراو وهم ثلاثتهم بنو يصلتن بن مسرا بن زاكيا. ويزيد نسّابة زناتة في هؤلاء يرنيات بن يصلتن أخاً لمغراو، ويفرن وواسين، ولم يذكره ابن حزم.

قال: ومن ولد دمّر ورنيد بن وانتن بن واردیرن بن دمّر، وذكر لبني دمّر أفخاذاً سبعة وهم: غرازول ولفورة وزناتين، وهؤلاء الثلاثة مختصّون بنسب دمّر، وبرزال ويصدرين وصغمان ويَطُوَّفت، هكذا ذكر أبو محمد بن حزم، وزعم أنه من إملاء أبي بكر بن يكنى البرزالي الأباضي، وقال فيه: كان ناسكاً عالماً بأنسابهم. وذكر أنّ بني واسين وبني برزال كانوا أباضية، وأنّ بني يفرن ومغراوة كانوا سنية. وعند نسّابة البربر مثل سابق بن سليمان المطماطي وهانىء بن يصدور والكومي وكهلان بن أبي لوا، وهو مسطّر في كتبهم أنّ بني ورسيك بن الديرت بن جانا ثلاثة بطون وهم: بنو زاكيا وبنو دمّر وآنشة بنو آنش، وكلّهم بنو واردیرن ورسيك. فمن زاكيا بن واردیرن أربعة بطون: مغراوة وبنو يفرن وبنو يرنيان وبنو واسين، كلّهم بني يصلتن بن مسرا بن زاكيا. ومن آنش بن واردیرن أربعة بطون: بنو برنال وبنو صقمات وبنو يصدورين وبنو يطوفت كلهم بنو آنش بن واردیرن. ومن دمّر بن واردیرن ثلاثة بطون: بنو تقورت وبنو غررول وبنو ورتاتين كلّهم بنو وتيد بن دمّر، هذا الذي ذكره نسّابة البربر، وهو خلاف ما ذكره ابن حزم. ويذكر نسابة زناتة آخرين من شعوبهم ولا ينسبونهم مثل يجفش، وهم أهل جبل قازاز قريب مكناسة وسنجاسن وورسيغان وتحليلة وتيسات وواغمرت وتيفرض ووجديجن وبنو بلومو وبني وماني وبني توجين. على أنّ بني توجين ينتسبون في بني واسين نسباً ظاهراً صحيحاً بلا شك

على ما يذكر في أخبارهم. وبعضهم يقول في وجديجن وواغمرت بنو ورتنيص أنهم من البرانس من بطون البربر على ما قدمناه. وذكر ابن عبد الحكم في كتابه فتح مصر خالد بن حميد الزناتي، وقال فيه: هو من شورة إحدى بطون زنانة، ولم نره لغيره. هذا ملخص الكلام في شعوب زناتة وأنسابهم بما لا يوجد في كتاب. والله الهادي إلى مسالك التحقيق لا رب غيره.

فصل في تسمية زناتة ومبني هذه الكلمة:

أعلم أن كثيراً من الناس يبحثون عن مبنى هذه الكلمة واشتقاقها على ما ليس معروفاً للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال: هو إسم وضعته العرب على هذا الجيل، ويقال: بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه. ويقال: هو زانا بن جانا فيزيدون في النسب شيئاً لم تذكره النسّابة. وقد يقال إنه مشتق ولا يعلم في لسان العرب أصل مستعمل من الأسماء يشتمل على حروفه المادية. وربّمَا يحاول بعض الجهلة اشتقاقه من لفظ الزنا، ويعضده بحكاية خسيسة يدفعها الحق، وهذه الأقوال كلّها ذهاب إلى أنّ العرب وضعت لكل شيء إسماً، وأنّ استعمالها إنّما هو لأوضاعها التي من لغتها ارتجالاً واشتقاقاً. وهذا إنّما هو في الأكثر، وإلاّ فالعرب قد استعملت كثيراً من غير لغتها في مسمّاه إمّا لكونه عَلَماً فلا يغير مثل: إبراهيم ويوسف من اللغة العبرانية، وإمّا استعانة وتخفيفاً لتداوله بين الألسنة كاللجام والديباج والزنجبيل والنيروز والياسمين والأجرّ، فتصير باستعمال العرب كأنها من أوضاعهم. ويسمّونها المعرّبة، وقد يغّيرونها بعض التغيير في الحركات أو في الحروف، وهو شائع لهم لأنه بمنزلة وضع جديد.

وقد يكون الحرف من الكلمة ليس من حروف لغتهم فيبدّلونه بما يقرب منه في المخرج، فإن مخارج الحروف كثيرة منضبطة، وإنّما نطقت العرب منها بالثمانية والعشرين حروف أبجد. وبين كل مخرجين منها حروف أكثر من واحد فمنها ما نطقت به الأمم، ومنها ما لم تنطق به، ومنها ما نطق به بعض العرب كما هو مذكور في كتب أهل اللسان. وإذا تقرّر ذلك فاعلم أن أصل هذه اللفظة التي هي زناتة من صيغة جانا التي هي اسم أبي الجيل كله، وهو جانا بن يحيى المذكور في نسبهم. وهم إذا أرادوا الجنس في التعميم الحقوا بالاسم المفرد تاء فقالوا جانات. وإذا أرادوا التعميم زادوا مع التاء نونا فصار جاناتن. ونطقهم بهذه الجيم ليس من مخرج الجيم عند العرب، بل ينطقون بها بين الجيم والشين وأميل إلى السين. ويقرب للسمع منها بعض الصفير فأبدلوها زاياً

محضة لاتصال مخرج الزاي بالسين، فصارت زانات لفظاً مفرداً دالاً على الجنس. ثم ألحقوا به هاء النسبة وحذفوا الألف التي بعد الزاي تخفيفاً لكثرة دورانه على الألسنة. والله أعلم.

فصل في أولية هذا الجيل وطبقاته:

أمّا أولية هذا الجيل بإفريقية والمغرب فهي مساوية لأولية البربر منذ أحقاب متطاولة لا يعلم مبدأها إلاّ الله تعالى، ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجد يجن وغمرة وبني ويجفش وواسين وبني تيغرست وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم. وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعدّدة. وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزاب إلى قبلة تِلْمِسَانِ، ثم إلى وادي مَلَويّة. وكان الكثرة والرياسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن.

ولما ملك الإفرنجة بلاد البربر ودانوا لهم بدين النصرانية ونزلوا الأمصار بالسواحل، وكان زناتة هؤلاء وسائر البربر في ضواحيهم؛ صاروا يؤدون لهم طاعة معروفة وخراجا معروفا مؤقتا، ويعسكرون معهم في حروبهم ويمتنعون عليهم فيما سوى ذلك حتى جاء الله بالإسلام، وزحف المسلمون إلى أفريقية، وملك الإفرنجة بها يومئذ جرجير، فظاهره زناتة والبربر على شأنه مع المسلمين وانفضّوا جميعاً. وقتل جرير وأصبحت أموالهم مغانم ونساؤهم سبايا، وافتتحت سبيطلة. ثم عاود المسلمون غزو أفريقية: وافتتحوا جلولاء وغيرها من الأمصار، ورجع الإفرنجة الذين كانوا يملكونهم على أعقابهم إلى مواطنهم وراء البحر. وظنّ البربر بأنفسهم مقاومة العرب؛ فاجتمعوا وتمسّكوا بحصون الجبال. واجتمعت زناتة إلى الكاهنة وقومها جراوة بجبل أوراس حسبما نذكر، فأثخن العرب فيهم واتبعوهم في الضواحي والجبال والقفار حتى دخلوا في دين الإسلام طوعاً وكرهاً، وانقادوا إلى إيالة مِصْرَ، وتولّوا من أمرهم ما كان الإفرنجة يتولونه. حتى إذا انحلت بالمغرب عرى الملك العربي وأخرجهم من أفريقية البربر من كتامة وغيرهم، قدح هذا الجيل الزناتي زناد الملك فأورى لهم، وتداول فيهم الملك جيلاً بعد جيل في طبقتين حسبما نقصّه عليك إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الكاهنة وقومها جراوة من زناتة وشأنهم مع المسلمين عند الفتح:

كانت هذه الأمّة من البربر بأفريقية والمغرب في قوّة وكثرة وعديد وجموع، وكانوا يعطون الإفرنجة بأمصارهم طاعة معروفة وملك الضواحي كلّها لهم، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مهما احتاجوا إليهم. ولما أطلّ المسلمون في عساكرهم على أفريقية للفتح ظاهروا جرجير في زحفه إليهم حتى قتله المسلمون، وانفضّت جموعهم وافترقت رياستهم ولم يكن بعدها بأفريقية موضع للقاء المسلمين بجمعهم لما كانت غزواتهم لكل أمّة من البربر في ناحيتها وموطنها ومع من تحيّز إليهم من قبل الإفرنجة.

ولما اشتغل المسلمون في حرب عليّ ومعاوية أغفلوا أمر أفريقية، ثم ولّاها معاوية بعد عام عقبة بن نافع الفهري فأثخن في المغرب في ولايته الثانية، وبلغ إلى السوس، وقتل بالزاب في مرجعه. واجتمعت البربر على كسيلة كبير أوْربة. وزحف إليه بعد ذلك زهير بن قيس البلوي أيام عبد الملك بن مروان فهزمه وملك القيروان وأخرج المسلمين من افريقية. وبعث عبد الملك حسان بن النعمان في عساكر المسلمين فهزموا البربر، وقتلوا كسيرة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وإفريقية وفر بقية الإفرنجة والروم إلى صقلية والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم. وكانت زنانة أعظم قبائل البربر وأكثرها جموعا وبطوناً، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، وهم ولد كراو بن الديرت بن جانا. وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت تابنة بن نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفصد بن وصيلا بن جراو. وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم.

قال هاني بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمسا وثلاثين سنة وعاشت مائة

وسبعا وعشرين سنة. وكان قتل عقبة بن نافع في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها برابرة تهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها. فلما انقضى جمع البربر، وقتل كسيلة زحفوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس، وقد ضوي إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر فلقيتهم بالبسيط أمام جبلها. وانهزم المسلمون واتبعت آثارهم في جموعها حتى أخرجتهم من إفريقية، وانتهى حسان إلى برقة فأقام بها حتى جاءه المدد من عبد الملك، فزحف إليهم سنة أربع وسبعين وفض جموعهم، وأوقع بهم وقتل الكاهنة، واقتحم جبل أوراس عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف.

وكان للكاهنة ابنان قد لحقا بحسان قبل الواقعة، أشارت عليهما بذلك أمهما دهيا لأثارة علم كان لديها في ذلك من شيطانها فتقبلهما حسان. وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما. وعقد لهما على قومهما جراوة ومن انضوى إليهم بجبل أوراس. ثم افترق ففهم من بعد ذلك وانقرض أمرهم. وافترق جراوة أوزاعا بين قبائل البربر، وكان منهم قوم بسواحل مليلة، وكان لهم آثار بين جيرانهم هناك. وإليهم نزع ابن أبي العيش لما غلبه موسى بن أبي العافية على سلطانه بتلمسان أول المائة الرابعة حسبما نذكره. فنزل إليهم وبنى القلعة بينهم إلى أن خربت من بعد ذلك. والفل منهم بذلك الوطن إلى الآن لهذا العهد مندرجون في يطوفت ومن إليهم من قبائل غمارة، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مبتدأ دول زناتة في الإسلام ومصير الملك إليهم بالمغرب وإفريقية:

لما فرغ شأن الردة من إفريقية والمغرب، وأذعن البربر لحكم الإسلام وملكت العرب، واستقل بالخلافة ورياسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسي الملك بدمشق، واستولوا على سائر الأمم والأقطار، وأثخنوا في القاصية من لدن الهند والصين في المشرق، وفرغانة في الشمال والحبشة في الجنوب، والبربر في المغرب، وبلاد الجلالقة والإفرنجية في الأندلس. وضرب الإسلام بجرإنه، وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم. ثم جدع بنو أمية أنوف بني هاشم مقاسميهم في نسب عبد مناف، والمدعين

استحقاق الأمر بالوصية. وتكرر خروجهم عليهم، فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر، حتى توغرت الصدور واستحكمت الأوتار، وتعددت فرق الشيعة باختلافهم في مساق الخلافة من علي كرم الله وجهه إلى من بعده من بني هاشم: فقوم ساقوها إلى آل العباس، وقوم إلى آل الحسن، وآخرون إلى آل الحسين، فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام بها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلا وسبيا. وخلص من جاليتهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فجدد بها دعوة الأمويين، واقتطع ما وراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية.

ثم نفس آل أبي طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك، فخرج المهدي محمد بن عبد الله المدعو بالنفس الزكية في بني أبي طالب على أبي جعفر المنصور، وكان من أمرهم ما هو مذكور واستلحمتهم جيوش بني العباس في وقائع عديدة. وفر إدريس بن عبد الله أخو المهدي ناجيا من بعض وقائعهم إلى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من أوروبة ومغيلة وصدينة، وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده، ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط، وبثوا دعوة إدريس وبنيه من أهله بعده في أهله من زناتة مثل بني يفرن ومغراوة وقطعوه من ممالك بني العباس، واستمرت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديين.

ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويبثون دعاتهم بالقاصية، إلى أن دعا أبو عبد الله المحتسب بإفريقية إلى المهدي ولد إسمعيل الإمام ابن جعفر الصادق، فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا إفريقية من يد الأغالبة. ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق، ولم يبق لهم في نواحي المغرب دولة، ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، واستيقنوا بوعد الصادق أن الأرض لته يورثها من يشاء من عباده.

فلم لنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوضت مباني الدين بتقويض معالم الملك،

وعدا من الله لن يخلفه في تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله. فتناغى حينئذ البربر في طلب الملك والقيام بدعوة الأعياص من بني عبد مناف يسترون منها حسواً في ارتغاء إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بإفريقية،

ومكناسة بالمغرب. ونافسهم في ذلك زناتة، وكانوا من أكثرهم جمعا وأشدهم قوة فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم، فكان لبني يفرن بالمغرب وإفريقية على يد صاحب الحمار، ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم. ثم كان لمغراوة على يد بني خزر دولة أخرى تنازعوها مع بني يفرن وصنهاجة. ثم انقرضت تلك الأجيال وتجرد الحلك بالمغرب بعدهم في جيل آخر منهم، فكان لبني مرين بالمغرب الأقصى ملك، ولبني عبد الواد بالمغرب الأوسط ملك آخر تقاسمهم فيه بنو توجين والفل من مغراوة حسبما نذكر ونستوفي شرحه، ونجلب أيامهم وبطونهم على الطريقة التي سلكناها في أخبار البربر، والله المعين سبحانه لا رب سواه ولا معبود إلا إياه.

بنو يفرن

الطبقة الأولى من زناتة ونبد أ منها بالخبر

عن بني يفرن وأنسابهم وشعوبهم

وما كان لهم من الدول بإفريقية والمغرب

وبنويفرن هؤلاء من شعوب زناتة، وأوسع بطونهم، وهم عند نسابة زناتة بنو

يفرن بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا، وإخوته مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين، والكل بنو يصلتين. وبفرن في لغة البربر هو القار. وبعض نسابتهم يقولون إن يفرن هو ابن ورتنيذ بن جانا، وإخوته مغراوة وغمرت ووجديجن. وبعضهم يقول يفرن بن مرة بن ورسيك بن جانا. وبعضهم يقول هو ابن جانا لصلبه والصحيح ما نقلناه عن أبي محمد بن حزم.

وأما شعوبهم فكثير، ومن أشهرهم بنو واركوا ومرنجيصة. وكان بنو يفرن هؤلاء لعهد الفتح أكبر قبائل زناتة وأشدها شوكة، وكان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب، فلما كان الفتح غشي إفريقية ومن بها من البربر جنود الله المسلمون من العرب فتطامنوا لبأسهم حتى ضرب الدين بجرانه، وحسن

إسلامهم. ولما فشا دين الخارجية في العرب، وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلحموهم نزعوا إلى القاصية، وصاروا يبثون بها دينهم في البربر فتلقفه رؤساؤهم على اختلاف مذاهبه باختلاف رؤوس الخارجية في أحكامهم من أباضية وصفرية وغيرهما كما ذكرناه في بابه، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه، وقاتلوا عليه. وكان أول من جمع لذلك منهم أبو قرة من أهل المغرب الأوسط. ثم من بعده أبو يزيد صاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيصة. ثم كان لهم بالمغرب الأقصى من بعد الانسلاخ من الخارجية دولتان على يد يعلى بن محمد صالح وبنيه حسبما نذكر ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى.

الخبر عن أبي قزة وما كان لقومه من الملك بتلمسان ومبدأ ذلك ومصادره:

كان من بني يفرن بالمغرب الأوسط بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني

راشد المعروف بهم لهذا العهد، وهم الذين اختطوا تلمسان كما نذكره في أخبارها. وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس أبو قرة ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم. ولما انتقض البرابرة بالمغرب الأقصى وقام ميسرة وقومه بدعوة الخارجية وقتله البرابرة قدموا على أنفسهم مكانه خالد بن حميد من زناتة، فكان من حروبه مع كلثوم بن عياض وقتله إياه ما هو معروف. ورأس على زناتة من بعده أبو قرة هذا.

ولما استأثلت دولة بني أمية كثرت الخارجية في البربر، وملك ورفجومة القيروان، وهوارة، وزناتة طرابلس ومكناسة سجلماسة، وابن رستم تاهرت. وقدم ابن الأشعث إفريقية من قبل أبي جعفر المنصور، وخافه البربر فحسم العلل وسكن الحروب. ثم انتقض بنو يفرن تلمسان ودعوا إلى الخارجية وبايعوا أبا قرة كبيرهم بالخلافة سنة ثمان وأربعين ومائة، وسرح إليهم ابن الأشعث الأغلب بن سوادة التميمي فانتهى إلى الزاب. وفر أبو قرة إلى المغرب الأقصى، ثم راجع موطنه بعد رجوع الأغلب.

ولما انتقض البرابرة على عمر بن حفص بن أبي صفرة الملقب "هزارمرد" عام خمسين ومائة وحاصروه بطبنة كان فيمن حاصره أبو قرة اليفرني في أربعين ألفا صفرية من قومه وغيرهم حتى اشتد عليه الحصار، وداخل أبا قرة في الإفراج عنه على يد ابنه على أن يعطيه أربعين ألفا، ولابنه أربعة آلاف، فارتحل بقومه وانفض البرابرة عن طبنة. ثم حاصروه بعد ذلك بالقيروان واجتمعوا عليه، وأبو قرة معهم بثلثمائة وخمسين ألفا: الخيالة منها خمسة وثمانون ألفا. وهلك عمر بن حفص في ذلك الحصار.

وقدم يزيد بن حاتم واليا على إفريقية ففض جموعهم وفرق كلمتهم، ولحق أبو قرة

وبنو يفرن أصحابه بمواطنهم من تلمسان بعد أن قتل صاحبه أبو حاتم الكندي رأس الخوارج، واستلحم بني يفرن وتوغل يزيد بن حاتم في المغرب ونواحيه وأثخن في أهله إلى أن استكانوا واستقاموا. ولم يكن لبني يفرن من بعدها انتقاض حتى كان شأن أبي يزيد بإفريقية في بني واركوا ومرنجيصة منهم حسبما نذكره إن شاء الله تعالى الكريم. وبعض المؤرخين ينسب أبا قرة هذا إلى مغيلة، ولم أظفر بصحيح في ذلك، والطرائق متساوية في الجانبين فإن نواحي تلمسان هـان كانت موطنا لبني يفرن فهي أيضا موطن لمغيلة، والقبيلتان متجاورتان. لكن بني يفرن كانوا أشد قوة وأكثر جمعا ومغيلة أيضا كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن لأنهم كانوا صفرية. وكثير من الناس يقولون إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة كما ذكره ابن حزم وغيره والله أعلم.

الخبر عن أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار من بني يفرن ومبدأ أمره مع الشيعة ومصادره:

هذا الرجل من بني واركوا إخوة مرنجيصة، وكلهم من بطون بني يفرن، وكنيته أبو

زيد واسمه مخلد بن كيداد لا يعلم من نسبه فيهم غير هذا. وقال أبو محمد بن حزم: ذكر لي أبو يوسف الوراق عن أيوب بن أبي يزيد أن اسمه مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن ورينت بن حونيفر بن سميران بن يفرن بن جانا وهو زناتة. قال: وقد أخبرني بعض البربر بأسماء زائدة بين يفرن وجانا، اهـ كلام ابن حزم. ونسبه ابن الرقيق أيضا في بني واسين بن ورسيك بن جانا، وقد تقدم نسبهم أول الفصل. وكان كيداد أبوه يختلف إلى بلاد السودان في التجارة فولد له أبو يزيد، بكر كوامن بلادهم، وأمه أم ولد اسمها سبيكة، ورجع به إلى قيطون زناتة ببلاد قصطيلة. ونزل توزر مترددا بينها وبين تقيوس، وتعلم القرآن وتأدب، وخالط النكارية فمال إلى مذاهبهم وأخذها عنهم، ورأس فيها

ورحل إلى مشيختهم. وأخذ عن أبي عبيدة منهم أيام اعتقال عبيد الله المهدي بسجلماسة.

ومات أبوه كيداد وتركه على حال من الخصاصة والفقر، فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية. واشتهر عنه تكفير أهل الملة وسب علي فخاف وانتقل إلى تقيوس. وكان يختلف بينها وبين توزر، وأخذ نفسه بالتغيير على الولاة. ونمي عنه اعتقاد الخروج عن السلطان فنذر الولاة بقسطيلة دمه، فخرج إلى الحج سنة عشر وثلثمائة، وأرهفه الطلب فرجع من نواحي طرابلس إلى تقيوس. ولما هلك عبد الله أوعز إلى أهل قسطيلة في القبض عليه، فلحق بالمشرق وقضى الفرض وانصرف إلى موطنه. ودخل توزر سنة خمس وعشرين مستترا.

وسعى به ابن فرقان عند والي البلد فتقبض عليه واعتقله؛ وأقبل سرعان زناتة إلى

البلد ومعهم أبو عمار الأعمى رأس النكارية واسمه كما سبق عبد الحميد. وكان ممن أخذ عنه أبو يزيد فتعرضوا للوالي في إطلاقه؟ فتعلل عليهم بطلبه في الخراج؛ فاجتمعوا إلى فضل ويزيد ابني أبي يزيد، وعمدوا إلى السجن فقتلوا الحرس وأخرجوه؛ فلحق ببلد بني واركلا، وأقام بها سنة يختلف إلى جبل أوراس وإلى بني برزال في مواطنهم بالجبال قبالة المسيلة، وإلى بني زنداك من مغراوة إلى أن أجابوه فوصل إلى أوراس، ومعه أبو عمار الأعمى في اثني عشر من الراحلة. ونزلوا على النكارية بالنوالات واجتمع إليه القرابة وسائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم أبو عمار صاحبه على قتال الشيعة وعلى استباحة الغنائم والسبي، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى، وذلك سنة إحدى وثلاثين.

وترصدوا غيبة صاحب باغاية في بعض وجوهه فضربوا على بسيطها، واستباح بعض القصور بها سنة اثنتين وثلاثين، وغمس بذلك أيدي البربر في الفتنة. ثم زحف بهم إلى باغاية واستولت عليه وعلى أصحابه الهزيمة فلحقوا بالجبل. وزحف إليهم صاحب باغاية فانهزم ورجع إلى بلده فحاصره أبو يزيد، وأوعز أبو القاسم القائم إلى كتامه في أمداد كنون صاحب باغاية فتلاحقت به العساكر فبيتهم أبو يزيد وأصحابه؛

ففلوهم، وامتنعت عليه باغاية. وكاتب أبو يزيد البربر الذين حول قسطيلة من بني واسين وغيرهم فحاصروا توزر سنة ثلاث وستين، ورحل إلى تبسة فدخلها صلحا، ثم إلى بجاية كذلك، تم إلى مرماجنة كذلك، وأهدوا له حمارا أشهب، فلزم ركوبه حتى اشتهر به. وبلغ خبره عساكر كتامة بالإربس، فانفضوا وملك الإربض وقتل إمام الصلاة بها. وبعث عسكرا إلى تبسة فملكوها وقتلوا عاملها. وبلغ الخبر القائم وهو بالمهدية فهاله، وسرح العساكر لضبط المدن والثغور، وسرح مولاه بشرى الصقلبي إلى باجة، وعمد لميسور على الجيوش فعسكر بناحية المهدية. وسرح خليل بن إسحق إلى القيروان فعسكر بها.

وزحف أبو يزيد إلى بشرى بباجة، واشتدت الحرب بينهم، وركب أبو يزيد حماره وأمسك عصاه فاستمات النكارية وخالفوا بشرى إلى معسكره فانهزم إلى تونس. واقتحم أبو يزيد باجة واستباحها، ودخل بشرى إلى تونس وارتدت البرابر من كل ناحية فأسلم تونس ولحق بسوسة. واستأمن أهل تونس إلى أبي يزيد فأمنهم وولى عليهم وانتهى إلى وادي مجردة فعسكر بها. ووافته الحشود هنالك، ورعب الناس منه فأجفلوا إلى القيروان، وكثرت الأراجيف وسرب أبو يزيد جيوشه في نواحي إفريقية، فشنوا الغارات وأكثروا السبي والقتل والأسر. ثم زحف إلى رقادة فانفض كتامة الذين كانوا بها ولحقوا بالمهدية. ونزل أبو يزيد رقادة في مائة ألف.

تم زحف إلى القيروان فانحصر بها خليل بن إسحق. ثم أخذه بعد مراوضة في الصلح، وهم بقتله فأشار عليه أبو عمار باستبقائه فلم يطعه وقتله، ودخلوا القيران فاستباحوها ولقيه مشيخة الفقهاء فأمنهم بعد التقريع والعتب، وعلى أن يقتلوا أولياء الشيعة. وزحف وبعث رسله في وفد من أهل القيروان إلى الناصر الأموي صاحب قرطبة ملتزما لطاعته والقيام لدعوته وطالبا لمدده، فرجعوا إليه بالقبول والوعد. ولم يزل يردد ذلك سائر أيام الفتنة حتى أوفد ابنه أيوب في آخرها سنة خمس وثلاثين، فكان له اتصال بالناصر سائر أيامه. وزحف ميسور من المدية بالعساكر، وفر عنه بنو كملان من هوارة ولحقوا بأبي يزيد وحرضوه على لقاء ميسور فزحف إليه، واستوى اللقاء. واستمات أبو يزيد والنكارية فانهزم ميسور وقتله بنو كملان وبعث برأسه إلى القيروان،

ثم إلى المغرب، واستبيح معسكره.

وسرح أبو يزيد عساكره إلى مدينة سوسة فاقتحموها عنوة وأكثروا من القتل والمثلة. وعظم القتل بضواحي إفريقية، وخلت القرى والمنازل ومن أفلته السيف أهلكه الجوع. واستخف أبو يزيد بالناس بعد قتل ميسور فلبس الحرير ورحب الفاره. ونكر عليه أصحابه ذلك وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد، والقائم خلال ذلك بالمهدية يخندق كلى نفسه ويستنفر كتامة وصنهاجة للحصار معه. وزحف أبو يزيد حتى نزل المهدية وناوش عساكرها الحرب، فلم يزل الظهور عليهم، وملك زويلة. ولما وقف بالمصلى قال القائم لأصحابه: من ههنا يرجع، واتصل حصاره للمهدية، واجتمع إليه البربر من قابس وطرابلس ونفوسة.

وزحف إليهم ثلاث مرات فانهزم في الثالثة ولم يقلع وكذلك في الرابعة. واشتد الحصار على أهل المهدية ونزل الجوع بهم. واجتمعت كتابة بقسنطينة وعسكروا بها لإمداد القائم، فسرح إليهم أبو يزيد يكموس المزاتي من ورفجومة فانفض معسكر كتامة من قسنطينة. ويئس القائم من مددهم وتفرقت عساكر أبي يزيد في الغارات والنهب فخف المعسكر، ولم يبق به إلا هوارة وراس وبنو كملان. وكثرت مراسلات القائم للبربر.

واستراب بهم أبو يزيد، وهرب بعضهم إلى المهدئة ورحل آخرون إلى مواطنهم فأشار عليه أصحابه بالإفراج عن المهدية فأسلموا معسكرهم، ولحقوا بالقيروان سنة أربع وثلاثين. ودبروا أهل القيروان في القبض عليه فلم يتهيأ لهم، وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا فتاب وأقلع، وعاود لبس الصوف والتقشف. وشاع خبر إجفاله عن المهدية فقتل النكارية في كل بلد، وبعث عساكره فعاثوا في النواحي وأوقعوا بأهل الأمصار وخربوا كثيرا منها. وبعث ابنه أيوب إلى باجة فعسكر بها ينتظر وصول المدد من البربر وسائر النواحي؛ فلم يفجأه إلا وصول علي بن حمدون الأندلسي صاحب المسيلة في حشد كتامة وزواوة، وقد مر بقسنطينة والإربس وسقنبارية، واصطحب منها العساكر فبيته أيوب وانفض معسكره، وتردى به فرسه في بعض الأوعار فهلك.

ثم زحف أيوب في عسكره إلى تونس وقائدها حسن بن علي من دعاة الشيعة فانهزم، ثم اتيحت له الكرة. ولحق حسن بن علي ببلد كتامة فعسكر بهم على قسنطينة. وسرح أبو يزيد جموع البربر لحربه. ثم اجتمعت لأبي يزيد حشود البربر من كل ناحية، وثابت إليه قوته. وارتحل إلى سوسة، فحاصرها ونصب عليها المجانيق. وهلك القائم سنة أربع وثلاثين في شوال وصارت الخلافة لابنه إسمعيل المنصور، فبعث بالمدد إلى سوسة بعد أن اعتزم على الخروج إليها بنفسه فمنعه أصحابه. ووصل المدد إلى سوسة؛ فقاتلوا أبا يزيد فانهزم ولحق بالقيروان، فامتنعت عليه؛ فاستخلص صاحبه أبا عمار من أيديهم وارتحل عنهم.

وخرج المنصور من المهدية إلى سوسة، ثم إلى القيروان فملكها وعفا عن أهلها وافنهم، وأحسن في مخلف أبي يزيد وعياله. وتوافى المدد إلى أبي يزيد ثالثة فاعتزم على حصار القيروان، وزحف إلى عسكر المنصور بساحتها فبيتهم، واشتد الحرب واستمات الأولياء وافترقوا اخر نهارهم، وعاودوا الزحف مرات، ووصل المدد إلى المنصور من الجهات. حتى إذا كان منتصف المحرم كان الفتح، وانهزم أبو يزيد وعظم القتل في البربر ورحل المنصور في أتباعه فمر بسبيبة ثم تبسه حتى انتهى إلى باغاية.

ووافاه بها كتاب محمد بن خزر بالطاعة والولاية والاستعداد للمظاهرة؛ فكتب إليه بترصد أبي يزيد والقبض عليه، ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال. ثم رحل إلى طبنة فه افاه بها جعفر بن علي عامل المسيلة بالهدايا والأموال. وبلغه أن أبا يزيد نزل بسكرة وأنه كاتب محمد بن خزر يسأله النصرة، فلم يجد عنده ما يرضيه، فارتحل المنصور إلى بسكرة فتلقاه أهلها. وفر أبو يزيد إلى بني برزال بجبل سالات، ثم إلى جبل كتامة وهو جبل عياض لهذا العهد، وارتحل المنصور في أثره إلى ومرة وبيته أبو يزيد هنالك فانهزم ولم يظفر وانحاز إى جبل سالات. ثم لحق بالرمال ورجع عنه بنو كملان، وأمنهم المنصور على يد محمد بن خزر.

وسار المنصور في التعبية حتى نزل جبل سالات، وارتحل وراءه إلى الرمال. ثم رجع ودخل بلاد صنهاجة، وبلغه رجوع أبي زيد إلى جبل كتامة فرجع إليه، ونزل عليه المنصور في كتامة وعجيسة وزواوة وحشد بني زنداك ومزاتة ومكناسة ومكلاتة.

وتقدم المنصور إليه فقاتلوا أبا يزيد وجموع النكارية فهزموهم واعتصموا بجبل كتامة. ورحل المنصور إلى المسيلة وإنحصر أبو في يد في قلعة الجبل، وعساكر المنصور إزاءها واشتد الحصار، وزحف إليها مرات. ثم اقتحمها عليهم فاعتصم أبو يزيد بقصر في ذروة القلعة فأحيط به واقتحم، وقتل أبو عمار الأعمى ويكموس المزاتي، ونجا أبو يزيد منها بالجراحة محمولا بين ثلاثة من أصحابه فسقط في مهواة من الأوعار فوهن، وسيق من الغداة إلى المنصور فأمر بمداواته.

ثم أحضره ووبخه، وأقام الحجة عليه وتجافى عن دمه. وبعثه إلى المهدية، وفرض له بها الجراية فجزاه خيرا. وحمل في القفص فمات من جراحته سنة خمس وثلاثين. وأمر به فسلخ وحشي جلده بالتبن وطيف به في القيروان. وهرب الفل من أصحابه إلى ابنه فضل وكان مع معبد بن خزر فأغاروا على ساقة المنصور، وكمن لهم زيري بن مناد أمير صنهاجة فأوقع بهم. ولم يزل المنصور في أتباعه إلى أن نزل المسيلة وانقطع أثر معبد، ووافاه بمعسكره هنالك انتقاض حميد بن يصل عامل تيهرت من أوليائهم، وأنه ركب البحر من تنس إلى العدوة، فارتحل إلى تيهرت وولي عليها وعلى تنس. ثم قصد لواتة فهربوا إلى الرمال. ورجع إلى إفريقية سنة خمس وثلاثين. ثم بلغه أن فضل بن أبي يزيد أغار على جهات قسطيلة فرحل من سنته في طلبه، وانتهى إلى قفصة ثم ارتحل إلى ميطلة من أعمال الزاب، وفتح حصن ماداس مما يليه. وهرب فضل في الرمال فأعجزه، ورجع إلى القيروان سنة ست وثلاثين. ومضى فضل إلى جبل أوراس، ثم سار منه إلى باغاية فحاصرها. وغدر به ماطيط بن يعلى من أصحابه، وجاء برأسه إلى المنصور وأنقرض أمر أبي يزيد وبنيه، وافترقت جموعهم. واغتال عبد الله بن بكار من رؤساء مغراوة بعد ذلك أيوب بن أبي يزيد، وجاء برأسه إلى المنصور متقربا إليه. وتتبع المنصور قبائل بني يفرن بعدها إلى أن انقطع أثر الدعوة. والبقاء لله تعالى وحده.

الخبر عن الدولة الأولى لبني يفرن بالمغرب الأوسط والأقصي ومبادىء أمورهم ومصايرهم:

كان لبني يفرن من زناتة بطون كثيرة وكانوا متفرقين بالمواطن، فكان منهم بإفريقية بنو واركوا ومرنجيصة وغيرهم كما قدمناه، وكان منهم بنواحي تلمسان ما بينها وبين تاهرس أمم كثير عددهم وهم الذين اختطوا مدينة تلمسان كما نذكره بعد. ومنهم أبو قرة المنتزي بتلك الناحية لأول الدولة العباسية، وهو الذي حاصر عمر بن حفص بطبنة كما تقدم. ولما انقرض أمر أبي يزيد وأثخن المنصور فيمن كان بإفريقية من بني يفرن أقام هؤلاء الذين كانوا بنواحي تلمسان على وفودهم. وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح. ولما تولى المنصور محمد بن خزر وقومه مغراوة، وكان بينه وبين بني يفرن هؤلاء فتنة هلك فيها محمد بن صالح على يد عبد الله بن بكار من بني يفرن، كان متحيزا إلى مغراوة. وولي أمره في بني يفرن من بعده ابنه يعلى فعظم صيته، واختط مدينة إيفكان.

ولما خطب عبد الرحمن الناصر طاعة الأموية من زناتة أهل العدوة واستالف ملوكهم، سارع يعلى لإجابته واجتمع عليها مع الخير بن محمد بن خزر وقومه مغراوة، وأجلب على وهران؛ فملكها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة من يد محمد بن عون، وكان ولاه عليها صولات اللميطي أحد رجالات كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين فدخلها يعلى

عنوة على بنيه وخربها. وكان يعلى قد زحف مع الخير بن محمد إلى تاهرت، وبرز إليه ميسور الخصي في شيعته من لماية؛ فهزموهم وملكوا تاهرت، وتقبضوا على ميسور وعبدالله بن بكار؛ فبعث به الخير إلى يعلى بن محمد ليثأر به فلم يرضه كفؤا لدمه، ودفعه إلى من ثأر به من بني يفرن. واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب، وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر ما بين تاهرت إلى طنجة.

واستدعى من الناصر تولية رجال بيته على أمصار المغرب: فعقد على فاس لمحمد بن

الخير بن محمد بن عشيرة، ونسك محمد لسنة من ولايته، واستأذن في الجهاد والرباط بالأندلس فأجاز لذلك واستخلف على عمله ابن عمه أحمد بن عثمان بن سعيد، وهو الذي اختط مأذنة القرويين سنة أربع وأربعين كما ذكرناه. ولم يزل سلطان يعلى بن محمد بالمغرب عظيماً إلى أن أغزى المعز لدين الله كاتبه جوهر الصقلي من القيروان إلى المغرب سنة سبع وأربعين. فلما فصل جوهر بالجنود عن تخوم إفريقية بادر أمير زناتة بالمغرب يعلى بن محمد اليفرني إلى لقائه والإذعان لطاعته والانحياش إليه، ونبذ عهد الأموية، وأعمل إلى لقيه الرحلة من بلده إيفكان وأعطاه يد الانقياد. وعهد البيعة عن قوص بني يفرن وزناتة، فتقبلها جوهر وأضمر الفتك به، وتخير لذلك يوم فصوله من بلده.

وأسر إلى بعض مستخلصيه من الأتباع؛ فأوقعوا نفرة في أعقاب العسكر طار إليها الزعماء من كتامة وصنهاجة وزناتة، وتقيض على يعلى فهلك في وطيس تلك الهيعة فغص بالرماح على أيدي رجالات كتامة وصنهاجة، وذهب دمه هدرا في القبائل. وخرب جوهر مدينة إيفكان، وفرت زناتة أمامه، وكشف القناع في مطالبتهم. وقد ذكر بعض المؤرخين أن يعلى إنما لقي جوهرا عند منصرفه من الغزاة بمدينة تاهرت، وهنالك كان فتكه به بناحية شلف، فتفرقت بعدها جماعة بني يفرن وذهب ملكهم فلم يجتمعوا إلا بعد حين على ابنه بدوي بالمغرب كما نذكره. ولحق الكثير منهم بالأندلس كما يأتي خبره في موضعه، وانقرضت دولة بني يفرن هؤلاء إلى أن عادت بعد مدة على يد يعلى بفاس. ثم استقرت آخراً بسلا وتعاقبت فيهم هنالك إلى آخرها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن الدولة الثانية لبني يفرن بسلا من المغرب الأقصي وأولية ذلك وتصاريفه:

لما أوقع جوهر الكاتب قائد المعز بيعلى بن محمد أمير بني يفرن، وملك المغرب سنة سبع وأربعين كما ذكرناه، وتفرقت جموع بني يفرن لحق ابنه بدوي بن يعلى بالمغرب الأقصى وأحس بجوهر من ورائه فأبعد المفر وأصحر إلى أن رجع جوهر من المغرب. ويقال إن جوهرا تقبض عليه واحتمله أسيرا فاعتقل إلى أن فر من معتقله بعد حين،

واجتمع عليه قومه من بني يفرن. وكان جوهر عند منصرفه من المغرب ولى على الأدارسة المتحيزين إلى الريف وبلاد غمارة الحسن بن كنون شيخ بني محمد منهم فنزلى البصرة.

وأجاز الحكم المستنصر لأول ولايته سنة خمس وثلثمائة وزيره محمد بن قاسم بن طملس في العساكر لتدويخ المغرب، فجمع له الحسن بن كنون وأوقع به، ورجع إلى الأندلس مفلولا فسرح الحكم فولاه غالبا لتدويخ المغرب واقتلاع جرثومة الأدارسة، فأجاز في العساكر وغلبهم على بلادهم وأزعجهم جميعا عن المغرب إلى الأندلس سنة خمس وستين كما ذكرناه. ومهد دعوة الأموية بالمغرب، وأقفل الحكم مولاه غالبا ورده إلى الثغر لسده، وعقد على المغرب ليحيى بن محمد بن هاشم التجيبي صاحب الثغر الأعلى، وكان أجازه مددا لغالب في رجال العرب وجند الثغور حتى إذا انغمس الحكم في علة الفالج، وركدت ريح المروانية بالمغرب واحتاجت الدولة إلى رجالها لسد الثغور ودفاع العدو، استدعى يحيى بن محمد بن هاشم من العدوة، وأداله الحاجب المصحفي بجعفر بن علي بن حمدون أمير الزاب والمسيلة النازع إليهم من دعوة الشيعة، وجمعوا بين الانتفاع به في العدوة والراحة مما يتوقع منه على الدولة ومن البرابرة في التياث الخلافة، لما كانوا أصاروا إليه من النكبة، وطوقوه من المحنة. ولما كان اجتمع بقرطبة من جموع البرابرة فعقدوا له ولأخيه يحيى على المغرب، وخلعوا عليهما وأمكنوهما من مال دثر وكسي فاخرة للخلع على ملوك العدوة، فنهض جعفر إلى المغرب سنة خمس وستين وضبطه.

واجتمع إليه ملوك زناتة مثل بدوي بن يعلى أمير بني يفرن وابن عمه نوبخت بن عبد الله بن بكار، ومحمد بن الخير بن خزر وابن عمه بكساس بن سيد الناس، وزيري بن خزر وزيري ومقاتل ابنا عطية بن تبادلت وخزرون بن محمد وفلفول بن سعيد أمير مغراوة وإسمعيل بن البوري أمير مكناسة، ومحمد بن عمه عبدالله بن مدين وخزرون بن محمد الأزداجي، وكان بدوي بن يعلى من أشدهم قوة وأحسنهم طاعة. ولما هلك الحكم وولي مكانه هشام المؤيد. وانفرد محمد بن أبي عامر بحجابته اقتصر من العدوة لأول قيامه على مدينة سبتة؛ فضبطها بجند السلطان

ورجال الدولة، وقلدها الصنائع من أرباب السيوف والأقلام، وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة وتعهدهم بالجوائز والخلع، وصار إلى إكرام وفودهم وإثبات من رغب في الإثبات في ديوان السلطان منهم فجردوا في ولاية الدولة وبث الدعوة.

وفسد ما بين أمير العدوة جعفر بن علي وأخيه يحيى واقتطع يحيى مدينة البصرة لنفسه وذهب بأكثر الرجال. ثم كانت على جعفر النكبة التي نكبه برغواطة في غزاته إئاهم، واستدعاه محمد بن أبي عامر لأول أمره لما رآه من استقامته إليه، وشد أزره به وتلوى عليه كراهية لما يلقى بالأندلس من الحكم. ثم أصلحه وتخلى لأخيه عن عمل المغرب وأجاز البحر إلى ابر أبي عامر؛ فحل منه بالمكان الأثير وتناغت زناتة في التزلف إلى الدولة بقرب الطاعات، فزحف خزرون بن فلفول سنة ست وستين إلى مديتي سجلماسة فافتتحها ومحا أثر دولة آل مدرار منها، وعقد له المنصور عليها كما ذكرنا ذلك قبل.

وزحف عقب هذا الفتح بلكين بن زيري قائد إفريقية للشيعة إلى المغرب سنة تسع وستين زحفه المشهور. وخرج محمد بن أبي عامر من قرطبة إلى الجزيرة لمدافعته بنفسه، واحتمل من بيت المال مائة حمل، ومن العساكر ما لا يحصى عده. وأجاز جعفر بن علي بن حمدون إلى سبتة، وانضمت إليه ملوك زنالة، ورحى بكلين عنهم إلى غزو برغواطة إلى أن هلك سنة ثلاث وسبعين كما ذكرناه.

ورجع جعفر إلى مكانه من ابن أبي عامر، لم يسمح بمقامه عنه. ووصل حسن بن كنون خلال ذلك من القاهرة بكتاب عبد العزيز بن نزار بن معد إلى بلكين صاحب إفريقية في إعانته على ملوك المغرب وإمداده بالمال والعساكر، فأمضاه بلكين لسبيله، وأعطاه مالا ووعده بإضعافه. ونهض إلى المغرب فوجد طاعة المروانية قد استحكمت فيه. وهلك بلكين إثر ذلك وشغل ابنه المنصور عن شأنه؛ فدعا الحسن بن كنون إلى نفسه، وأنفذ أبو محمد بن أبي عامر ابن عمه محمد بن عبد الله، ويلقب عسكلاجة، لحربه سنة خمس وسبعين. وجاء أثره إلى الجزيرة كيما يشارف القصة، وأحيط بالحسم بن كنون فسأل الأمان وعقد له مقارعه عمر وعسكلاجة وأشخصه إلى الحضرة فلم يمض ابن أبي عامر أمامه، ورأى أن لا ذمة له لكثرة نكثه فبعث من ثقاته من أتاه برأسه، وانقرض أمر الأدارسة وانمحى أثرهم فأغضب عمر وعسكلاجة لذلك.

واستراح إلى الجند بأقوال نميت عنه إلى المنصور فاستدعاه من العدوة وألحقه بمقتوله ابن كنون.

وعقد على العدوة للوزير حسن بن أحمد بن الورود السلمي، وأكثف عدده وأطلق في المال يده. ونفذ إلى عمله سنة ست فضبط المغرب أحسن ضبط وهابته البرابرة، ونزل فاس من العدوة، فعز سلطانه وكثر جمعه، وانضم إليه ملوك النواحي حتى حذر ابن أبي عامر مغبة استقلاله، وأستدعاه ليبلو صحة طاعته، فأسرع اللحاق به، فضاعف تكرمته وأعاده إلى عمله. وكان بدوي بن يعلى هذا من بين ملوك زناتة كثير الاضطراب على الأموية والمراوغة لهم بالطاعة. وكان المنصور بن أبي عامر يضرب بينه وبين قرينه زيري بن عطية ويقرن كلأ منهما بمناغاة صاحبه في الاستقامة، وكان إلى زيري أميل وبطاعته أوثق، لخلوصه وصدق طويته وانحياشه فكان يرجو أن يتمكن من قياد بدوي بن يعلى بمناغاته. فاستدعى بزيري بن عطية إلى الحضرة سنة سبع وسبعين فبادر إلى القدوم عليه، وتلقاه وأكبر موصله وأحسن مقامه ومنقلبه وأعظم جائزته وسام بدوي مثلها فامتنع، وقال لرسوله، قل لابن أبي عام: متى عهد حمر الوحش تنقاد للبياطرة؟ وأرسل عنانه في العيث والفساد، ونهض إليه صاحب المغرب الوزير حسن بن عبد الودود في عساكره وجموعه من جند الأندلس وملوك العدوة مظاهرا عليه لعدوه وزيري بن عطية، وجمع لهم بدوي ولقيهم سنة إحدى وثمانين فكان الظهور له.

وانهزم عسكر السلطان وجموع مغراوة؛ واستلحموا وجرح الوزير حسن بن عبد الودود جراحات كان فيها لليال مهلكه. وطار الخبر إلى ابن أبي عامر فاغتم لذلك، وكتب إلى زيري بضبط فاس ومكاتبة أصحاب حسن، وعقد له على المغرب كما نستوفي ذكره عند دولتهم. وغالبه بدوي عليها مرة بعد أخرى ونزع أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي عن قومه، ولحق بسواحل تلمسان ناقضا لطاعة الشيعة، وخارجا على ابن أخيه المنصور بن بلكين صاحب القيروان. وخاطب ابن أبي عامر من وراء البحر، وأوفد عليه ابن أخيه ووجوه قومه فسرب إليه الأموال والصلات بفاس مع

زيري حسبما نذكره، وجمع أيديهما على مدافعة بدوي، فساء أمره فيهما جميعا إلى أن راجع أبو البهار ولاية منصور ابن أخيه كما نذكره بعد. وحاربه زيري فكان له الظهور عليه، ولحق أبو البهار بسبتة. ثم عاد إلى قومه.

واستفحل زيري من بعد ذلك، وكانت بينه وبين بدوي وقعة اكتسح زيري من ماله ومعسكره مالا كفؤله، وسبى حرمه. واستلحم من قومه زهاء ثلاثة آلاف فارس. وخرج إلى الصحراء شريدا سنة ثلاث وثمانين. وهلك هناك فولي أمره في قومه حبوس ابن أخيه زيري بن يعلى، ووثب به ابن عمه أبو يداس بن دوناس فقتله طمعا في الرياسة من بعده، واختلف عليه قومه فأخفق أمله وعبر البحر إلى الأندلس في جمع عظيم من قومه. وولي أهر بني يفرن من بعده حمامة بن زيري بن يعلى أخو حبوس المذكور؛ فاستقام عليه أمر بني يفرن وقد مر ذكره في خبر بدوي غير مرة، وأنه كانت الحرب بينه وبين زيري بن عطية سجالاً، وكانا يتعاقبان ملك فاس بتناول الغلب. وأنه لما وفد زيري على المنصور خالفه بدوي إلى فاس فملكها وقتل بها خلقا من مغراوة، وأنه لما رجع زيري اعتصم بدوي بفاس فنازله زيري. وهلك من مغراوة وبني يفرن في ذلك الحصار خلق. ثم اقتحمها زيري عليهم عنوة فقتله وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة سنة ثلاث وثمانين والله أعلم.

ولما اجتمع بنويفرن على حمامة تحيز بهم إلى ناحية شاله من المغرب فملكها وما إليها من تادلا، واقتطعها من زيري، ولم يزل عميد بني يفرن في تلك العمالة، والحرب بينه وبين زيري ومغراوة متصلة. وكانت بينه وبين المنصور صاحب القيروان مهاداة فأهدى إليه، وهو محاصر لعمه حماد بالقلعة سنة ست وأربعمائة، وأوفد بهديته أخاه زاوي بن زيري فلقيه بالطبول والبنود. ولما هلك حمامة قام بأمر بني يفرن من بعده أخوه الأمير أبو الكمال تميم بن زيري بن يعلى فاستبد بملكهم، وكان مستقيما في دينه مولعا بالجهاد؟ فانصرف إلى جهاد برغواطة وسالم مغراوة وأعرض عن فتنتهم.

ولما كانت سنة أربع وعشرين وأربعماية تجددت العداوة بين هذين الحيين بني يفرن ومغراوة، وثارت الإحن القديمة، وزحف أبو الكمال صاحب شالة وتادلا وما إلى ذلك في جموع يفرن. وبرز إليه حمامة بن المعز في قبائل مغراوة، ودارت بينهم حروب شديدة وانكشفت مغراوة وفر حمامة إلى وجدة، واستولى الأمير أبو الكمال تميم وقومه على فاس وغلبوا مغراوة على عمل المغرب. واكتسح تميم اليهود بمدينة فاس،

واصطلم نعمهم واستباح حرمهم. ثم احتشد حمامة من وجدة سائر قبائل مغراوة وزناتة، وبعث الحاشدين في قياطينهم لجميع بلاد المغرب الأوسط، ووصل إلى تنس صريخا لزعمائهم. وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم، وزحف إلى فاس سنة تسع وعشرين فأفرج عنها أبو الكمال تميم، ولحق ببلده ومقر ملكه من شالة، وأقام بمكان عمله وموطن أمارته منها إلى أن هلك سنة ست وأربعين. وولي ابنه حماد إلى أن هلك سنة تسع وأربعين، وولي بعده ابنه يوسف إلى أن توفي سنة ثمان وخمسين فولي بعده عمه محمد ابن الأمير أبي تميم إلى أن هلك في حروب لمتونة حين غلبوهم على المغرب أجمع حسبما نذكره، والملك لته يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وأما أبو يداس بن دوناس قاتل حبوس بن زيري بن يعلى بن محمد فإنه لما اختلف عليه بنو يفرن، وأخفق أمله في اجتماعهم له أجاز البحر إلى الأندلس سنة اثنتين وثمانين فرفعه إخوانه أبو قرة وأبو زيد وعطاف، فحل كلهم من المنصور محل التكرمة والإيثار ونظمه في جملة الرؤساء والأمراء، وأسنى له الجراية والاقطاع، وأثبت رجاله في الديوان ومن أجاز من قومه، فبعد صيته وعلا في الدولة كعبه.

ولما افترقت الجماعة وانتشر سلك الخلافة كان في حروب البربر مع جند الأندلس آثار بعيدة وأخبار غريبة. ولما ملك المستعين قرطبة سنة أربعمائة واجتمع إليه من كان بالأندلس من البرابرة لحق المهدي بالثغور واستجاش طاغية الجلالقة، فزحف معه إلى غرناطة، وخرج المستعين في جموعه من البرابرة إلى الساحل، واتبعهم المهدي في جموعه فتواقعوا بوادي أيرة فكانت بين الفريقين جولة عظم بلاء البرابرة، وطار لأبي يداس فيها ذكر، وانهزم المهدي والطاغية وجموعهم بعد أن تضايقت المعركة وأصابت أبا يداس بن دوناس جراحة كان فيها مهلكه، ودفن هناك. وكان لابنه خلوف وحافده تميم بن خلوف من رجالات زناتة بالأندلس شجاعة ورياسة، وكان يحيى بن عبد الرحمن بن أخيه عطاف من رجالاتهم، وكان له اختصاص ببني حمود، ثم بالقاسم منهم ولاه على قرطبة أيام خلافته والبقاء لله وحده.

الخبر عن أبي نور بن أبي قرة وما كان له من الملك بالأندلس أيام الطوائف:

هذا الرجل اسمه أبو نور بن أبي قرة بن أبي يفرن من رجالات البربر الذين استظهر بهم قومهم أيام الفتنة، تغلب على رندة أزمان تلك الفتن، وأخرج منها عامر بن فتوح من موالي الأموية سنة خمس وأربعمائة، فملكها واستحدث بها لنفسه سلطانا. ولما استفحل أمر ابن عياد بإشبيلية وأسف إلى تملك ما جاوره من الأعمال والثغور، نشأت الفتنة بينه وبين أبي نور هذا. واختلف حاله معه في الولاية والإنحراف، وسجل له سنة ثلاث وأربعين برندة وأعمالها فيمن سجل له من البربر. واستدعاه بعدها سنة خمسين لبعض ولائمه، وكاده بكتاب أوقفه عليه على لسان جارية بقصره تشكو إليه ما نال منها ابنه من المحرم، فانطلق إلى بلده وقتل ابنه. وشعر بالمكيدة فمات أسفا، وولي ابنه الاخر أبو نصر إلى سنة سبع وخمسين فغدر به بعض جنده وخرج هاربا فسقط من السور ومات. وتسلم المعتمد رندة من بعد ذلك، ولقالى إن ذلك كان عند كائنة الحمام سنة خص وأربعين، وإن أبا نور هلك فيها. ولما بلغ الخبر ابنه أبا نصر وقع ما وقع والله أعلم.

الخبر عن مرنجيصة من بطون بني يفرن وشرع أحوالهم:

كان هذا البطن من بني يفرن بضواحي إفريقية، وكانت له كثرة وقوة. ولما خرج أبو يزيد على الشيعة، وكان من أخوالهم بنو واركوا ظاهروه على أمره بما كان له معهم من العصبية. ثم انقرض أمره وأخذتهم دولة الشيعة وأولياؤهم صنهاجة وولاتهم على إفريقية بالسطوة والقهر، وإنزال العقوبات بالأنفس والأموال إلى أن تلاشوا وأصبحوا في عداد القبائل الغارمة. وبقيت منهم أحياء نزلوا ما بين القيروان وتونس أهل شاء وبقر وخيام يظعنون في نواحيها وينتحلون الفلح في معاشهم، وملك الموحدون إفريقية وهم بهذه الحال، وضربت عليهم المغارم والضرائب والعسكرة مع السلطان في غزواته بعدة مفروضة يحضرون بها متى استقروا.

ولما تغلبت الكعوب من بني سليم على ضواحي إفريقية وأخرجوا منها الدواودة من رياح أعداء الدولة لذلك العهد. واستظهر بهم السلطان عليهم. اتخذوا إفريقية وطنا من قابس إلى باجة. ثم اشتدت ولايتهم للدولة، وعظم الاستظهار بهم وأقطعهم ملك الدولة ما شاؤوه من الأعمال والخراج فكان؛ في إقطاعهم خراج مرنجيصة هؤلاء. ولما كانت وقعة بنو مرين على القيروان وكان بعدها في الفترة ما كان من طغيان الفتنة التي اعتز فيها العرب على السلطان والدولة، كان لهؤلاء الكعوب المتغلبين مدد قوي من أحباء مرنجيصة هؤلاء من الخيل للحملان، والجباية للإنفاق، والإنعام للحمال والخياو، للاستظهار بأعدادهم في الحروب فصاروا لهم لحمة وخولا، وتملكوهم تملك العبيد، حتى إذا ذهب الله بحمى الفتنة، وأقام مائل الخلافة والدولة وصار تراث هذا الملك الحفصي إلى الأحق به مولانا السلطان أبي العباس أحمد، فانقشع الجو وأضاء الأفق ودفع المتغلبين من العرب عن أعماله، وقبض أيديهم عن رعاياه. وأصار مرنجيصة هؤلاء من صفاياه بعد إنزال العقوبة بهم على لياذهم بالعرب وظعنهم معهم، فراجعوا الحق وأخلصوا في الانحياش، ورجعوا إلى ما ألفوه من الغرامة وقوانين الخراج، وهم على ذلك لهذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن مغراوة من أهل الطبقة الأولي من زناتة وما كان لهم من الدول بالمغرب ومبدأ ذلك وتصاريفه:

هؤلاء القبائل من مغراوة كانوا أوسع بطون زناتة وأهل البأس والغلب، ونسبهم إلى مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا إخوة بني يفرن وبني، برنيان، وقد تقدم الخلاف في نسبهم عند ذكر بني يفرن. وأما شعوبهم وبطونهم فكثر مثل بني يلنت وبني زنداك وبني وراق وورتزمير وبني أبي سعيد وبني ورسيفان ولغواط وبني ريغة وغيرهم ممن لم يحضرني أسماؤهم. وكانت محلاتهم بأرض المغرب الأوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها

ولهم مع إخوانهم بني يفرن اجتماع وافتراق ومناغاة في أحوال البدو. وكان لمغراوة هؤلاء في بدوهم ملك كبير أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم، وحسن إسلامهم.

وهاجر أميرهم صولات بن وزمار إلى المدينة، ووفد على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فلقاه برا وقبولا لهجرته وعقد له على قومه ووطنه. وانصرف إلى بلاده محبواً محبوراً مغتبطا بالدين فظاهرا لقبائل مضر، فلم يزل هذا دأبه. وقيل إنه تقبض عليه أسيراً لأول الفتح في بعض حروب العرب مع البربر قبل أن يدينوا بالدين فأشخصوه إلى عثمان لمكانه من قومه فمن عليه وأسلم فحسن إسلامه. وعقد له على عمله فاختص صولات هذا وسائر الأحياء من مغرارة بولاء عثمان وأهل بيته من بني امية، وكانوا خاصة لهم دون قريش، وظاهروا دعوة المروانية بالأندلس رعيا لهذا الولاء على ما تراه بعد في أخبارهم.

ولما هلك صولات قام بأمره في مغراوة وسائر زناتة من بعده ابنه حفص، وكان من أعظم ملوكهم. ثم لما هلك قام بأمره ابنه خزر. وعندما تقلص ظل الخلافة عن المغرب الأقصى بعض الشيء وأطلت فتنة ميسرة الحقير ومطخرة فاعتز خزر وقومه على أمراء المضرية بالقيروان، واستفحل ملكهم وعظم شأن سلطانهم على البدو من زناتة بالمغرب الأوسط. ثم انتقض أمر بني امية بالمشرق فكانت الفتنة بالمغرب فازدادوا اعتزازاً وعتوا. وهلك خلال ذلك خزر، وقام بملكه ابنه محمد، وخلص إلى المغرب إدريس الأكبر بن عبد الله بن حسن بن الحسن سنة سبعين ومائة في خلافة الهادي. وقام برابرة المغرب من أوربة ومدينة ومغيلة بأمره، واستوثق له الملك واقتطع المغرب عن طاعة بني العباس سائر الأيام.

ثم نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين فتلقاه محمد بن خزر هذا وألقى إليه المقادة، وبايع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها. وانتظم لإدريس بن إدريس الأمر، وغلب على جميع أعمال أبيه، وملك تلمسان. وقام بنو خزر هؤلاء بدعوته كما كانوا لأبيه. وكان قد نزل تلمسان لعهد إدريس الأكبر أخوه سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن القادم إليه من المشرق، وسجل له بولاية تلمسان من سجل ابنه إدريس لمحمد ابن عمه سليمان من بعده،

فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه، واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية فكانت تلمسان لولد إدريس بن محمد بن سليمان، وأرشكول لولد عيسى بن محمد، وتنس لولد إبراهيم بن محمد بن محمد، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لنبي يفرن ومغراوة.

ولم يزل الملك بضواحي المغرب الأوسط لمحمد بن خزر كما قلناه إلى أن كانت

دولة الشيعة، واستوثق لهم ملك إفريقية. وسرح عبيد الله المهدي إلى المغرب عروبة بن يوسف الكتامي في عساكر كتامة سنة ثمان وتسعين ومائتين، فدوخ المغرب الأدنى ورجع. ثم سرح بعده مصالة بن حبوس إلى المغرب في عساكر كتامة؛ فاستولى على أعمال الأدارسة ، واقتضى طاعتهم لعبيد الله. وعقد على فاس ليحيى بن إدريس بن عمر آخر ملوك الأدارسة. وخلع نفسه ودان بطاعتهم، وعقد له مصالة على فاس، وعقد لموسى بن أبي العالية أمير مكناسة وصاحب تازة، واستولى على ضواحي المغرب، وقفل إلى القيروان. وانتقض عمر بن خزر من أعقاب محمد بن خزر الداعية لإدريس الأكبر، وأمل زناتة وأهل المغرب الأوسط على البرابرة من الشيعة وسرح عبيد الله المهدي مصالة قائد المغرب في عساكر كتامة سنة تسع، ولقيه محمد بن خزر في جموع مغراوة وسائر زناتة ففل عساكر مصالة وخلص إليه فقتله. وسرح عبيد الله ابنه أبا القاسم في العساكر إلى المغرب سنة عشر، وعقد له عى حرب محمد بن خزر وقومه فأجفلوا إلى الصحراء، واتبع آثارهم إلى ملوية فلحقوا بسلجماسة وعطف أبو القاسم على المغرب فدوخ أقطاره وجال في نواحيه وجدد لابن أبي العافية على عمله ورجع ولم يلق كيداً.

ثم إن الناصر صاحب قرطبة سما له أمل في ملك العدوة فخاطب ملوك الأدارسة وزناتة، وبعث إليهم خالصته محمد بن عبيد الله بن أبي عيسى سنة ست عشرة فبادر محمد بن خزر إلى إجابته، وطرد أولياء الشيعة من الزاب. وملك شلب وتنس من أيديهم وملك وهران وولى عليها

ابنه الخير، وبث دعوة الأموية في أعمال المغرب الأوسط ما عدا تاهرت.
وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم

بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول. ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة وأجار موسى بن أبي العالية على طاعته، واتصلت يده بمحمد بن خزر وتظاهروا على الشيعة. وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد إلى طاعة الشيعة، وعقد له عبد الله على مغراوة.

وزحف إلى المغرب حميد بن يصل سنة إحدى وعشرين في عساكر كتامة إلى عبد الله على تاهرت فانتهى إلى فاس وأجفلت أمامه ظواعن زناتة ومكناسة ودوخ المغرب. وزحف من بعده ميسور الخصي سنة اثنتين وعشرين فحاصر فاس وامتنعت عليه ورجع. ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمان وعشرين وتحيز إلى محمد بن خزر. ثم أجاز إلى الناصر وولاه على المغرب الأوسط. ثم شغل الشيعة بفتنة أبي يزيد، وعظمت آثار محمد بن خزر وقومه من مغراوة. وزحفوا إلى تاهرت مع حميد بن يصل قائد ا أموية سنة ثلاث وثلاثين. وزحف معه الخير بن محمد وأخوه حمزة وعمه عبد الله بن خزر، ومعهم يعلى بن محمد في قومه بني يفرن وأخذوا تاهرت عنوة، وقحلوا عبد الله بن بكار، وأسروا قائدها ميسور الخصي بعد أن قتل حمزة بن محمد بن خزر في حروبها.

وكان محمد بن خزر وقومه زحفوا قبل ذلك إلى بسكرة ففتحوا وقتلوا زيدان الخصي. ولما خرج إسمعيل من حصار أبي يزيد، وزحف إلى المغرب في أتباعه خشية محمد بن خزر على نفسه لما سلف منه في نقض دعوتهم، وقتل أتباعهم؛ فبعث إليه بطاعة معروفة. وأوعز إليه إسمعيل بطلب أبي يزيد ووعده في ذلك بعشرين حملا من المال. وكان أخوه معبد بن خزر في موالاة أبي يزيد إلى أن هلك. وتقبض إسمعيل بعد ذلك على معبد سنة أربعين وقتله، ونصب رأسه بالقيروان. ولم يزل محمد بن خزر وابنه الخير متغلباً على المغرب الأوسط ومقاسما فيها ليعلى بن محمد. ووفد فتوح بن الخير سنة أربعين على الناصر مع مشيخة تاهرت ووهران فأجازهم وصرفهم إلى أعمالهم.

ثم حدثت الفتنة بين مغراوة وصنهاجة، وشغل حمد بن خزر وابنه الخير بحروبهم، وتغلب يعلى بن محمد على وهران وخربها، وعقد الناصر لحميد بن يصل على تلمسان

وأعمالها، وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة من أجل قريعة يعلى بن محمد. ووفد على المعز بعد مهلك أبيه إسمعيل سنة اثنتين وأربعين؟ فأولاه تكرمة على طاعتهم؛ إلى أن حضر مع جوهر في غزاته إلى المغرب بأعوام سبع أو ثمان وأربعين. ثم وفد على المعز بعد ذلك سنة خمسين، وهلك بالقيروان، وقد نيف على المائة من السنين.

وهلك الناصر المرواني عامئذ على حين انتشرت دعوة الشيعة بالمغرب، وانقبض

أولياء ا أموية إلى أعمال سبتة وطنجة فقام بعده ابنه الحكم المستنصر، واستأنف مخاطبة ملوك العدوة فأجابه محمد بن الخير بن محمد بن خزر بما كان من أبيه الخير وجده محمد في ولاية الناصر، والولاية التي لبني امية على آل خزر بوصية عثمان بن عفان لصولات بن وزمار جدهم كما ذكرناه، فأثخن في الشيعة ودوخ بلادهم. ورماه معد بقريعه زيري بن مناد أمير صنهاجة فعقد له على حرب زناتة وسوغه ما غلب عليه من أعمالهم، وجمعوا للحرب سنة ستين ومائتين فلقي بلكين بن زيري جموعهم بدسيسة من بعض أولياء محمد بن الخير قبل أن يستكمل تعبيتهم فأبلى منهم ثباتا وصبرا، واشتدت الحرب بينهم وانهزمت زناتة، حتى إذا رأى محمد بن الخيران قد أحيط به انتبذ إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه. واستمرت الهزيمة على قومه، وجندل منهم في المعركة سبعة عشر أميرا سوى الأتباع. وتحيز كل إلى فريقه.

وولي بعد محمد في مغراوة ابنه الخير وأغرى بلكين بن زيري الخليفة معد وجندل بن جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة، والزاب بموالاة حمد بن الخير فاستراب جعفر، وبعث عنه معد لولاية إفريقية حتى اعتزم على الرحيل إلى القاهرة، فاشتدت استرابته ولحق بالخير بن محمد وقومه. وزحفوا إلى صنهاجة فاتيحت لهم الكرة، وأصيب زيري بن مناد كبير العصابة، وبعثوا برأسه إلى قرطبة في وفد من وجوه بني خزر مع يحيى بن علي أخي جعفر. ثم استراب بعدها جعفر من زناتة ولحق بأخيه يحيى، ونزلوا على الحكم. وعقد معد لبلكين بن زيري على حرب زناتة، وأمده

بالأموال والعساكر، وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين، وأوغر بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة

وأجفلت زناتة أمامه. وتقدم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة ولحق بالمغرب الأقصى.

واتبع بفكين آثار الخير بن محمد وقومه إلى سجلماسة، فأوقع بهم وتقبض عليهم، فقتله صبراً وفض جموعهم، ودوخ المغرب وانكص راجعاً. ومر بالمغرب الأوسط فاستلحم بوادي زناتة ومن إليهم من الخصاصين، ورفع الأمان عن كل من ركب فرساً أو أنتج خيلا من سائر البربر. ونذر دماءهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة، وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى إلى أن كان من رجوع بني يعلى بن محمد إلى تلمسان، وملكهم إياها، ثم هلك بنو خزر بسجلماسة وطرابلس، وملك بني زيري بن عطية بفاس ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

آل زيري بن عطية ملوك فاس

الخبر عن آل زيري بن طية ملوك فاس وأعمالها

من الطبقة الأولي من مغراوة وما كان لهم بالمغرب الأقصى

من الملك والدولة ومبادىء ذلك وتصاريفه

كان زيري هذا أمير آل خزر في وقته، ووارث ملكهم البدوي، وهو الذي مهد الدولة بفاس والمغرب الأقصى وأورثها بنيه إلى عهد لمتونة حسبما نستوفي شرحه. واسمه زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر وجده عبد الله أخو محمد داعية الناصر الذي هلك بالقيروان كما ذكرناه، وكانوا أربعة إخوة: محمد ومعبد الذي قتله إسمعيل، وفلفول الذي خالف محمدا إلى ولاية الشيعة وعبد الله هذا وكان يعرف بأمه واسمها تبادلت. وقد قيل إن عبد الله هذا هو ابن محمد بن خزر، وأخوه حمزة بن محمد الهالك في حربه مع ميسور عند فتح تاهرت. ولما هلك بن محمد كما قلناه بيد بلكين سنة إحدى وستين، وارتحلت زناتة إلى ما وراء ملوية من المغرب الأقصى، وصار المغرب الأوسط كله لصنهاجة واجتمع مغراوة إلى بقية آل خزر وأمراؤهم يومئذ محمد بن خير المذكور ومقاتل وزيري ابنا مقاتل بن عطية بن عبد الله، وخزرون بن فلفول.

ثم كان ما ذكرناه من ولاية بلكين بن زيري على إفريقية، وزحف إلى المغرب الأقصى زحفه المشهور سنة تسع وستين، وأجفلت أمامه ملوك زناتة من بني خزر وبني محمد بن صالح، وانحازوا جميعا إلى سبتة. وأجاز محمد بن الخير البحر إلى المنصور بن أبي عامر صريخا؟ فخرج المنصور في عساكره إلى الجزيرة ممدا لهم بنفسه. وعقد لجعفر بن علي على حرب بلكين، وأجازه البحر وأمده بمائة حمل من المال فاجتمعت إليه ملوك زناتة، وضربوا مصافهم بساحة سبتة، وأظل عليهم بلكين من جبل تطاون فرأى ما لا قبل له به فارتحل عنهم، وأشغل نفسه بجهاد برغواطة إلى أن هلك منصرفا من المغرب سنة اثنتين وسبعين كما ذكرناه.

وعاد جعفر بن علي إلى مكانه من الحضرة، وساهمه المنصور في حمل الرياسة، وبقي

المغرب غفلا من الولاية، واقتصر المنصور على ضبط سبتة، ووكل إلى ملوك زناتة دفاع صنهاجة وسائر اولياء الشيعة. وقام يبلو طاعتهم إلى أن قام بالمغرب الحسن بن كنون من الأدارسة، بعثه العزيز نزار من مصر لاسترجاع ملكه بالمغرب، وأمده بلكين بعسكر من صنهاجة وهلك على تفيئة ذلك بلكين، ودعا الحسن إلى أمره بالمغرب. وانضم إليه بدوي بن يعلى بن محمد اليفرني وأخوه زيري وابن عمه أبو يداس فيمن إليهم من بني يفرن فسرح المنصور لحربه ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر الملقب عسكلاجة، وبعثه بالعساكر والأموال فأجاز البحر، وانحاش إليه ملوك آل خزر محمد بن الخير، ومقاتل وزيري ابنا عطية، وخزرون بن فلفول في جمع مغراوة، وظاهروه على شأنه.

وزحف بهم أبو الحكم بن أبي عامر إلى الحسن بن كنون حتى ألجأوه إلى الطاعة، وسأل الأمان على نفسه؟ فعقد له عمرو بن أبي عامر ما رضيه من ذلك، وأمكن به من قياده، وأشخصه إلى الحضرة فكان من قتله وإخفار ذمة أبي الحكم بن أبي عامر، وقتله بعده ما تقدم حسبما ذكرنا ذلك من قبل.

وكان مقاتل وزيري ابنا عطية من بين ملوك زناتة أشد الناس انحياشا للمنصور وقياما بطاعة المروانية. وكان بدوي بن يعلى وقومه بنو يفرن منحرفين عن طاعتهم. ولما انصرف أبو الحكم بن أبي عامر عن المغرب عقد المنصور عليه للوزير حسن بن أحمد عبد الودود السلمي، وأطلق يده في انتقاء الرجال والأموال فأنفذه إلى عمله سنة ست وسبعين، وأوصاه بملوك مغراوة من زناتة، واستبلغ بمقاتل وزيري من بنيهم لحسن انحياشهم وطاعتهم، وأغراه ببدوي بن يعلى المضطرب الطاعة الشديد المراوغة، فنفذ لعمله ونزل بفاس، وضبط أعمال المغرب، واجتمعت إليه ملوك زناتة.

وهلك مقاتل بن عطية سنة ثمان وسبعين، واستقل برياسة الظواعن البدو عن مغراوة أخوه زيري بن عطية وحسنت مخاللته لابن عبد الودود صاحب المغرب وانحياشه بقومه إليه. واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين إشادة بتكريمه، وأغراه ببدوي بن يعلى بمنافسته في الخط وإيثار الطاعة فبادر

إلى إجابته بعد أن استخلف على المغرب ابنه المعز، وأنزله بتلمسان ثغر المغرب، وولى عن عدوة القرويين من فاس علي بن حمي بن أبي علي قشوش، وعلى عدوة الأندلسيين عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة. وقدم بين يديه هدية إلى المنصور، ووفد عليه فاستقبله بالجيش والعدة واحتفل للقائه، وأوسع نزله وجرايته ونوه باسمه في الوزارة وأقطعه رزقها. واثبت رجاله في الديوان ووصله بقيمة هديته وأسنى فيها، وأعظم جائزة وفده وعجل تسريحه إلى عمله فقفل إلى إمارته من المغرب. ونمي عنه خلاف ما احتسب فيه من غمط المعروف وإنكار الصنيع، والاستنكاف من لقب الوزارة التي نوه به حتى أنه قال لبعض حشمه، وقد دعاه بالوزير: وزير من يا لكع، لا والله إلا أمير ابن أمير، واعجبا من ابن أبي عامر وخرفته والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا ليوما، والله لقد تأجرني فيما أهديت

إليه حطا للقيم، ثم غالطني بما بدله تبتيتاً للكرم إلا أن يحتسب بثمن الوزارة التي حطني بها عن رتبتي.

ونمي ذلك إلى ابن أبي عامر فصر عليها أذنه وزاد في اصطناعه وبعث إلى يدو بن يعلى اليفرني قريعه في ملك زناتة يدعوه إلى الوفادة فأساء إجابته وقال: متى عهد المنصور حفر الوحش تنقاد إلى البياطرة. وأخذ في إفساد السابلة والأجلاب على الأحياء والعيث في العمالة، فأوعز المنصور إلى عامله على المغرب الوزير حسن بن عبد الودود بنبذ العهد إليه، ومظاهرة عدوه زيري بن عطية عليه، فجمحوا له سنة إحدى وثمانين ولقوه فكانت الدائرة عليهم، وتخرم العسكر، وأثبتت الوزير ابن عبد الودود جراحة كان فيها حتفه. وبلغ الخبر إلى المنصور فشق عليه وأهمه شأن المغرب، وعقد عليه لوقته لزيري بن عطية، وكتب إليه بعهده وأمره بضبط المغرب ومكاتبة جند السلطان وأصحاب حسن بن عبد الودود، فاضطلع بأعبائه وأحسن الغناء في عمله.

واستفحل شأن يدو بن يعلى وبني يفرن، واستغلظوا على زيري بن عطية وأصلوه نار الفتنة، وكانت حربهم سجالا. وسيمت الرعايا بفاس كثرة تعاقبهم عليها وانتزائهم على عملها. وبعث الله لزيري بن عطية ومغراوة مددا من أبي البهار بن زيري بن مناد بما كان انتقص لذلك العهد على أخيه منصور بن بلكين صاحب القيروان وإفريقية، ونزع عن دعوة الشيعة إلى المروانية. واقتفى أثره في ذلك خلوف بن أبي بكر صاحب تيهرت وأخوه عطية لصهر كان بينهما وبين زيري، فاقتطعوا أعمال المغرب الأوسط ما بين الزاب ووانشريش ووهران، وخطبوا في سائر منابرها باسم هشام المؤيد.

وخاطب أبو البهار من وراء البحر المنصور بن أبي عامر، وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه، فاستقبلوا بالجيش ولقاه رحبا وتسهيلا، وأعظم موصله وأسنى جوائز وفده وصلاتهم، وأنفذ معه إلى عمه أبي البهار بخمسماية قطعة من صنوف الثياب الخز والعبيد، وقيمة عشرة آلاف درهم من الانية والحلي، وبخمسة وعشرين ألفا من الدنانير ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على يدو بن يعلى، وقسم بينهما عمل المغرب شق الابلمة حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعدوة فلم يرع ذلك يدو ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والأجلاب على البدو والحاضرة، وشق عصا الجماعة. وانتقض خلوف بن أبي بكر على المنصور لوقف 4، وراجع ولاية المنصور بن بلكين.

ومرض أبو البهار في المظاهرة عليه للوصلة بينهما، وقعد عما قام له زيري بن عطية من حرب خلوف بن أبي بكر، وأوقع به زيري في رمضان سنة إحدى وثمانين، واستلحمه وكثيرا من أوليائه، وأستولى على عسكره، وانحاش إليه عامة أصحابه.

وفر عطية شريدا إلى الصحراء، ثم نهض على أثرها ليدو بن يعلى وقومه فكانت بينهما لقاءة صعبة انكشف فيها أصحاب يدو واستلحم منهم زهاء ثلاثة آلاف، واكتسح معسكره وسبيت حرمه التي كانت منهن أمه وأخته، وتحيز سائر أصحابه إلى فئة زيري، وخرج شريدا إلى الصحراء إلى أن اغتاله ابن عمه أبو يداس بن دوناس حسبما ذكرناه. وورد خبر الفتحين متعاقبين

على المنصور فعظم موقعهما لديه. قيل إن مقتل يذو إنما كان عند إياب زيري من الوفادة، وذلك أنه لما استقدمه المنصور

ووفد عليه كما ذكرناه خالفه يذو إلى فاس ودخلها، وقتل بها من مغراوة خلقا واستمكن بها أمره. فلما رجع زيري من وفادته امتنع به يدو فنازله زيري وطال الحصار وهلك من الفريقين خلق. ثم اقتحمها عليه عنوة فقتل وبعث برأسه إلى سدة الخلافة بقرطبة. إلا أن راوي هذا الخبر يجعل وفادة زيري على المنصور وقتله ليدو سنة ثلاث وثمانين فالله أعلم أي ذلك كان.

ثم إن زيري فسد ما بينه وبين أبي البهار الصنهاجي وتزاحفا فأوقع به زيري وانهزم أبو البهار إلى سبتة موريا بالعبور إلى المنصور فبادر بكاتبه عيسى بن سعيد بن القطاع في قطعة من الجند إلى تلقيه فحاد عن لقائه. وصعد إلى قلعة جراوة، وقد قدم الرسل على ابن أخيه المنصور صاحب القيروان مستميلا إلى أن التحم ذات بينهما. ثم تحيز إليه وعاد إلى مكانه من عمله، وخلع ما تمسك به من طاعة الأموية، وراجع طاعة الشيعة، فجمع المنصور لزيري بن عطية أعمال المغرب. واستكفى به في سد الثغر، وعول عليه من بين ملوك المغرب في الذب عن الدعوة، وعهد إليه بمناجزة أبي البهار. وزحف إليه زيري في أمم عديدة من قبائل زناتة وحشود البربر وفر أمامه، ولحق بالقيروان. واستولى زيري على تلمسان وسائر أعمال أبي البهار. وملك ما بين السوس الأقصى والزاب، فاتسع ملكه وانبسط سلطانه واشتدت شوكته، وكتب بالفتح إلى المنصور. وبعث إليه بمايتين من عتاق الخيل وخمسين جملا من المهارى السبق، وألف دوقة من جلود اللمط وأحمال من قسي الزان وقطوط الغالية، والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللمط وغيره، وألف حمل من التمر وأحمال من ثياب الصوف الرفيعة كثيرة، فجدد له عهده على المغرب سنة إحدى وثمانين، وأنزل أحياءه بأنحاء فاس في قياطنهم.

واستفحل أمر زيري بالمغرب، ودفع بني يفرن عن فاس إلى نواحي سلا، واختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وأنزلها عساكره وحشمه، واستعمل عليها ذويه ونقل إليها ذخيرته وأعدها معتصما، فكانت ثغرا لعمله بين المغرب الأقصى والأوسط.

ثم فسد ما بينه وبين المنصور سنة ست وثمانين بما نمي عنه من التأنف لهشام باستبداد المنصور عليه،

فسامه المنصور الهضيمة. وأبى منها، فبعث كاتبه ابن القطاع في العسكر، فاستعصى عليه. وأمكنه قائد قلعة حجر النسر منها، فأشخصه إلى الحضرة. وأحسن إليه المنصور وسقاه الناصح، وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به والتشيع لهشام المؤيد، والامتعاض له من هضيمته وحجره، فسخط ابن أبي عامر وقطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانها ونادى بالبراءة منه.

وعقد لواضح مولاه على المغرب وعلى حرب زيري بن عطية، وانتقى له الحماة من سائر الطبقات، وأزاح عللهم. وأمكنه من الأموال للنفقات وأحمال السلاح والكسى، وأصحبه طائفة من ملوك العدوة كانوا بالحضرة، منهم: محمد بن الخير بن محمد بن الخير، وزيري بن خزر وابن عفهما بكساس بن سيد الناس. ومن بني يفرن أبو نوبخت بن عبد الله بن بكار. ومن مكناسة إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مدين، ومن ازداجة خزرون بن محمد وأمده بوجوه الجند. وفصل من الحضرة سنة سبع وثمانين، وسار في التعبية. وأجاز البحر إلى طنجة فعسكر بوادي ركاب وزحف زيري بن عطية في قومه، فعسكر إزاءه وتواقفا ثلاثة أشهر. واتهم واضح رجالات بني برزال بالأدهان فأشخصهم إلى الحضرة. وأغرى بهم المنصور فوبخهم. وتنصلوا فصفح عنهم، وبعثهم في غير ذلك الوجه. ثم تناول واضح حصن أصيلا ونكور فضبطهما. واتصلت الوقائع بينه وبين زيري، وبيت واضح معسكر زيري بنواحي أصيلا وهم غارون فأوقع بهم. وخرج ابن أبي عامر من الحضرة لاستشراف أحوال واضح وإمداده، فسار في التعبئة واحتل بالجزيرة عند فرضة المجاز. ثم بعث عن ابنه المظفر من مكان استخلافه بالزاهرة، وأجازه إلى العدوة واستكمل معه أكابر أهل الخدمة وجلة القواد. وقفل المنصور إلى قرطبة، واستذاع خبر عبد الملك بالمغرب فرجع إليه عامة أصحاب زيري من ملوك البربر، وتناولهم من إحسانه وبره ما لم يعهدوا مثله.

وزحف عبد الملك إلى طنجة واجتمع مع واضح، وتلوم هنالك مزيحا لعلل العسكر، فلما

استتم تدبيره زحف في جمع لا كفاء له. ولقيه زيري بوادي منى من أحواز طنجة في شوال من سنة ثمان وثمانين، فدارت بينهما حرب شديدة هم فيها أصحاب عبد الملك وثبت هو. وبينما هم في حومة الحرب إذا طعن زيري بعض الموتورين من أتباعه اهتبل الغرة في ذلك الموقف فطعنه ثلاثا في نحره وأشواه بها، ومر يشتد نحو المظفر، وبشره فاستكذبه به لثبوت رايته. ثم سقط إليه الصحيح فشد عليهم فاستوت الهزيمة وأثخن فيهم بالقتل، واستولى على ما كان في معسكرهم مما يذهب فيه الوصف. ولحق زيري بفاس جريحا في قلة، فامتنع عليه أهلها ودافعه بحرمه، فاحتملهن وفر أمام العسكر إلى الصحراء، وأسلم جميع أعماله. وطير عبد الملك بالفتح إلى أبيه فعظم موقعه عنده، وأعلن بالشكر لله والدعاء وبث الصدقات وأعتق الموالي، وكتب إلى ابنه عبد الملك بعهده على المغرب فأصلح نواحيه وسد ثغوره، وبعث العمال في جهاته: فأنفذ محمد بن حسن بن عبد الودود في جند كثيف إلى تادلا، واستعمل حميد بن يصل الكتامي على سجلماسة فخرج كل لوجهه، واقتضوا الطاعة وحملوا إليه الخراج، فأقفل المنصور ابنه عبد الملك في جمادى من سنة تسع وثمانين، وعقد على المغرب لواضح فضبطه واستقام على تدبيره. ثم عزله في رمضان من سنته بعبيد الله ابن أخيه يحيى، ثم ولى عليه من بعده إسماعيل بن البوري، ثم من بعده أبا الأحوص مقن بن عبد العزيز التجيبي إلى أن هلك المنصور.

وأعاد المظفر المعز بن زيري من منتبذه الأوسط إلى ولاية أبيه بالمغرب فنزل بفاس، وكان من خبر زيري أنه لما استقل من نكبته وهزيمة عبد الملك إياه، واجتمع إليه بالصحراء من مغراوة، وبلغه اضطراب صنهاجة واختلافهم على باديس بن المنصور عند مهلك أبيه، وأنه خرج عليه عمومته مع ماكسن بن زيري، فصرف وجهه حينئذ إلى أعمال صنهاجة ينتهز فيها الفرصة. واقتحم المغرب الأوسط ونازل تاهرت وحاصر بها يطوفت بن بلكين. وخرج باديس من القيروان صريخاً له. فلما مر بطبنة امتنع عليه فلفول بن خزرون، وخالفه إلى إفريقية فشغل بحربه. وقد كان

أبو سعيد بن خزرون لحق بإفريقية، وولاه المنصور بن بلكين على طبنة كما نذكره، فلما انتقض سار إليه باديس ودفع حماد بن بلكين في عساكر صنهاجة إلى مدافعة زيري بن عطية فالتقيا بوادي مناس قرب تاهرت، فكانت الدبرة على صنهاجة، واحتوى زيري على معسكرهم واستلحم ألوفاً منهم–. وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف وتنس والمسيلة. وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام ولحاجبه المنصور من بعده.

ثم اتبع آثار صنهاجة إلى أشير قاعدة ملكهم، فأناخ عليها. واستأمن إليه زاوي بن زيري ومن معه من أكابر أهل بيته المنازعين لباديس فأعطاه منه ما سأل. وكتب إلى المنصور بذلك يسترضيه ويشترطه على نفسه الرهن والاستقامة أن أعيد إلى الولاية، ويستأذن في قدوم زاوي وأخيه خلال، وأذن لهما فقدما سنة تسعين، وسأل أخوهما أبو البهار مثل ذلك، وأنفذ رسله تذكر بقديمه فسوفه المنصور لما سبق من نكثه. واعتل زيري بن عطية وهو بمكانه من حصار أشير فأفرج عنها. وهلك في منصرفه سنة إحدى وتسعين، واجتمع إلى خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه، وضبط أمرهم وأقصر على محاربة صنهاجة. ثم استجدى للمنصور واعلق بالدعوة العامرية وصلحت حاله عندهم. وهلك المنصور خلال ذلك ورغب المعز من ابنه عبد الملك المظفر أن يعيده إلى عمله على مال يحمله إليه، وعلى أن يكون ولده معنصر رهينة بقرطبة فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده، وأنفذ به وزيره أبا محمد علي بن جدلم ونسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد. من الحاجب المظفر سيف دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة قد نسي فاس وكافة أهل المغرب سلمهم الله. أما بعد أصلح الله شأنكم وسلم أنفسكم وأديانكم، فالحمد لله علام الغيوب وغفار الذنوب ومقلب القلوب ذي البطش الشديد المبدي المعيد الفعال لما يريد، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، بل له الملك والأمر، وبيده الخير والشر. إياه نعبد وإياه نستعين، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون،. وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله الطيبين، وعلى جميع النبيين والمرسلين والسلام عليكم أجمعين.

وإن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع لدينا رسله وكتبه متنصلا من هنات دفعته إليها ضرورات، ومستغفرا من سيئات حطمها من توبته حسنات، والتوبة محاء للذنب، والاستغفار منقذ من العتب. وإذا أذن الله بشيء يسره، وعسى أن تكرهوا شيئا ولكم فيه خير. وقد وعد من نفسه استشعار الطاعة، ولزوم الجادة، واعتقاد الاستقامة، وحسن المعونة وخفة انمونة، فونيناه ما لبلكم، وعهدنا إليه أن يعمل بالعدل فيكم، وأن يرفع أحكام الجور عنكم. وأن يعمر سبلكم، وأن يقبل من محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم إلا في حدود الله تبارك وتعالى. وأشهدنا الله عليه بذلك وكفى بالله شهيدا. وقد وجهنا الوزير أبا محمد علي بن جدلم أكرمه الله، وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ليأخذ ميثاقه، ويؤكد العهد فيه عليه بذلك، وأمرناه بإشراككم فيه؛ ونحن بأمركم معتنون ولأحوالكم مطالعون، وأن يقضي على الأعلى للأدنى، ولا يرتضي فيكم بشيء من الأذى فثقوا بذلك واسكنوا إليه. وليمض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدودا ظهره بنا، معقودا سلطانه بسلطاننا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فلذلك طبنا به إذ وليناه، وأملنا فيه إذ قلدناه، والله المستعين، وعليه التكلان لا إنه إلا هو. تبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا ورحمة الله وبركته. كتب في ذي القعدة من سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

ولما وصل إلى المعز بن زيري عهد المظفر إليه بولايته على المغرب ما عدا كورة سجلماسة فإن واضحاً مولى المنصور عهد بها في ولايته على المغرب لوانودين بن خزرون بن فلفول حسبما نذكر بعد، فلم تدخل في ولاية المعز هذه. فلما وصله عهد المظفر ضم نشره، وثاب إليه نشاطه، وبث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها. ولم تزل ولايته متسعة، وطاعة رعاياه منتظمة. ولما افترق أمر الجماعة بالأندلس، واختل رسم الخلافة وصار الملك فيها طوائف استحدث المعز رأيا في التغلب على سجلماسة وانتزاعها من أيدي بني وانودين بن خزرون فأجمع لذلك. ونهض إليه سنة سبع وأربعمائة، وبرزوا إليه في جموعهم فهزموه. ورجع إلى فاس في فل من قومه. وأقام على الاضطراب من أمره إلى أن هلك سنة سبع عشرة، وولي من بعده ابن عمه حماه ة بن المعز بن عطية، وليس كما يزعم

بعض المؤرخين أنه ابنه وإنما هو اتفاق في الأسماء أوجب هذا الغلط، فاستولى حمامة هذا على عملهم واستفحل ملكه، وقصده الأمراء والعلماء وانتابته الوفود، ومدحه الشعراء. ثم نازعه الأمر أبو كمال تميم بن زيري بن يعلى اليفرني في سنة أربع وعشرين من بني يذو بن يعلى المتغلبين على نواحي سلا، وزحف إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناتة.

وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة. وهلك من مغراوة أمم، واستولى تميم وبنو يفرن على فاس وأعمال المغرب. ولما دخل فاس استبح يهود وسبا حرمهم واصطلم نعمتهم. ولحق حمامة بوجدة فاحتشد من هنالك من قبائل مغراوة من أنجاد مديونه وملوية. وزحف إلى فاس فدخلها سنة تسع وعشرين، وتحيز تميم إلى موضع إمارته من سلا، وأقام حمامة في سلطان المغرب، وزحف إليه سنة ثلاثين وأربعمائة صاحب القلعة القائد ابن حماد في جموع صنهاجة. وخرج إليه حمامة مجمعا حربه، وبث القائد عطاءه في زناتة واستفسدهم على صاحبهم حمامة، فأقصر عن لقائه، ولاذ منه بالسلم والطاعة، فرجع القائد عنه، ورجع هو إلى فاس. وهلك سنة إحدى وثلاثين فولي من بعده ابنه دوناس ويكنى أبا العطاف، فاستولى على فاس وسائر عمل أبيه، وخرج إليه لأول أمره حماد ابن عمه معنصر بن المعز فكانت له معه حروب ووقائع، وكثرت جموع حماد فغلب دوناس على الضواحي وأحجره بمدينة فاس، وخندق دوناس على نفسه الخندق المعروف بسياج حماد.

وقطع حماد جرية الوادي عن عدوة القرويين إلى أن هلك محاصرا لها سنة خمس وثلاثين، فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه، وكثر العمران ببلده. واحتفل في تشييد المصانع وأدار السور على أرباضها، وبنى بها الحمامات والفنادق، فاستبحر عمرانها ورحل التجار بالبضائع إليها. وهلك دوناس سنة إحدى وخمسين فولي من بعده ابنه الفتوح، ونزل بعدوة الأندلس. ونازعه الأمر أخوه الاصغر عجيسة، وامتنع بعدوة القرويين، وافترق أمرهم بافتراقهما. وكانت الحرب بينهما سجالا، ومجالها بين

المدينتين حيث يفضي باب النقبة لعدوة القرويين لهذا العهد. وشيد الفتوح باب عدوة الأندلسيين وهو مسمى به إلى الآن. واختط عجيسة

باب الجيسة وهو أيضا مسمى به إلى الآن، وإنما حذفت عينه لكثرة الدوران في استعمالهم، وأقاموا على ذلك إلى أن غدر الفتوح بعجيسة أخيه سنة ثلاث وخمسين فظفر به وقتله، ودهم المغرب إثر ذلك على ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبة أحوالهم فأفرج عن فاس.

وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد إلى المغرب سنة أربع وخمسين على عادتهم في غزوه، ودخل فاس واحتمل من أكابرهم وأشرافهم رهنا على الطاعة، وقفل إلى قلعته. وولي على المغرب بعد الفتوح معنصر بن حماد بن منصور، وشغل بحروب لمتونة. وكانت لهم عليه الواقعة المشهورة سنة خمس وخمسين، ولحق بصدينة. وملك يوسف بن تاشفين والمرابطون فاس، وخلف عليها عامله وارتحل إلى غمارة فخالفه معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة، ومثل بهم بالحرق والصلب. ثم زحف إلى مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مدينة مكناسة، وقد كان دخل في دعوة المرابطين فهزمه وبعث برأسه إلى سكون البرغواطي الحاجب صاحب سبتة. وبلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين فسرح عساكر المرابطين لحصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها حتى اشتد بأهلها الحصار ومسهم الجهد. وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدبرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين، وبايع أهل فاس من بعده ابن تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء. وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة، حتى إذا كانت سنة اثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أياما، ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة. وهلك تميم في جملتهم حتى أعوزت مزاراتهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات. وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان، وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين العدوتين وصيرها مصرا، وأدار عليهما سورا واحدا، وانقرض أمر مغراوة من فاس والبقاء لله سبحانه وتعالى.

بنو خزرون ملوك سجلماسة

الخبر عن بني خزرون ملوك سجلماسة من الطبقة الأولى

من مغراوة و أولية ملكهم ومصائره

كان خزرون بن فلفول بن خزر من أمراء مغراوة وأعيان بني خزر، ولما غلبهم بفكين بن زيري وصنهاجة على المغرب الأوسط تحيزوا إلى المغرب الأقصى وراء ملوية. وكان بنو خزر يدينون بالدعوة المروانية كما ذكرناه. وكان المنصور ابن أبي عامر القائم بدولة المؤيد قد اقتصر لأول حجابته من أحوال العدوة على ضبط سبتة برجال الدولة ووجوه القواد وطبقات العسكر، ودفع ما وراءها إلى أمراء زناتة من مغراوة وبني يفرن ومكناسة. وعول في ضبط كوره وسداد ثغوره عليهم، وتعهدهم بالعطاء وأفاض فيهم الإحسان فازدلفوا إليه بوجوه التقربات وأسباب الوصائل. وإن خزرون بن فلفول هذا زحف يومئذ إلى سجلماسة وبها المعتز من أعقاب آل مدرار، انتزى بها أخوه المنتصر بعد قفول جوهر

إلى المغرب وظفره بأميرهم الشاكر لله محمد بن الفتح، فوثب المنتصر من أعقابهم بعده على سجلماسة وتملكها. ثم وثب به أخوه أبو محمد سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية فقتله وقام بأمر سجلماسة، وأعاد بها ملك بني مدرار وتلقب المعتز بالته، فزحف إليه خزرون بن فلفول سنة ست وستين في جموع مغراوة، وبرز إليه المعتز فهزمه خزرون واستولى على مدينة سجلماسة. ومحا دولة آل مدرار والخوارج منها آخر الدهر، وأقام الدعوة بها للمؤيد هشام، فكانت أولى دعوة اقيمت للمروانية بذلك الصقع، ووجد للمعتز مالا وسلاحا فاحتقبها وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ رأس المعتز فنصب بباب سدته. ونسب الأثر في ذلك الفتح إلى صحابة محمد بن أبي عامر ويمن طائره، وعقد لخزرون على سجلماسة وأعمالها، وجاءه عهد الخليفة بذلك فضبطها وقام بأمرها إلى أن هلك فولي أمر سجلماسة من بعده ابنه وانودين.

ثم كان زحف زيري بن مناد إلى المغرب الأقصى سنة تسع وستين، وفرت زناتة أمامه إلى سبتة. وملك أعمال المغرب وولى عليها من قبله وحاصر سبتة. ثم أفرج عنها وشغل بجهاد برغواطة، وبلغه أن وانودين بن خزرون أغار على نواحي سجلماسة، وأنه دخلها عنوة وأخذ عامله وما كان معه من المال والذخيرة، فرحل إليها سنة ثلاث وتسعين وفصل عنها فهلك في طريقه، ورجع وانودين بن خزرون إلى سجلماسة. وفي أثناء ذلك كان تغلب زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر على المغرب وملكه فاس بعد هشام. ثم انتقض على المنصور آخراً وأجاز ابنه عبد الملك في العساكر إلى العدوة سنة ثمان وثمانين، فغلب عليها بني خزر ونزل فاس، وبث العمال في سائر نواحي المغرب لسد الثغور وجباية الخراج، وكان فيها عقد على سجلماسة لحميد بن يصل المكناسي النازع، إليهم من أولياء الشيعة، فعقد له على سجلماسة حين فر عنها بنو خزرون فملكها وأقام فيها الدعوة. ولما قفل عبد الملك إلى العدوة وأعاد واضحا إلى عمله بفاس استأمن إليه كثير من وجوه بني خزر: كان منهم وانودين بن خزرون صاحب سجلماسة وابن عمه فلفول بن سعيد فأمنهم، ثم رجع وانودين إلى عمله بسجلماسة بعد أن

تضامن أمرها وانودين وفلفول بن سعيد على مال مفروض وعدة من الخيل والدرق يحملان ذلك إليه كل سنة، وأعطيا فى ذلك

أبناءهما رهنا فعقد لهما واضح بذلك، واستقل وانودين بعد ذلك بملك سجلماسة منذ أول سنة تسعين مقيما فيها للدعوة المروانية. ورجع المعز بن زيري إلى ولاية المغرب بعهد المظفر بن أبي عامر سنة ست وتسعين، واستثنى عليه فيها أمر سجلماسة لمكان وانودين بها. ولما انتثر سلك الخلافة بقرطبة، وكان أمر الجماعة للطوائف، واستبد أمراء الأمصار والثغور وولاة الأعمال بما في أيديهم، استبد وانودين هذا بأعمال سجلماسة وتغلب على عمل درعة واستضافه إليه.

ونهض المعز بن زيري صاحب فاس سنة سبع وأربعمائة في جموعهم من مغراوة يحاول انتزاع هذه الأعمال من يد وانودين فبرز إليه في جموعه وهزمه، وكان ذلك سببا في اضطراب أمر المعز إلى أن هلك، واستفحل ملك وانودين واستولى على صفروي من أعمال فاس، وعلى جميع قصور ملوية، وولى عليها من أهل بيته. ثم هلك وولي أمره من بعده ابنه مسعود بن وانودين، ولم أقف على تاريخ ولايته ومهلك أبيه.

ولما ظهر عبد الله بن ياسين، واجتمع إليه المرابطون من لمتونة ومسوفة وسائر الملثمين، وافتتحوا أمرهم بغزو درعة سنة خمس وأربعين فأغاروا على إبل كانت هنالك في حمى لمسعود بن وانودين حماه لها وهو بسجلماسة، فنهض لمدافعتهم وتواقفوا، فانهزم مسعود بن وانودين وقتل كما ذكرناه في أخبار لمتونة. ثم أعادوا الغزو إلى سجلماسة من العام المقبل، فدخلوها وقتلوا من كان بها من فل مغراوة. ثم تتبعوا من بعد ذلك أعمال المغرب وبلاد سوس وجبال المصامدة، واقتحموا صفروي سنة خمس وخمسين، وقتلوا من كان بها من أولاد وانودين وبقية مغراوة. ثم اقتحموا حصون ملوية سنة ثلاث وستين، وانقرض أمر بني وانودين كأن لم يكن، والبقاء لله وحده. وكل شيء هالك إلا وجهه، سبحانه وتعالى لا رب سواه، ولا معبود إلا إياه، وهو على كل شيء قدير.

الخبر عن ملوك طرابلس من بني خزرون بن فلفول من أهل الطبقة الأولي و أولية أمرهم وتصاريف أحوالهم

كان مغراوة وبنو خزر ملوكهم قد تحيزوا إلى المغرب الأقصى أمام بلكين؛ ثم اتبعهم سنة تسع وستين في زحفه المشهور، وأحجرهم بساحة سبتة حتى بعثوا صريخهم إلى المنصور. وجاءهم إلى الجزيرة مشارفا لأحوالهم وأمدهم بجعفر بن يحيى ومن كان معه من ملوك البربر وزناتة، فامتنعوا على بلكين، ورجع عنهم فتقرى أعمال المغرب، وعلك في منصرفه سنة اثنتين وسبعين، ورجع أحياء مغراوة وبين يفرن إلى مكانهم منه. وبعث المنصور الوزير حسن بن عبد الودود عاملا

على المغرب، وقدم سنة ست وسبعين، واختمى مقاتلا وزيري ابني عطية بن عبد الله بن خزر بمزيد التكرمة، ولحق نظراؤهما من أهل بيتهما الغيرة من ذلك، فنزع سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر إلى صنهاجة سنة سبع وسبعين منحرفا عن طاعة الأموية. ووافى المنصور بن بلكين بأشير منصرفه من إحدى غزواته، فتلقاه بالقبول والمساهمة، واستبلغ في ترك الإحن. وعقد له على عمل طبنة، وعقد لابنه وزو بن سعيد على إحدى بناته إحكاما للمخالصة، فنزل سعيد وأهل بيته بمكان أمارته من طبنة. ووفد على المنصور ثانية بالقيروان سنة إحدى وثمانين، وخرج للقائه، واحتفل في تكرمته ونزله. وأدركه الموت بالقيروان فهلك لسنته. ووفد ابنه فلول من مكان عمله، فعقد له على عمل أبيه وخلع عليه، وزف إليه ابنته، وسوغه ثلاثين حملا. من المال، وثلاثين تختا من الثياب، وقرب إليه مراكب بسروج مثقلة، وأعطاه عشرة من البنود مذهبة، وانصرف إلى عمله.

وهلك المنصور بن بلكين سنة خمس وثمانين، وولي ابنه باديس فعقد لفلفول على عمله بطبنة. ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر، وسرح إليه ابنه المظفر في العساكر كما قلناه؟ فغلبه على أعمال المغرب. ولحق زيري بالقفر؛ ثم عرج على المغرب الأوسط، ونازل ثغور صنهاجة، وحاصر تيهرت، وبها يطوفت بن بلكين. وزحف إليه حماد بن بلكين من أشير في العساكر من تلكانة، ومعه محمد بن أبي العرب قائد باديس، بعثه في عساكر صنهاجة من القيروان ممدا ليطوفت. وأوعز إلى حماد بن بلكين، وهو باشير أن يكون معه. ولقيهم زيري بن عطية ففض جموعهم، واستولى على معسكرهم؛ واضطرمت إفريقية فتنة، وتنكرت صنهاجة لمن كان بجهاتها من قبائل زناتة. وخرج باديس بن المنصور من رقادة في العساكر إلى المغرب. ولما مر بطبنة استقدم فلفول بن سعيد بن خزرون ليستظهر به على حربه، فاستراب واعتذر عن الوصول. وسأل تجديد العهد إلى مقدم السلطان فأسعف. ثم اشتدت استرابته ومن كان معه من مغراوة، فارتحلوا عن طبنة وتركوها. ولما أبعد باديس رجع فلفول إلى طبنة فعاث في نواحيها، ثم فعل في تيجس كذلك، ثم حاصر باغاية. وانتهى باديس

إلى أشير، وفر زيري بن عطية إلى صحراء المغرب، ورجع على باديس بعد أن ولى على تاهرت واشير عمه يطوفت بن بلكين. وانتهى إلى المسيلة، فبلغه خروج عمومته ماكسن وزاوي وعزم ومغنين، فخاف أبو البهار إحن زيري، ولحق بهم من معسكره. وبعث باديس في أثرهم عمه حماد بن بلكين، ورحل هو إلى فلفول بمن سعيد بعد أن كان سرح عساكره إليه، وهو محاصر باغاية، وهزمهم وقتل قائدهم أبا زعيل. ثم بلغه وصول باديس فأفرج عنها، واتبعه باديس إلى مرماجنة، فتزاحفوا وقد اجتمع لفلفول من قبائل زناتة والبربر أمم، فلم يثبتوا للقاء، وانكشفوا عنه. وانهزم إلى جبل الحناش، وترك القيطون بما فيه. وكتب باديس بالفتح إلى القيروان، وقد كان الأرجاف أخذ منهم المأخذ، وفر كثير منهم إلى المهدية، وشرعوا في عمل الدروب لما كانوا يتوقعون من فلفول بن سعيد حين قتل أبا زعيل، وهزم جيوش صنهاجة، وكانت الواقعة آخر سنة تسع وثمانين. وانصرف باديس إلى القيروان، ثم بلغه أن أولاد زيري اجتمعوا مع فلفول بن سعيد وعاقدوه، ونزلوا جميعا بحصن تبسة، فخرج باديس من القيروان إليهم، فافترقوا ولحق العمومة بزيري بن عطية ما خلا ماكسن وابنه محسن، فإنهما أقاما مع فلفول. ورحل باديس في أثره سنة إحدى وتسعين، وانتهى إلى بسكرة ففر فلفول إلى الرمال. وكان زيري بن عطية محاصرا لأشير أثناء هذه الفتنة، فأفرج عنها، ورجع عنه أبو البهار بن زيري إلى باديس، وقفل معه إلى القيروان. وتقدم فلفول بن سعيد إلى نواحي قابس وطرابلس، فاجتمع إليه من هنالك من زناتة، وملك طرابلس على ما نذكر.

وذلك أن طرابلس كانت من أعمال مصر، وكان العامل عليها بعد رحيل معد إلى القاهرة عبد الله بن يخلف الكتامي. ولما هلك معد رغب بلكين من نزار العزيز إضافتها إلى عمله، فأسعفه بها، وولى عليها تمصولت بن بكار من خواص مواليه. نقله إليها من ولاية بونة، فأقام واليا عليها عشرين سنة إلى أيام باديس، فتنكرت له الأحوال عما عهد، وبعث إلى الحاكم بمصر يرغب الكون في حضرته، وأن يتسلم منه عمل طرابلس. وكان برجوان الصقليي يستبد على

الدولة، وكان يغص بمكان يأنس الصقلبي منها؛ فأبعده عن الحضرة لولاية برقة. ثم لما تتابعت رغبة تمصولت صاحب طرابلس، أشار برجوان ببعث يأنس إليها، فعقد له الحاكم عليها، وأمره بالنهوض إلى عملها فوصلها سنة تسعين. ولحق تمصولت بمصر، وبلغ الخبر إلى باديس، فسرح القائد جعفر بن حبيب في العساكر ليصده عنها. وزحف إليه يأنس فكانت عليه الهزيمة ولمحتل. ولحق فتوح بن علي من قواده بطرابلس، فامتنع بها ونازله جعفر بن حبيب، وأقام عليها مدة. وبينما هو محاصر لها إذ وصله كتاب يوسف بن عامر عامل قابس يذكر أن فلفول بن سعيد نزل على قابس، وأنه قاصد إلى طرابلس، فرحل جعفر عن البلد إى ناحية الجبل. وجاء فلفول فنزل بمكانه، وضاقت الحال بجعفر وأصحابه فارتحلوا مصممين على المناجزة وقاصدين قابس، فتخلى فلفول عن طريقهم، وانصرفوا إلى قابس.

وقصد فلفول مدينة طرابلس قتلقاه أهلها، ونزل له فتوح بن علي عن إمارتها، فملكها وأوطنها من يومئذ، وذلك سنة إحدى وتسعين، وبعث بطاعته إلى الحاكم، فسرح الحاكم يحيى بن علي بن حمدون، وعقد له على أعمال طرابلس وقابس، فوصل إلى طرابلس، وارتحل معه فلفول بن سعيد وفتوح بن علي بن غفيانان في عساكر زناتة إلى حصار قابس، فحصروها مدة، ورجعوا إلى طرابلس. ثم رجع يحيى بن علي إلى مصر، واستبد فلفول بعمل طرابلس، وطالت الفتنة بينه وبين باديس. ويئس من صريخ مصر، فبعث بطاعته إلى المهدي محمد بن عبد الجبار بقرطبة، وأوفد عليه رسله في الصريخ والمدد، وهلك فلفول قبل رجوعهم إليه سنة أربعماية، واجتمعت زناتة على أخيه ورو بن سعيد.

وزحف باديس إلى طرابلس، وأجفل ورو ومن معه من زناتة عنها، ولحق بباديس من كان بها من الحند، فلقوه في طريقه، وتمادى إلى طرابلس فدخلها ونزل قصر فلفول. وبعث إليه ورو بن سعيد يسأل الأمان له ولقومه، فبعث إليه محمد بن حسن من صنائعه، فاستقدم وفدهم بأمانه فوصلهم، وولى ورو على نفزاوة والنعيم بن كنون على قسطيلية، وشرط عليهم أن يرحلوا بقومهم عن أعمال طرابلس، ورجعوا إلى أصحابهم. وارتحل باديس

إلى القيروان، وولى على طرابلس محمد بن حسن. ونزل ورو بنفزاوة والنعيم بقسطيلية.

ثم انتقض ورو سنة إحدى وأربعماية، ولحق بجبال إيدمر، فتعاقدوا على

الخلاف. واستضاف النعيم بن كنون نفزاوة إلى عمله. ورجع خزرون بن سعيد عن أخيه ورو إلى السلطان باديس، وقدم عليه بالقيروان سنة اثنتين وأربعماية، فتقبله ووصله، وولاه عمل أخيه نفزاوة وولى بنيب مجلية من لومه على قفصة، وصارت مدن الماء كلها لزناتة. وزحف ورو بن سعيد فيمن معه من زناتة إلى طرابلس. وبرز إليه عاملها محمد بن حسن فتواقفوا ودارت بينهم حرب شديدة انهزم فيها ورو، وهلك كثير من قومه. ثم راجع حصارها وضيق على أهلها، فبعث باديس إلى خزرون أخيه وإلى النعيم بن كنون أمراء الجريد من زناتة بأن يخرجوا لحرب صاحبهم، فخرجوا إليه وتواقفوا بصبرة ما بين قابس وطرابلس. ثم اتفقوا ولحق أصحاب خزرون بأخيه ورو. ورجع خزرون إلى عمله، واتهمه السلطان بالمداهنة في شأن أخيه ورو، واستقدمه من نفزاوة فاستراب وأظهر الخلاف. وسرح السلطان إليه فتوح بن أحمد في العساكر فأجفل عن عمله. واتبعه النعيم وسائر زناته، ولحقوا جميعا بورو بن سعيد سنة أربع وتظاهروا على الخلاف، ونصبوا الحرب على مدينة طرابلس.

واشتد فساد زناتة، فقتل السلطان من كان عنده رهن زناتة. واتفق وصول مقاتل بن سعيد نازعا عن أخيه ورو في طائفة من أبنائه وإخوانه، فقتلوا معهم جميعا. وشغل السلطان بحرب عمه حماد. ولما غلبه بشلف وانصرف إلى القيروان، بعث إليه ورو بطاعته. ثم كان مهلك ورو سنة خمس وأربعماية، وانقسم قومه على ابنه خليفة وأخيه خزرون بن سعيد، واختلفت كلمتهم. ودس محمد بن حسن عامل طرابلس في التضريب بينهم. ثم صار أكثر زناتة إلى خليفة، وناجز عنه خزرون الحرب فغلبه على القيطون، وضبط زناتة، وقام فيهم بأمر أبيه، وبعث بطاعته إلى السلطان باديس بمكانه من حصار القلعة فتقبلها. تم هلك باديس، وولي أبنه المعز سنة ست، وانتقض خليفة بن ورو عليه، وكان أخوه حماد بن ورو يضرب على أعمال طرابلس وقابس، ويواصل عليها الغارة والنهب إلى سنة ثلاث عشرة، فانتقض عبد الله بن حسن صاحب طرابلس على السلطان وأمكنه من طرابلس. وكان

سبب ذلك أن المعز بن باديست لأول ولايته استقدم محمد بن حسن من طرابلس فاستخلف عليها آخاه عبد إلله بن حسن، وقدم على المعز، وفوق إليه تدبير مملكته، وأقام على ذلك سبعا، وتمكنت حاله عند السلطان، وكثرت السعاية فيه، فنكبه وقتله. وبلغ الخبر إلى أخيه، فانتقض كما قلناه، وأمكن خليفة بن ورو وقومه من مدينة طرابلس، وقتلوا الصنهاجيين واستولوا عليهم. ونزل خليفه بقصر عبد الله وأخرجه عنه، واستصفى أمواله وحرمه. واتصل ملك خليفة بن ورو وقومه بني خزرون بطرابلس. وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهر بن الحاكم سنة سبع عشرة بالطاعة وضمان السابلة وتشييع الرفاق، ويخطب عهده على طرابلس فأجابه إلى ذلك، وانتظم في عمله. وأوفد في هذه السنة أخاه حمادا على المعز بهدية، فتقبلها وكافأه عليها.

هذا آخر ما حدث ابن الرقيق من أخبارهم. ونقل ابن حماد وغيره أن المعز زحف أعوام ثلاثين وأربعماية إلى زناتة بجهات طرابلس، فبرزوا إليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حماد، وسبوا أخته أم العلو بنت باديس، ومنوا عليها بعد حين وأطلقوها إلى أخيها. ثم زحف إليهم ثانية؛ فهزموه. ثم اتيحت به الكرة عليهم فغلبهم وأذعنوا لسلطانه، واتقوه بالمهادنة؟ فاستقام أمرهم على ذلك. كان خزرون بن سعيد لما غلبه خليفة بن ورو على زناتة لحق بمصر، فأقام فيها بدار الخلافة، ونشأ بنوه بها، وكان منهم المنتصر بن خزرون وأخوه سعيد. ولما وقعت الفتنة بين الترك والمغاربة بمصر، وغلبهم الترك وأجلوهم عنها، لحق المنتصر وسعيد بطرابلس وأقاما في نواحيها. ثم ولي سعيد أمر طرابلس، ولم يزل بها واليا إلى أن هلك سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وقال أبو محمد التيجاني في رحلته عند ذكر طرابلس: ولما قتلت زغبة سعيد بن خزرون سنة تسع وعشرين، وقدم خزرون بن خليفة من القيطون بقومه إلى ولايتها، فأمكنه رئيس الشورى بها يومئذ من الفقهاء أبو الحسن بن المنمر المشهور بعلم الفرائض وبايع له، وأقام بها خزرون إلى سنة ثلاثين بعدها، فقدم المنتصر بن خزرون في ربيع الأول منها، ومعه عساكر

زناتة، ففر خزرون بن خليفة من طرابلس مختفيا، وملكها المنتصر بن خزرون، وأوقع بابن المنتصر ونفاه،

واتصلت بها إمارته. انتهى ما نقله التجاني.

وهذا الخبر مشكل من جهة أن زغبة من العرب الهلاليين، وإنما جاءوا إلى أفريقية من مصر بعد الأربعين من تلك المائة، فلا يكون وجودهم بطرابلس سنة تسع وعشرين إلا أن كان تقدم بعض أحياهم إلى إفريقية من قبل ذلك. وقد كان بنو قرة ببرقة وبعثهم الحاكم مع يحيى بن علي بن حمدون، إلا أن ذلك لم ينقله أحد.

ولم تزل طرابلس بأيدي بني خزرون الزناتيين. ولما وصل العرب الهلاليون وغلبوا المعز بن باديس على أعمال إفريقية واقتسموها كانت قابس وطرابلس في قسمة زغبة والبلد لبني خزرون. ثم استولى بنو سليم على الضاحية، وغلبوا عليها زغبة ورحلوهم عن تلك المواطن. ولم تزل البلد لبني خزرون. وزحف المنتصر بن خزرون مع بنى عدي من قبائل هلال مجلبا على أعمال بني حماد، حتى نزل المسيلة ونزل أشير. ثم خرج إليهم الناصر، ففروا أمامه إلى الصحراء، ورجع إلى القلعة، فرجعوا إلى الأجلاب على أعماله فراسله الناصر في الصلح وأقطعه ضواحي الزاب وريغة. وأوعز إلى عروس بن سندي رئيس بسكرة لعهده أن يمكر به. فلما وصل المنتصر إلى بسكرة أنز عروس، ثم قتله غيلة أعوام ستين وأربعمائة وولي طرابلس واحد من قومه بني خزرون يحضرني اسمه واختل ملك صنهاجة، واتصل فيهم ملك تلك الأعمال إلى سنة أربعين وخمسماية.

ثم نزل بطرابلس ونواحيها في هذه السنة مجاعة، وأصابتهم منها شدة هلك فيها الناس، وفروا عنها، وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها، فجهز إليها رجاهـ طاغية صقلية أسطولا لحصارها بعد استيلائه على المهدية وصفاقس واستقرار ولاته فيهما. ووقع بين أهل طرابلس الخلاف، فغلب عليهم جرجي بن ميخائيل قائد الأسطول وملكها، وأخرج منها بني خزرون، وولى على البلد شيخه أبا يحيى بن مطروح التميمي، فانقرض أمر بني خزرون منها. وبقي منهم من بقي بالضاحية إلى أن افتتح الموحدون إفريقية. وكانت ثورة المسلمين بهم، وإخراج النصارى من بين أظهرهم كما ذكرناه في أخبار إفريقية آخر الدولة الصنهاجية. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده، سبحانه لا اله غيره.

بنو يعلى ملوك تلمسان

الخبر عن بني يعلى ملوك تلمسان

الطبقة الأولي وللإلمام ببعض أحوالهم ومصادرها

قد ذكرنا في أخبار محمد بن خزر وبنيه أن محمد بن الخير، الذي قتل نفسه في معركة بلكين كان من ولده الخير ويعلى. وأنهم الذين ثاروا منهم بأبيه زيري فقتلوه، واتبعهم بلكين من بعد ذلك، وأجلاهم إلى المغرب الأقصى، حتى قتل محمد منهم صبرا أعوام ستين وثلاثماية بنواحي سجلماسة، قبل وصول معد إلى القاهرة، وولاية بلكين على إفريقية. وقام بأمر زناتة بعد إلى خير ابنه محمد، وعمه يعلى بن محمد. وتكررت إجازة محمد بن الخير هذا وعمه يعلى إلى المنصور بن أبي عامر كما ذكرنا ذلك من قبل. وغلبهم ابنا عطية بن عبد الله بن خزر: وهما مقاتل وزيري على رياسة مغراوة. وهلك مقاتل، واختص المنصور زيري بن عطية باثرته، وولاه على المغرب كما ذكرناه. وقارن ذلك مهلك بلكين، وانتقاض أبي البهار بن زيري صاحب المغرب الأوسط على باديس؛

فكان من شأنه مع زيري ويدو بن يعلى ما قدمناه. ثم استقل زيري وغلبهم جميعا على المغرب، ثم انتقض على المنصور، فأجاز إليه ابنه المظفر، وأخرج زناتة من المغرب الأوسط، فتوغل زيري في المغرب الأوسط، ونازل أمصاره، وانتهى إلى المسيلة واشير. وكان سعيد بن خزرون قد برع إلى صنهاجة، وملك طبنة، واجتمع زناتة بإفريقية عليه وعلى ابنه فلفول من بعده. وانتقض فلفول على باديس عند زحف زيري إلى المسيلة واشير، وشغل باديس ثم ابنه المنصور عن المغرب الأوسط بحرب فلفول وقومه، ودفعوا إليه حماد بن بلكين؛ فكانت بينه وبين زناتة حروب سجال. وهلك زيري بن عطية، واستمل المعز ابنه ملك المغرب سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وغلب صنهاجة على تلمسان وما إليها، واختط مدينة وجدة كما ذكرنا ذلك كله من قبل.

ونزل يعلى بن محمد مدينة تلمسان، فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه. ثم هلك حماد بعد استبداده ببلاد صنهاجة على آل بلكين، وشغل بنوه بحرب بني باديس، فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان، واختلفت أيامهم مع آل حماد سلما وحربا. ولما دخل العرب الهلاليون إفريقية وغلبوا المعز وقومه عليها، واقتسموا سائر أعمالها، ثم تخطوا إلى أعمال بني حماد، فأحجروهم بالقلعة، وغلبوهم على الضواحي، فرجعوا إلى استيلائهم، واستخلصوا الأثبج منهم وزغبة، فاستظهروا بهم على زناتة المغرب الأسط وأنزلوهم بالزاب، وأقطعوهم الكثير من أعماله، فكانت بينهم وبين بني يعلى أمراء تلمسان حروب ووقائع. وكانت زغبة أقرب إليهم بالمواطن. وكان أمير تلمسان لعهدهم بختي من ولد يعلى. وكان وزيره وقائد حروبه أبو سعدى بن خليفة اليفرني، فكان كثيرا ما يخرج بالعساكر من تلمسان لقتال عرب الأثبج وزغبة، ويحتشد من إليهم من زناتة أهل المغرب الأوسط، مثل مغراوة وبني يلوموا وبني عبد الواد وتوجين وبني مرين. وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى أعوام خمسين وأربعمائة.

ثم ملك المرابطون أعمال المغرب الأقصى بعد مهلك بختي وولاية ابنه العباس بن بختي تلمسان. وسرح يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن في عساكر

لمتونة لحرب من بقي بتلمسان من مغراوة، ومن لحق بهم من فل بني زيري وقومهم، فدوخ المغرب الأوسط، وظفر بيعلى بن العباس بن بختي، برز لمدافعتهم، فهزمه وقتله، وانكفأ راجعا إلى المغرب. ثم نهض يوسف بن تاشفين بنفسه في جموع المرابطين سنة ثلاث وسبعين، فافتتح تلمسان، واستلحم بني يعلى، ومن كان بها من مغراوة، وقتل العباس ابن بختي أميرها من بني يعلى. ثم افتتح وهران وتنس، وملك جبل وانشريش وشلف إلى الجزائر، وانكفأ راجعا وقد محا أثر مغراوة من المغرب الأوسط، وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي في عسكر من المرابطين بتلمسان، واختط مدينة تاكرارت بمكان معسكره وهو اسم محله للسان البربر، وهي التي صارت اليوم مع تلمسان القديمة التي تسمى أكادير بلدا واحدا، وانقرض أمر مغراوة من جميع المغرب كأن لم يكن. والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن أمراء أغمات من مغراوة:

لم أقف على أسماء هؤلاء إلا أنهم كانوا أمراء باغمات آخر دولة بني زيري بفاس، وبني يعلى اليفرني بسلا وتادلا في جوار المصامدة وبرغواطة. وكان لقوط بن يوسف بن علي آخرهم في سني الخمسين وأربعماية، وكانت امرأته زينب بنت إسحاق النفزاوية من إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة. ولما غلب المرابطون على أغمات سنة تسع وأربعين فر لقوط هذا إلى تادلا، ونزل على محمد بن تميم اليفرني صاحب سلا وأعمالها، إلى أن افتتح المرابطون تادلا سنة إحدى وخمسين، وقتل الأمير محمد واستلحم بنو يفرن، فكان الأمير لقوط فيمن استحلم. وخلفه أبو بكر بن عمر أمير المرابطين على زينب بنت إسحاق، حتى إذا ارتحل إلى الصحراء سنة ثلاث وخمسين، واستعمل ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، نزل له عن زوجه زينب هذه، فكان لها في سياسة أمره وسلطانه، وما أشارت عليه عند مرجع أبي بكر من الصحراء في إظهار الاستبداد، حتى تجافى عنه منازعته، وخلص ليوسف بن تاشفين

ملكه أمر، كما ذكرنا في أخبارهم. ولم نقف من أخبار لقوط بن يوسف وقومه على غير هذا الذي كتبناه والله ولي العون سبحانه.

الخبر عن بني سنجاس وريغة والأغواط وبني ورا من قبائل مغراوة من أهل الطبقة الأولى وتصاريف أحوالهم:

هذه البطون الأربعة من بطون مغراوة، وقد زعم بعض الناس أنهم من بطون زناتة غير مغراوة. أخبرني بذلك الثقة عن إبراهيم بن عبد الله التيمزوغتي قال وهو نسابة زناتة لعهده: ولم تزل هذه البطون الأربعة من أوسع بطون مغراوة. فأما بنو سنجاس فلهم مواطن في كل عمل من إفريقية والمغربين، فمنهم قبلة المغرب الأوسط بجبل راشد وجبل كريكرة وبعمل الزاب وبعمل شلف. ومن بطونهم بنو غيار ببلاد شلف أيضا، وبنو غيار بعمل قسنطينة. وكان بنو سنجاس هؤلاء من أوسع القبائل وأكثرهم عددا، وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بإفريقية والمغرب، وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ونازلوا قفصة سنة أربع عسرة وخمسماية، بعد أن عاثوا بجهات القصر، وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر ملكاتة وخرجت إليهم حامية قفصة فأثخنوا فيهم، ثم كثر فسادهم، وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر إلى بلاد الجريد، فشردهم عنها وأصلح السابلة. ثم عادوا إلى مثلها سنة خمس عشرة، فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل، وحمل رؤوسهم إلى القيروان، فعظم الفتح فيهم. ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والإثخان إلى أن خضدوا من شوكتهم.

وجاء العرب الهلاليون وغلبوا على الضواحي كل من كان بها من صنهاجة وزناتة، وتحيز فلهم إلى الحصون والمعاقل، وضربت عليهم المغارم إلا ما كان ببلاد المغرب،

القفر مثل جبل راشد، فإنهم لبعدهم عن منازل الملك لا يعطون مغرما، إلا أنهم غلب عليهم

هنالك العمور من بطون الهلاليين، ونزلوا معهم، وملكوا عليهم أمرهم، وصاروا لهم فيئة. ومن بني سنجاس من نزل بالزاب، وهم لهذا العهد أهل مغارم لمن غلب على ثغورهم من مشايخهم. وأما من نزل منهم ببلاد شلف ونواحي قسنطينة، فهم لهذا العهد أهل مغارم الدول، وكان دينهم جميعا الخارجية على شنن زناتة في الطبقة الأولى؛ ومن بقي اليوم منهم بالزاب فعلى ذلك. ومن بني سنجاس هؤلاء بأرض المشنتل ما بين الزاب وجبل راشد، أوطنوا جباله في جوار غمرة، وصاروا عند تغلب الهلاليين في ملكهم يقبضون الأتاوة منهم. ونزل معهم لهذا العهد السحارى من بطون عروة من زغبة، وغلبوهم على أمرهم، وأصاروهم خولا.

وأما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة. ولما افترق أمر زناتة تحيز منهم إلى جبل عياض، وما إليه من البسيط إلى نقاوس، وأقاموا في قياطنهم: فمز كان بجبل عياض منهم أهل المغارم لأمراء عياض يقبضونها منهم للدولة الغالبة ببجاية، وأما من كان ببسيط نقاوس فهم في أقطاع العرب لهذا العهد. ونزل أيضا الكثير منهم ما بين قصور الزاب ووارکلا، فاختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم قد رف عليها الشجر، ونضدت حفافيفها النخيل، وانساحت خلالها المياه وزهت بنابعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة هؤلاء، وبهم تعرف لهذا العهد، وهم أكثرها، ومن بني سنجاس وبني يفرن وغيرهم من قبائل زناتة. وتفرقت جماعتهم للتنازع في الرياسة، فاستقلت كل طائفة منهم بقصور منها أو بواحد. ولقد كانت فيما يقال أكثر من هذا العدد اضعافا، وأن ابن غانية المسوفي حين كان يجلب على بلاد إفريقية والمغرب في فتنه مع الموحدين خرب عمرانها، واجتث شجرها، وغور مياهها، ويشهد لذلك أثر العمران بها في أطلال الديار ورسوم البناء وأعجاز النخل المنقعر. وكان هذا العمل يرجع في أول الدولة الحفصية لعامل الزاب، وكان من الموحدين، وينزل بسكرة، يتردد ما بينها وبين مقرة.

وكاد من أعماله قصور وراكلة أيضا. ولما فتك 1ثمستنصر بمشيخة الدواودة كما قلناه في أخباره، وقتلوا بعد ذلك عامل الزاب ابن عتو من مشيخة

الموحدين، وغلبوا ضواحى الزاب وريغة ووارکلة، وأقطعتهم إياها الدول بعد ذلك، فصارت في أقطاعهم. ثم عقد صاحب بجاية بعد ذلك على العمل كله لمنصور بن مزني، واستقر في عقبه. فربما يسومون بعض الأحيان أهل تلك القصور الغرم للسلطان، بما كان من الأمر القديم، ويعسكر عليهم في ذلك كتائب من رجالة الزاب وخيالة العرب، ويبذرق عليها الأمر الدواودة، ثم يقاسمهم فيما يمتريه منهم. وأكبر هذه الأمصار تسمى تقرت، مصر مستبحر العمران، بدوي الأحوال، كثير المياه والنخل، ورياسته في بني يوسف بن عبد الله، كانت لعبيد الله بن يوسف، ثم لابنه داود، ثم لأخيه يوسف بن عبيد الله. وتغلب على وارکلة من يد أبي بكر بن موسى أزمان حداثته، وأضافها إلى عمله. ثم هلك وصار أمر تقرت لأخيه مسعود بن عبيد الله، ثم لابنه حسن بن مسعود، ثم لابنه أحمد بن حسن شيخها لهذا العهد. وبنو يوسف بن عبيد الله هؤلاء من ريغة، ويقال إنهم من سنجاس. وفي أهل تلك الأمصار من مذاهب الخوارج وفرقهم كثير، وأكثرهم على دين العزابة، ومنهم النكارية، أقاموا على انتحال هذه الخارجية لبعدهم عن منال الأحكام. ثم بعد مدينة تقرت بلد تماسين وهي دونها في العمران والخطة، ورياسته لبني إبراهيم من ريغة، وسائر أمصارهم كذلك: كل مصر منها مستبد بأمره وحرب لجاره.

وأما لقواط وهم فخذ من مغراوة أيضا، فهم في نواحي الصحراء ما بين الزاب وجبل راشد، ولهم هنالك قصر مشهور بهم، فيه فريق من أعقابهم على سغب من العيش لتوغله في القفر، وهم مشهورون بالنجدة والامتناع من العرب، وبينهم وبين الدوسن أقصى عمل الزاب مرحلتان، وتختلف قصودهم إليه لتحصيل المرافق منه. والله يخلق ما يشاء ويختار.

وأما بنو ورا فهم فخذ مغراوة أيضا، ويقال من زناتة وهم متشعبون ومفترقون بنواحي المغرب: فمنهم بناحية مراكش والسوس، ومنهم ببلاد شلف، ومنهم بناحية قسنطينة. ولم يزالوا على حالهم منذ انقراض زناتة الأولين، وهم لهذا العهد أهل مغارم وعسكرة مع الدول. وأكثر الذين كانوا بمراكش قد انتقلى رؤساؤهم إلى ناحية شلف، نقلهم يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين في أول هذه المائة الثامنة، لما

ارتاب بأمرهم في تلك الناحية وخشي من فسادهم وعيثهم، فنقلهم في عسكر إلى موطن شلف لحمايته، فنزلوا به. ولما ارتحل بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب، أقاموا ببلاد شلف، فأعقابهم به لهذا العهد، وأحوالهم جميعا في كل قطر متقاربة في المغرم والعسكرة مع
السلطان. ولله الخلق والأمر جميعا. سبحانه لا إله إلا هو الملك العظيم.

الخبر عن بني يرنيان إخوة مغراوة وتصاريف أحوالهم:

قد ذكرنا بني يرنيان هؤلاء، وأنهم إخوة مغراوة وبني يفرن؛ والكل ولد يصليتن. ونسبهم جميعا إلى جانا مذكور هنالك، وهم مبثوثون كثيرا بين زناتة في المواطن. وأما الجمهور منهم فموطنهم بملوية من المغرب الأقصى ما بين سجلماسة وكرسيف؛ كانوا هنالك مجاورين لمكناسة في مواطنهم، واختطوا حفافي وادي ملوية قصورا كثيرة متقاربة الخطة، ونزلوها، وتعدت بطونهم وأفخاذهم في تلك الجهات. ومنهم بنو وطاط موطنون لهذا العهد بالجبال المطلة على وادي ملوية من جهة القبلة، ما بينه وبين تازى وفاس؛ وبهم تعرف تلك القصور لهذا العهد. وكان لبني يرنيان هؤلاء صولة واعتزاز، وأجاز الحكم بن المستنصر منهم، والمنصور بن أبي عامر من بعده فيمن أجازوه من زناتة ثم المائة الرابعة، وكانوا من أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة وبقي أهل المواطن منهم في مواطنهم مع مكناسة أيام ملكهم، ويجمعهم معهم عصبية يحيى. ثم كانوا مع مغراوة أيضا أيام ملكهم المغرب الأقصى. ولما ملك لمتونة والموحدون من بعدهم، لحق الظواعن منهم بالقفر، فاختلطوا بأحياء بني مرين الموالين لتلول المغرب من زناتة، وأقاموا معهم في أحيائهم، وبقي من عجز عن الظعن منهم بمواطنهم: مثل بني وطاط وغيرهم، ففرضت عليهم المغارم والجبايات. ولما دخل بنو مرين إلى المغرب ساهموهم في أقسام أعماله؛ وأقطعوهم البلد الطيب من ضواحي سلا والمعمورة، زيادة إلى وطنهم الأول بملوية، وأنزلوهم بنواحي سلا بعد أن كان منهم انحراف عنهم في سبيل المدافعة عن مواطنهم الأولى. ثم

اصطلحوا، ورعى لهم بنو عبد الحق سابقتهم معهم، فاصطفوهم للوزارة والتقدم في الحروب، ودفعوهم إلى المهمات وخلطوهم بأنفسهم. وكان من أكابر رجالاتهم لعهد السلطان أبي يعقوب وأخيه أبي سعيد الوزير إبراهيم بن عيسى، اسخلصوه للوزارة مرة بعد أخرى، واستعمله السلطان أبو سعيد على وزارة ابنه أبي علي، ثم لوزارته. واستعمل ابنه السلطان أبو الحسن أبناء إبراهيم هذا في أكابر الخدام، فعقد لمسعود بن إبراهيم على أعمال السوس عندما فتحها أعوام الثلاثين وسبعماية، ثم عزله بأخيه حسون، وعقد لمسعود على بلاد الجريد من إفريقية عند فتحه إياها سنة ثمان وأربعين، وكان فيها مهلكه. ونظم أخاهما موسى في طبقة الوزراء، ثم أفرده بها أيام نكبته ولحاقه بجبل هنتاتة، واستعمله السلطان أبو عنان بعده في العظيمات، وعهد له على أعمال سدويكش بنواحى قسنطية. ورشح ابنه مـحمد السبيع لوزارته إلى أن هلك، وتقلبت بهم الايام بعده. وقلد عبد الحيمد المعروف بحلي ابن السلطان أبي علي وزارته محمد بن السبيع هذا أيام حصاره لدار ملكهم سنة اثنتين وستين كما نذكره في أخبارهم، فلم يقدر لهم الظفر. تم رجع السبيع بعدها إلى محله من دار السلطان وطبقة الوزارة، وما زال يتصرف في الخدم الجليلة والأعمال الواسعة ما بين سجلماسة ومراكش وأعمال تازى وتادلا وغمارة، وهو على ذلك العهد. والله وارث الأرض ومن عليها، سبحانه لا إله غيره.

الخبر عن وجديجن وواغمرت من قبائل زناتة ومبادىء أحوالهم وتصاريفها.

قد تقدم أن هذين البطنين من بطون زناتة من ولد ورتنيص بن جانا، وكان لهم عدد وقوه، ومواطنهم مفترقة في بلاد زناتة: فأما وجديجن فكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ومواطنهم منه منداس ما بين بني يفرن من جانب الغرب، ولواتة من جانب القبلة في السرسو، ومطماطة من جانب الشرق في وانشريش. وكان أميرهم

لعهد يعلى بن محمد اليفرني رجلا منهم اسمه عنان، وكانت بينهم وبين لواتة الموطنين بالسرسو فتنة متصلة، يذكر أنها بسبب امرأة من وجديجن نكحت في لواتة وتلا، جامعها نساء قيوطنهم فعيرنها بالفقر، فكتبت بذلك إلى عنان تدمره، فغضب واستجاش بأهل عصبته مز زناتة وجيرانه، فزحف معه يعلى في بني يفرن وكلمام بن حياتي في مغيلة وغرابة في مطماطة، ودارت الحرب بينهم وبين لواتة مليا. ثم غلبوا لواتة في بلاد السرسو، وانتهوا بهم إلى كدية العابد من آخرها. وهلك عنان شيخ وجديجن في بعض تلك الوقائع بملاكو من جهات السرسو. ثم لجأت لواتة إلى جبل كريكرة قبلة السرسو وكان يسكنه أحياء من مغراوة يعرف شخصيتهم لذلك العهد علاهم ربيب لشيخهم عمر بن تامصا الهالك قبله، ومعنى تامصا بلسان البربر الغول. ولما لجأت لواتة إليه غدر بهم وأغرى قومه، فوضعوا أيديهم فيهم سبا وقتلا، فلاذوا بالفرار، ولحقوا بجبل لعود وجبل درأك، فاستقروا هنالك اخر الدهر. وورثت وجديجن مواطنهم بمنداس إلى أن غلبهم عليها بنو يلومي، وبنو ومانو كل من جهته ثم غلب الآخرين عليها بنو عبد الواد، وبنو توجين إلى هذا العهد. والله وارث الأرض ومن عليها.

وأما واغمرت، ويسمون لهذا العهد غمرت، وهم إخوة وجديجن ومن ولد ورتنيص بن جانا كما قلناه، فعانوا من أوفر القبائل عددا، ومواطنهم متفرقة، وجمهورهم بالجبال إلى قبلة بلاد صنهاجة من المشنتل إلى الدوسن. وكان لهم صر أبي يزيد صاحب الحمار في الشيعة آثار، وأوقع بهم إسماعيل عند ظهوره على أبي يزيد، وأثخن فيهم، وكذلك بلكين وصنهاجة من بعده. ولما افترق أمر صنهاجة بحماد وبنيه كانوا شيعا لهم على بني بلكين. ونزع عن حماد أيام فتنته ابن أبي جلى من مشيختهم، وكان مختصا به، فنزع إلى باديس، فوصله وحمل أصحابه، وعقد له على طبنة وأعمالها. حتى إذا جاء العرب الهلاليون، وغلبوهم على الضواحي، اعتصموا بتلك الجبال قبلة المسيلة وبلاد صنهاجة، وصدوا بها عن الظعن، وتركوا القيطون إلى

سكنى المدن. ولما غلب الدواودة على ضواحي الزاب وما إليها، اقطعتهم الدولة مغارم هذه الجبال التي لغمرت. وهم لهذا العهد في سهمان أولاد يحيى بن علي بن سباع من بطونهم. وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز، فيها أخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي من الملك والدولة، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان. شهد كثير من الواقعات على وفقها بصحتها، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته تلك ما معناه باللسان العربي أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دورها فدنا حتى يثير أرضها حراث أسود بثور أسود أعور. وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سني ستين وسبعماية، وأفرط الحلاف بين هذا الجيل الزناتي في التشييع له والحمل عليه: فمنهم من يزعم أنه ولي أو نبي، وآخرون يقولون كاهن. ولم تقفنا الأخبار الصحيحة على الجلي من أمره. والله سبحانه وتعالى أعلم لا رب غيره.

الخبر عن بني واركلا من بطون زناتة والمصر المنسوب إليهم بصحراء إفريقية وتصاريف أحوالهم:

بنو واركلا هؤلاء إحدى بطون زناتة– كما تقدم– من ولد فريني بن جانا، وقد مر ذكرهم. وإن إخوانهم يزمرتن ومنجصة ونمالتة المعروفون لهذا العهد: منهي ينو واركلا. وكانت فئتهم قليلة، وكانت مواطنهم قبلة الزاب، واختطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثماني مراحل من بسكرة، في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب. بنوها قصورا متقاربة الخطة. ثم استبحر عمرانها، فائتلفت وصارت مصرا. وكان معهم هنالك جماعة من بني زنداك من مغراوة، وإليهم كان هرب ابن أبي يزيد النكاري عند فراره من الاعتقال لسنة خمس وعشرين وثلاثماية، وكان مقامه بينهم سنة يختلف إلى بني برزال قبلة المسيلة بسالات، وإلى

قبائل البربر بجل أوراس، يدعوهم جميعا إلى مذهب النكارية، إلى أن ارتحل إلى أوراس، واستبحر عمران هذا المصر، واعتصم به بنو واركلا هؤلاء، والكثير من ظواعن زناتة عند غلب الهلاليين إياهم على المواطن، واختصاص الأثبج بضواحي القلعة والزاب وما إليها.

ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك إفريقية وجال في نواحيها في أتباع ابن غانية؛ مر بهذا المصر فأجبه وكلف بالزيادة في تمصيره، فاختط مسجده العتيق ومأذنته المرتفعة، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشا في الحجارة. وهذا البلد لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان، يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع. وسكانها لهذا العهد من أعقاب بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة، ويعرف رئيسه باسم السلطان، شهرة غير نكيرة بينهم، ورياسته لهذه الأعصار مخصوصة ببني أبي غبول ويزعمون أنهم من بني واكير، إحدى بيوت بني واركلا، وهو بذا العهد أبو بكر بن موسى بن سليمان من بني أبي غبول، ورياستهم متصلة في عمود هذا النسب. وعلى عشرين مرحلة من هذا المصر في القبلة منحرفا إلى الغرب بيسير بلد تكدة قاعدة وطن الملثمين، وركاب الحاج من السودان، اختطه الملثمون من صنهاجة وهم ساكنوه لهذا العهد، وصاحبه أمير من بيوتاتهم يعرفونه باسم السلطان، وبينه وبين أمير الزاب مراسلة ومهاداة. ولقد قدمت على بسكرة سنة أربع وخمسين أيام السلطان أبي عنان في بعض الأغراض الملوكية، ولقيت رسول صاحب تكدة عند يوسف بن مزني أمير بسكرة، وأخبرني عن استبحار هذا المصر في العمارة، ومرور السابلة، وقال لي: اجتاز بنا في هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي كانت زكاتهم اثنتي عشر ألف راحلة. وذكر لي غيره أن ذلك هو الشأن في كل سنة. وهذا البلد في طاعة سلطان مالي من السودان كما في سائر تلك البلاد الصحراوية المعروفة بأطلستين لهذا العهد. والله غالب على أمره سبحانه.

الخبر عن دمر من بطون زناتة ومن ولي منهم بالأندلس وأولية ذلك ومصادره:

بنو دمر هؤلاء من زناتة وقد تقدم أنهم من ولد. ورسيك بن أديدت بن جانا، وشعوبهم كثيرة، وكانت مواطنهم بإفريقية في نواحي طرابلس وجبالها، وكان منهم آخرون ظواعن بالضواحي من عرب إفريقية. ومن بطون إيدمر هؤلاء بنو ورغمة، وهم لهذا العهد مع قومهم بجبال طرابلس. ومن بطونهم أيضاً بطن متسع كثير الشعوب وهم بنو ورنيد بن وانتن بن واردیرن بن دمر، وأن من شعوبهم بني ورتاتين وبني غرزول وبني تفورت. وربما يقال إن هؤلاء الشعوب لا ينتسبون إلى دمر من ورنيد كما تقدم. وبقايا بني ورنيد لهذا العهد بالجبل المطل على تلمسان، بعد أن كانوا في البسيط قبلته، فزحمهم بنو راشد حين دخولهم من بلادهم بالصحراء إلى التل، وغلبوهم على تلك البسائط فانزاحوا إلى الجبل المعروف بهم لهذا العهد، وهو المطل على تلمسان. وكان قد أجاز إلى الأندلس من إيدمر هؤلاء أعيان ورجالات حرب فيمن أجاز إليها من زناتة وسائر البربر، أيام أخذهم بدعوة الحكم المستنصر، فضمهم السلطان إلى عسكره، واستظهر بهم المنصور بن أبي عامر من بعد ذلك على شأنه، وفرى بهم المستعين أديم دولته. ولما اعصوصب البربر على المستعين، وبني حمود من بعده، وغالبوا جنود الأندلس من العرب، وكانت الفتنة الطويلة بينهم التي نثرت سلك الخلافة، وفرت شمل الجماعة، واقتسموا خطط الملك وولايات الأعمال، وكان من رجالاتهم نوح الدمري، وكان من عظماء أصحاب المنصور، وولاه المستعين أعمال مودور واركش، فاستبد بها سنة أربع في غمار الفتنة، وأقام بها سلطاناً لنفسه، إلى أن هلك سنة ثلاث وثلاثين، فولي ابنه أبو مناد محمد بن نوح، وتلقب بالحاجب عز الدولة لقبين في قرن شأن ملوك الطوائف. وكانت بينه وبين ابن عباد صاحب ضب الأندلس خطوب. ومر المعتضد في بعض أسفاره بحصن اركش، وتطوف مختفيا، فتقبض عليه بعض أصحاب ابن نوح، وساقه إليه، فخلى سبيله وأولاه كرامة احتسبها عنده يدا،

وذلك سنة ثلاث وأربعين، فانطلق إلى دار ملكه، ورجع بعدها إلى ولاية الملوك الذين حوله من البربر. وأسجل لابن نوح هذا على عملي أركش وموروروفيمن أسجل له منهم، فصاروا إلى مخالصته، إلى أن استدعاهم سنة خمس وأربعين بعدها إلى صنيع دعا إليه الجفلى من أهل أعماله، واختصهم بدخول حمام اعد لهم استبلاغا في تكريمهم. وتخفف ابن نوح عنده من بينهم، فلما حصلوا داخل الحمام طبقه عليهم، وسد المنافس للهواء دونهم، إلى أن هلكوا. ونجا منهم ابن نوح لسالفة يده، وطير في الحين من تسلم معاقلهم وحصونهم، فانتظمهم في أعماله. وكان منهم وفدة وشريش وسائر أعمالها. وهلك من بعد ذلك الحاجب أبو مناد بن نوح، وولي ابنه أبو عبد الله. ولم يزل المعتضد يضايقه إلى أن انخلع له سنة ثمان وخمسين، فانتظمها في أعماله. وصار إليه محمد بن أبي مناد إلى أن هلك سنة ثمان وستين، وانقرض ملك بني نوح. والبقاء لله وحده سبحانه.

الخبر عن بني برزال إحدي بطون دمر وما كان لهم من الملك بقرمونة وأعمالها بالأندلس أيام الطوائف وأولية ذلك ومصائره:

قد تقدم لنا أن بني برزال هؤلاء من ولد ورنيد بن وانتن بن واردیرن بن دمر، كما ذكره ابن حزم، وإن إخوتهم بنو يصدرين وبنو صغمار وبنو يطوفت. وكان بنو برزال هؤلاء بإفريقية، وكانت مواطنهم منها جبل سالات وما إليه من أعمال المسيلة، وكان لهم ظهور ووفور عدد، وكانوا نكارية من فرق الخوارج. ولما فر أبو يزيد أمام إسماعيل المنصور، وبلغه أن محمد بن خزر يترصد له، أجمع الاعتصام بسالات وصعد إليهم. ثم أرهقته عساكر المنصور، فانتقل عنهم إلى كتامة. وكان من أمره

ما قدمناه. ثم استقام بنو برزال طى طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب، حتى صاروا له شيعا.

ولما انتقض جعفر على معد سنة ستين وثلاثماية، كان بنو برزال هؤلاء في جملته ومن أهل خصوصيته، فأجازوا به البحر إلى الأندلس أيام الحكم المستنصر، فاستخدمهم ونظمهم في طبقات جنده إلى من كان لحق به من قبائل زناتة وسائر البربر أيام أخذهم بالدعوة الأموية، ومحاربتهم عليها للأدارسة، فاستقروا جميعا بالأندلس. وكان لبني برزال من بينهم ظهور وغناء مشهور. ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على خليفته هشام، وتوقع النكير من رجالات الدولة وموالي الحكم، استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض فيهم الإحسان، فاعتز أمره واشتد أزره، حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه. ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى كما ذكرناه خشية عصبيته بهم. واستمالهم من بعده، فأصبحوا له عصبة، وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة. وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...، فولاه قرمونة وأعمالها، فلم يزال واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة، ووليها من بعده ابنه عبد الله.

ولما انقرض ملك بني حمود من قرطبة ودفع أهلها القاسم المأمون عنهم سنة أربع عشرة، أراد اللحاق بإشبيلية، وبها نائبه محمد بن أبي زيري من وجوه البربر، وبقرمونة عبد الله بن إسحاق البرزالي، فداخلهما القاضي ابن عباد في خلع طاعة القاسم، وصده عن العملين، فأجابا إلى ذلك. ثم دس للقاسم بالتحذير من عبد الله بن إسحاق، فعدل القاسم عنهم جميعا إلى شريش، واستمد كل منهم بعمله. ثم هلك عبد الله من بعد ذلك، وولي ابنه محمد سنة...، وكانت بينه وبين المعتضد بن عباد حرب، وظاهر عليه يحيى بن علي بن حمود في منازلة إشبيلية سنة ثمان عشرة. ثم اتفق معه ابن عباد بعدها، وظاهره على عبد الله بن الأفطس، وكانت بينهما- عرب، وكانت الدبرة فيها على ابن الأفطس. وتحصل ابنه المظفر قائد العسكر في قبضة محمد بن عبد الله بن إسحاق إلى أن من عليه بعد ذلك وأطلقه. ثم كانت الفتنة بين محمد

بن إسحاق وبين المعتضد، وأغار إسماعيل بن المعتضد على قرمونة في بعض الأيام بعد أن كمن الكمائن من الخيالة والرجل، وركب إليه محمد في قومه، فاستطرد لهم إسماعيل إلى أن بلغوا الكمائن؛ فثاروا بهم وقتل محمد البرزالي، وذلك سنة أربع وثلاثين. وولي ابنه العزيز بن محمد، وتلقب بالمستظهر مناغيا في ذلك لملوك الطوائف في عهده. ولم يزل المعتضد يستولي على غرب الأندلس شيئا فشيئا إلى أن ضايقه في عمل قرمونة، واقتطع منها أسيجة والمدور. ثم انخلع له العزيز عن قرمونة سنة تسع وخمسين، ونظمها المعتضد في ممالكه، وانقرض ملك بني برزال من الأندلس. ثم انقرض بعد ذلك حيهم من جبل سالات، وأصبحوا في الغابرين. والبقاء لله وحده سبحانه.

العزيز محمد بن عبد الله بن اسحق البرزالي

الخبر عن بني ومانوا وبني يلومي من الطبقة الأولى من زناتة وما كان لهم من الملك والدولة بأعمال المغرب الأوسط ومبدأ ذلك وتصاريفه:

هاتان القبيلتان من بطون زناتة، ومن توابع الطبقة الأولى، ولم نقف على نسبها إلى جانا، إلا أن نسابتهم متفقون على أن يلومي وورتاجن الذي هو أبو مرين أخوان، وإن مديون أخوهما للام، ذكر لي ذلك غير واحد من نسابتهم. وبنو مرين لهذا العهد يعرفون لهم هذا النسب، ويوجبون لهم العصبية له.

وكانت هاتان القبيلتان من أوفر بطون زناتة وأشدهم شوكة ومواطنهم جميعاً بالمغرب الأوسط. وبنو ومانوا منهم إلى جهة الشرق عن وادي ميناس في منداس ومرات وما إليها من أسافل شلف، وبنو يلومي بالعدوة الغربية منه بالجعبات والبطحاء وسيك وسيرات وجبل هو،ة وبني راشد.

وكان لمغراوة وبني يفرن التقدم عليهم في الكثرة والقوة. ولما غلب بلكين بن زيري

مغراوة وبني يفرن على المغرب الأوسط، وأزاحهم إلى المغرب الأقصى، بقيت هاتان القبيلتان بمواطنهما، واستعملتهم صنهاجة في حروبهم، حتى إذا تقلص ملك صنهاجة عن المغرب الأوسط اعتزوا عليهم. واختمى الناصر بن علناس صاحب القلعة ومختط بجاية بني ومانوا هؤلاء بالولاية، فكانوا سيفا لقومه دون بني يلومي. وكانت رياسة بني ومانو في أبيت منهم يعرفون ببني ماخوخ. وأصهر المنصور بن الناصر إلى ماخوخ منهم في أخته، فزوجها إياه، فكان لهم بذلك مزيد ولاية في الدولة.

ولما ملك المرابطون تلمسان أعوام سبعين وأربعماية، وأنزل يوسف بن تاشفين بها عامله محمد بن تينعمر المسوفي، ودوخ أعمال المنصور وملك أمصارها إلى أن نازل الجزائر، وهلك فولي أخوه تاشفين على عمله، فغزا أشير وافتتحها وخربها. وكان لهذين الحيين من زناتة أثر في مظاهرته وإمداده، أحقد عليهم المنصور بعدها، وغزا بني ومانوا في عساكر صنهاجة، وجمع له ماخوخ، فهزمه واتبعه منهزما إلى بجاية، فقتل لمدخله إلى قصره وقتل زوجه أخت ماخوم تشفيا وضغناً. ثم نهض إلى تلمسان في العساكر واحتشد العرب من الأثبج ورياح وزغبة ومن لحق به من زناتة، وكانت الغزاة المشهورة سنة سص وثمانين أبقى فيها على ابن تينعمر المسوفي بعد استمكانه سن البلد كما ذكرناه في أخبار صنهاجة. ثم هلك المنصور وولي ابنه العزيز، وراجع ماخوخ ولايتهم، وأصهر إليه العزيز أيضا في ابنته، فزوجها إياه. واعتز البدو في نواحي المغرب الأوسط، واشتعلت نار الفتنة بين هذين الحيين من بني ومانوا وبني يلومي، فكانت بينهم حروب ومشاهد. وهلك ماخوخ، وقام بأمره في قومه بنوه تاشفين وعلي وأبو بكر، وكان أحياء زناتة الثانية من عبد الواد وتوجين وبني راشد وبني ورسيفان من مغراوة مدداً للفريقين، وربما ماد بنو مرين إخوانهم بني يلومي لقرب مواطنهم منهم، إلا أن زناتة الثانية لذلك العهد مغلبون لهذين الحيين، وأمرهم تبع لهم إلى أن ظهر أمر الموحدين. وزحف عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط في أتباع تاشفين بن علي، وتقدم أبو بكر بن ماخوخ ويوسف بن يدز من بني ومانوا إلى طاعته، ولحقوه بمكانه من أرض الريف، فسرح معهم عساكر الموحدين لنظر يوسف بن وانودين وابن يغمور، فأثخنوا في بلاد بني يلومي

وبني عبد الواد، ولحق صريخهم بتاشفين بن علي بن يوسف، فأمدهم بالعساكر، ونزلوا منداس. واجتمع لبني يلومي بنو ورسفان من

مغراوة وبنو توجين من بني بادين وبنو عبد الواد منهم أيضا، وشيخهم حمامة بن مظهر، وبنو يكاسن من بني مرين وأوقعوا ببني ومانوا، وقتلوا أبا بكر بن ماخوخ في ستماية منهم واستنقذوا غنائمهم. وتحضن الموحدون وفل بني ومانوا بجبال سيرات، ولحق تاشفين بن ماخوخ صريخا بعبد المؤمن، وجاء في جملته حتى نازل تاشفين بن علي بتلمسان. ولما ارتحل في أثره إلى وهران كما قدمناه سرح الشيخ أبا حفص في عساكر الموحدين إلى بلاد زناتة، فنزلوا منداس وسط بلادهم، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا للطاعة، ودخلوا في الدعوة. ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني بلومي، وحمامة بن مظهر شيخ بني عبد الواد، وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فتلقاهم بالقبول.

ثم انتقضت زناتة بعدها، وامتنع بنو يلومي بحصنهم الجعبات ومعهم شيوخهم سيد الناس وبدرح ابنا أمير الناس، فحاصرهم عساكر الموحدين وغلبوهم عليها وأشخصوهم إلى المغرب. ونزل سيد الناس بمراكش، وبها كان مهلكه أيام عبد المؤمن. وهلك بعد ذلك بنو ماخوخ.

ولما أخذ أمر هذين الحيين في الانتقاض جاذب بني يلومي في تلك الأعمال بنو توجين، وشاجروهم في أحواله، ثم واقعوهم الحرب في جوانبه. وتولى ذلك فيهم عطية الخير كبير بني توجين، وصلى بنارها منهم معه بنو منكوش من قومه حتى غلبوهم على مواطنهم وأذلوهم وأصاروهم جيرانا لهم في قياطنهم، واستعلى بنو عبد الواد وترجين على هذين الحيين وغيرهم بولايتهم للموحدين ومخالطتهم اياهم، فذهب شأنهم وافترق قيطونهم أوزاعا في زمانه الوارثين أوطانهم من بني عبد الواد وتوجين والبقاء لله وحده. ومن بطون بني ومانوا هؤلاء قبائل بني يالدس، وقد يزعم زاعمون أنهم من مغراوة، ومواطنهم متصلة قبلة المغرب الأقصى والأوسط وراء العرق المحيط بعمرانهم المذكور قبل. اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم واتخذوا بها الجنات من النخيل والأعناب وسائر الفواكه: فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئين، آخذة من المشرق إلى المغرب وآخرها

من جانب المشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد مستبحر في إلعمران، وهو هـكاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالى إليه، وبينه وبين ثغر بلد مالي المسمى غار، المفازة المجهلة لا يهتدى فيها للسبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل الشريت من الملثمين الظواعن بذلك القفر، يستأجره التجمار محلى البذرقة بهم بأوفى الشروط. ولقد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور بناحية المغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن، الثغر الأخير من أعمال مالي. ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها، ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك، ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت.

ومن هذه القصور قبلة ظمسان، وعلى عشر مراحل منها قصور تيكورارين، وهي كثيرة تقارب المايـة، في بسيط واد منحدر من الغرب إلى الشرق واستبحرت في العمران وغصت بالساكن. وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يالدس هؤلاء، ومعهم من سائر قبائل زناتة والبربر، مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين، وهم أهل عديد وعدة، وبعد عن هضيمة الأحكام وذل المغارم، وفيهم الرجالة والخيمالة، وأكثرهم معاشهم من فلح النخل، وفيهم التجر إلى بلد السودان، وضواحيها كلها مشتاة للعرب، ومختصة بعبيد الله من المعقل، عينتها لهم قسمة الرحلة. وربما شاركهم بنو عامر من زغبة في تيكورارين، فتصل إليها ناجعتهم بعض السنين.

وأما عبيد الله فلا بد لهم لي كل سنة من رحلة الشتاء إلى قصور توات وبلد تمنطيت، ومع ناجعتهم تخرج قفول التجار من الأمصار والتلول، حتى يخطوا بتمنطيت، ثم يبذرقون منها إلى بلد السودان. وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى. وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فتحت بالمعاول والفؤس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها على الماء،

فينبعث صاعدا فيفعم البئر، ثم يجري على وجه الأرض واديا. ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شيء. وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين ووواركلا وريغ. والعالم أبو العجائب. والله الخلاق العليم.. وهذا آخر الكلام في الطبقة الأولى من زناتة، ولنرجع إلى أخبار الطبقة الثانية منهم، وهم الذين اتصلت دولتهم إلى هذا العهد.

أخبار الطبقة الثانية من زناتة وذكر أنسابهم وشعوبهم و أوليتهم:

قد تقدم لنا في تضاعيف الكلام قبل انقراض الملك من الطبقة الأولى من زناتة، ما كان على يد صنهاجة والمرابطين من بعدهم وأن عصبة أجيالهم افترقت بانقراض ملكهم ودولهم، وبقيت منهم بطون لم يمارسوا الملك، ولا أخلقهم ترفه، فأقاموا في قياطنهم بأطراف المغربين ينتجعون جانبي القفر والتل، ويعطون الدول حق الطاعة. وغلبوا على بقايا الأجيال الأولى من زناتة بعد أن كانوا مغلبين لهم؛ فأصبحت لهم السورة والعزة، وصارت الحاجة من الدول إلى مظاهرتهم ومسالمتهم، حتى انقرضت دولة الموحدين، فتطاولوا إلى الملك وضربوا فيه مع أهله بسهم. وكانت لهم دول نذكرها إن شاء الله. وكان أكثر هذه الطبقة من بني واسين بن يصلتين إخوة مغراوة وبني يفرن. ويقال إنهم من بني وانتن بن ورسيك بن جانا إخوة مسارت وتاجرت، وقد تقدم ذكر هذه الأنساب. وكان من بني واسين هؤلاء ببلاد قسطيلية. وذكر ابن الرقيق أن أبا يزيد النكاري لما ظهر بجبل أوراس كتب إليهم بمكانهم حول توزر يأمرهم بحصارها، فحاصروها سنة ثلاث وثلاثين وثلاثماية. وربما أن منهم ببلد الحامة لهذا العهد، ويعرفون ببني ورتاجن إحدى بطونهم. وأما جمهورهم فلم يزالوا بالمغرب الأقصى ما بين ملوية إلى جبل راشد.

وذكر موسى بن أبي العافية في كتابه إلى الناصر الأموي يعرفه بحربه مع ميسور مولى أبي القاسم الشيعي، وبمن صار إليه من قبائل البربر وزناتة، فذكر فيهم من كان على ملوية وصا، من قبائل بني واسين، وبني بفرن وبني ورتاسن، وبني وريمت ومطماطة، فذكر

منهم بني واسين، لأن تلك المواطن هى مواطنهم قبل الملك.
وفي هذه الطبقة منهم بطون: فمنهم بنو مرين، وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا، وأعظمهم دولة، ومنهم أبو عبد الواد تلوهم في الكثرة والقوة، وبنو توجين من بعدهم كذلك. هؤلاء أهل الملك من هذه الطبقة. وفيها من غير أهل الملك: بنو راشد إخوة بني بادين كما نذكره، وفيها أهل الملك أيضا من غير نسبهم بقية من مغراوة بمواطنهم الأولى من وادي شلف، نبضت فيهم عروق الملك بعد انقراض جيلهم الأول، فتجاذبوا حبله مع أهل هذا الجيل. وكانت لهم في مواطنهم دولة كما نذكره .

ومن أهل هذه الطبقة كثير من بطونها ليس لهم ملك: نذكرهم الآن حين تفصل شعوبهم. وذلك أن أحياءهم جميعاً تشعبت من زحيك بن واسين، فكان منهم بنو بادين بن محمد، وبنو مرين بن ورتاجن: فأما بنو ورتاجن فهم من ولد ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتنيد بن المغربن إبراهيم بن زحيك. وأما بنو مرين بن ورتاجن، فتعددت أفخاذهم وبطونهم كما نذكره بعد حتى كثروا سائر شعوب بني ورتاجن، وصار بنو ورتاجن معدودين في جملة أفخاذهم وشعوبهم. وأما بنو بادين بن محمد فمن ولد زحيك، ولا أذكر الان كيف يتصل نسبهم به. وتشعبوا إلى شعوب كثيرة: فكان منهم بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو مصاب وبنو أزردال، يجمعهم كلهم نسب بادين بن محمد. وفي محمد هذا يجتمع بادين وبنو راشد، ثم يجتمع محمد مع ورتاجن في زحيك بن واسين، وكانوا كلهم معروفين بين زناتة الأولى ببني واسين قبل أن تعظم هذه البطون والأفخاذ، وتشعبت مع الأيام. وبأرض إفريقية وصحراء برقة وبلاد الزاب منهم طوائف من بقايا زناتة الأولى قبل انسياحهم إلى المغرب: فمنهم بقصور غدامس على عشرة مراحل قبل سرت، وكانت مختطة منذ عهد الإسلام وهي خطة مشتملة على قصور وآطام عديدة، وبعضها لبني واطاس من أحياء بني مرين، يزعمون أن أوائلهم اختطوها، وهي لهذا العهد قد استبحرت في العمارة،

واتسعت في التمدن، بما صارت محطا لركاب الحاج من السودان، وقفل التجار إلى مصر والإسكندرية عند إراحتهم من قطع المفازة ذات الرمال المعترضة أمام طريقهم دون الأرياف والتلول، وبابا لولوج تلك المفازة والحاج والتجر في مرجعهم. ومنهم ببلاد الحمة على مرحلة من غربي قابس أمة عظيمة من بني ورتاجن. وفرت منهم حاميتها، واشتدت شوكتها، وارتحل إليها التجر بالبضائع لنفاق أسواقها وتبحر عمارتها، وامتنعت لهذا العهد على من يرومها، ممن يجاورها فهم لا يودون خراجا ولا يسامون بمغرم، حتى كأنهم لا يعرفونه عزة جناب وفضل بأس ومنعة. يزعمون أن سلفهم من بني ورتاجن اختطوها، ورياستهم في بيت منهم يعرفون ببني وشاح، وربما طال على رؤسائهم عهد الخلافة ووطأة الدول، فيتطاولون إلى التي تنكر على السوقة من اتخاذ الآلات ويبرزون في زفي السلطان أيام الزينة تهاونا بشعار الملك، ونسيانا لمألوف الانقياد شأن جرانهم رؤساء توزر ونفطة. وسابق الغاية في هذه المضحكة هو يملول مقدم توزر.

ومن بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطري في القبلة بما دون الرمال، وعلى ثلاث مراحل من لصور بني ريغة في المغرب، وهذا الاسم اسم للقوم الذين اختطوها ونزلوها من شعوب بني بادين حسبما ذكرناهم الآن. ووضعها في أرض حرة على آكام وضراب ممتنعة في قننها. وبينها وبين الأرض الحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق متوسطة فيه قبالة تلك البلاد فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد وبني توجين ومصاب وبني زردال فيمن يضاف إليهم من شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب، وحالها في المباني والأغراس وتفرق الجماعة بتفرق الرياسة شبيهة بحال بلاد بني ريغة والزاب.

ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد موطنوه منذ العهد الأقدم لأول الفتح، معروفون بين ساكنيه.

وقد ذكر بعض الإخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس في ولايته

الثانية، وهي الغزاة التي هلك فيها في منصرفه منها، وأنهم أبلوا البلاء الحسن، فدعا لهم وأذن في رجوعهم قبل استتمام الغزاة. ولما تحيزت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة اجتمع شعوب بني واسين هؤلاء كلهم ما بين ملوية وصا كما ذكرناه. وتشعبت أفخاذهم وبطونهم وانبسطوا في صحراء المغرب الأقصى والأوسط، إلى بلاد الزاب وما إليها من صحارى إفريقية، إذ لم يكن للعرب في تلك المجالات كلها مذهب ولا مسلك إلى الماية الخامسة كما سبق ذكره. ولم يزالوا بتلك البلاد مشتملين لبوس العز مستمرين للأنفة، وكان جل مكاسبهم الأنعام والماشية، وابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة، وكانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل ومنافسة الأمم والدول ومغالبة الملوك أيام ووقائع، تلم بها ولم تعظم العناية باستيعابها، فتأتي به. والسبب في ذلك أن اللسان الربي كان غالبا بغلب دولة العرب، وظهور الملة العربية بالكتاب، والخط بلغة الدولة ولسان الملك، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماره، ولم يكن لهذا الجيل من زناتة في الأحقاب القديمة ملك يحمل أهل الكتاب على العناية بتقييد أيامهم وتدوين أخبارهم، ولم تكن مغالطة بينهم وبين أهل الأرياف والحضر، حتى يشهدوا آثارهم لإبعادهم في القفار كما رأيت في مواطنهم، وتوحشهم عن الانقياد؛ فبقيت غفلا إلى أن درس منها الكثير، ولم يصل إليها منها بعد مهلكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه، ويتقراه في شعابه، ويستثيره من مكامنه، وأقاموا بتلك القفار إلى أن تسنموا منها هضبات الملك على ما تصفه.

الخبر عن أحوال هذه الطبقة قبل الملك وكيف كانت تصاريف أحوالهم إلي أن غلبوا علي الممالك والدول:

وذلك أن أهل هذه الطبقة من بني واسين وشعوبهم التي سميناها كانوا تبعا لزناتة الأولى. ولما انزاحت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة وصنهاجة، خرج بنو واسين هؤلاء إلى القفر، ما بين ملوية وصا، فكانوا يرجعون إلى ملوك المغرب لذلك العهد. مكناسة أولا ثم مغراوة من بعدهم. ثم حسر تيار صنهاجة عن المغرب، وتقلمى ملكهم بعض الشيء، وصاروا إلى الاستجاشة على القاصية بقبائل زناتة، فأومضت بروقهم، ورفت في ممالك زناتة منابتهم كما قدمناه. واقتسم أعمالها بنو ومانو وبنو يلومي ناحيتين، وكانت ملوك صنهاجة أهل القلعة إذا عسكروا للمغرب يستنفرونهم لغزوه، ويجمعون حشدهم للتوغل فيه. وكان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب منهم من القبائل الشهيرة الذكر: مثل بني مرين وبني توجين ومصاب، قد ملكوا القفر ما بين ملوية وأرض الزاب، وامتنعت عليهم الأرياف من المغربين بمن ملكها من زناتة الذين ذكرناهم.

وكان أهل الرياسة بتلك الأرياف والضواحي من زناذة مثل بني ومانوا وبني يلومي بالمغرب الأوسط، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان يستجيشون ببني واسين هؤلاء ويستظهرون بجموعهم على ئن زاحمهم أو قارعهم من ملوك صنهاجة وزناتة وغيرهم، يجأجئون بهم من مواطنهم لذلك، ويقرضونهم القرض الحسن من المال والسلاح والحبوب المعوزة لديهم بالقفار، فينأثلون منهم ويرتاشون. وعظمت حاجة بني حماد إليهم في ذلك عندما عصفت بهم ريح العرب الطوالع من بني هلال بن عامر، وأصرعوا دولة المعز وصنهاجة بالقيروان والمهدية، وألانوا من حدهم، وزحفوا إلى المغرب الأوسط، فدافع بنو حماد عن حوزته وأوعزوا إلى زناتة بمدافعتهم أيضاً، فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة، وجمعوا من كان إليهم من بني واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد. وعقدوا

على حرب الهلاليين لوزيرهم بو سعدى خليفة اليفرني، فكان له مقامات في حروبهم ودفاعهم عن ضواحي الزاب والمغرب الأوسط، إلى أن هلك في بعض أيامه معهم وغلب الهلاليون قبائل زناتة على جميع الضواحي وأزاحوهم عن الزاب وما إليه من بلاد إفريقية، وانشمر بنو واسين هؤلاء من بني مرين وعبد الواد وتوجين عن الزاب إلى موطنهم بصحراء المغرب الأوسط من مصاب وجبل راشد إلى ملوية وفيكيك، ثم إلى سجلماسة ولاذوا ببني ومانوا وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط وتفيأوا ظلهم، واقتسموا ذلك القفر بالمواطن، فكان لبني مرين الناحية الغربية منها قبلة المغرب الأقصى بتيكورارين ودبدوا إلى ملوية وسجلماسة، وبعدوا عن بني ومانوا وبني يلومي، إلا في الأحايين وعند الصريخ. وكان لبني بادين منها الناحية الشرقية قبلة المغرب الأوسط ما بين فيكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب، وكانت بينهم وبين بني مرين فتن متصلة باتصال أيامهم في تلك المواطن سبيل القبائل الجيران في مواطنهم، وكان الغلب في حروبهم أكثر ما يكون لبني بادين لما كانت شعوبهم أكثر وعددهم أوفر، فإنهم كانوا أربعة شعوب؟ بني عبد الواد وبني توجين وبني زردال وبني مصاب، وكان معهم شعب آخر وهم إخوانهم بنو راشد، لأنا قدمنا أن راشد أخو بادين. وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم بالصحراء؛ ولم يزالوا على هذه الحال إلى أن ظهر أمر الموحدين، فكان لعبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم.

ثم غلب الموحدون على المغرب الأوسط وقبائله من زناتة، فأطاعوا وانقادوا، وتحيز بنو عبد الواد وبنو توجين إلى الموحدين، وازدلفوا إليهم بأمحاض النصيحة ومشايعة الدعوة، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الأخرى، وأمحضوا النصيحة للوحدين فاصطنعوهم دون بني مرين كما نذكر في أخبارهم. وأقطعهم الموحدون ضواحي المغرب الأوسط كما كانت لبني يلومي وبني ومانوا فملكوها. وتفرد بنو مرين بعد دخول بني بادين إلى المغرب الأوسط بتلك الصحراء، لما اختار الله لهم

من وفور قسمهم في الملك، واستيلائهم على سلطان المغرب الذي غلبوا به الدول، واشتملوا الأقطار، ونظموا المشارق إلى المغارب، واقتعدوا كراسي الدول المسامتة لهم بأجمعها ما بين السوس الأقصى إلى إفريقية. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

فأخذ بنو مرين وبنو عبد الواد من شعوب بني واسين هؤلاء بحظ من الملك أعادوا فيه لزناتة دولة وسلطانا في الأرض، واقتادوا الأمم برسن الغلب، وناغاهم في ذلك الملك البدوي إخوانهم بنو توجين. وكانت في هذه الطبقة الثانية بقية أخرى مما ترك آل خزر من قبائل مغراوة الأولى، كانوا موطنين بقرار عزهم ومنشأ جيلهم بوادي شلف، فجاذبوا هؤلاء القبائل حبل الملك وناغوهم في أطوار الرياسة، واستطالوا بمن وصل جناحهم من هذه العشائر؛ فتطاولوا إلى مقاسمتهم في الملك ومساهمتهم في الأمر. وما زال بنو عبد الواد في الغض من عنانهم وجدع أنوف عصيانهم، حتى أوهنوا من بأسهم وخصت الدولة العبد الوادية، ثم المرينية بسمة الملك المخلفة من جناح تطاولهم، وتمحض ذلك كله عن استبداد بني مرين واستتباعهم بجميع هؤلاء العصائب كما نذكر لك الان دولتهم واحدة بعد أخرى، ومصاير أمور هؤلاء الأربعة التي هي رؤوس هذه الطبقة الثانية من زناتة. والملك لته يؤتيه من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

ولنبدأ منها بذكر مغراوة بقية الطبقة الأولى، وما كان لرؤسائهم أولاد منديل من الملك في هذه الطبقة الثانية.

أولاد منديل

الخبر عن أولاد منديل من الطبقة الثانية وما أعادوا

لقومهم من مغراوة من الملك بموطنهم الأول من

شلف وما إليه من نواحي المغرب الأوسط

لما ذهب الملك عن مغراوة بانقراض ملوكهم آل خزر، واضمحلت دولهم بتلمسان وسجلماسة وفاس وطرابلس وبقية قبائل مغراوة متفرقة في مواطنهم الأولى بنواحي المغربين وإفريقية والصحراء والتلول، والكثير منهم بعنصرهم ومركزهم الأول بوطن

شلف وما إليه، فكان به بنو ورسيفان وبنو ورتزمان وبنو أيليت، ويقال إنهم من ورتزمان، وبنو سعيد وبنو زجاك وبنو سنجاس، وربما يقال إنهم من زناتة وليسوا من مغراوة وكان بنو خزرون الملوك بطرابلس لما انقرض أمرهم، وافترقوا في البلاد، لحق منهم عبد الصمد بن محمد بن خزرون بجبل أوراس فرارا من أهل بيته هنالك، الذين استولوا على الأمر وجده خزرون بن خليفة هو السادس من ملوكهم بطرابلس، فأقام بجبل اوراس مدة، ثم انتقل إلى زواوة، فأقام بينهم أعواما. ثم ارتحل عنهم، فنزل على بقايا قومه مغراوة بشلف من بني ورسيفان وبني ورتزمين وبني بو سعيد وغيرهم، فتلقوه بالمبرة والكرامة، وأوجبوا له حق البيت الذي ينتسب إليه. وأصهر إليهم، فأنكحوه وكثر ولده وعرفوا بينهم ببني محمد، ثم بالخزرية نسبة إلى سلفه الأول. وكان من ولده الملقب أبو ناس بن عبد الصمد بن وارجيع بن عبد الصمد، وكان منتحلا للعبادة والخيرية، وأصهر إليه بعض ولد ماخوخ ملوك بني ومانوا بابنته، فأنكحه إياها، فعظم أمره عندهم بقومه ونسبه وصهره. وجاءت دولة الموحدين على إثر ذلك، فرمقوه بعين التجلة لما كان عليه من طرق الخير، فأقطعوه بوادي شلف، وأقام على ذلك. وكان له من الولد وارجيع وهو كبيرهم، وعزيز ويغريان وماكور، ومن بنت ابن ماخوخ عبد الرحمن، وكان أجلهم شأنا عنده وعند قومه عبد الرحمن هذا، لما يوجبون له بولادة ماخوخ لأمه، ويتفرسون فيه أن له ولعقبه ملكا.

ويزعمون أنه لما ولد خرجت به أمه إلى الصحراء فألقته إلى شجرة، وذهبت في بعض حاجتها، فأطاف به يعسوب من النحل متواقعين عليه. وبصرت به على البعد، فجاءت تعدو لما أدركها من الشفقة، وقال لها بعض العرافين احتفظي عليه، فوالله ليكونن له شأن. ونشأ عبد الرحمن هذا في حق هذه التجلة مدلا بنسبه وبأسه. وكثر عشيره من بني أبيه، واعصوصب عليه قبائل مغراوة، فكان له بذلك شوكة، وفي دولة الموحدين تقدمة، لما كان يوجب لهم عيى نفسه من الانحياش والمخالطة والتقدم في مذاهب الطاعة. وكان السادة منهم يمرون به في غزواتهم إلى إفريقية ذاهبين وراجعين، فينزلون منه خير نزل، وهم ينقلبون بحمده والشكر لمذهبه،

فيزيد خلفاؤهم اغتباطا به. وأدرك بعض السادة وهو بأرض قومه الخبر بمهلك الخليفة بمراكش، فخلف الذخيرة والظهر، أسلمها إلى عبد الرحمن هذا، فنجا بدمائه بعد أن صحبه إلى تخم وطنه، فكانت له فيها ثروة أكسبته قوة وكثرة، فاستركب من قومه، واستكثر من عصابته وعشيره. وهلك خلال ذلك، وقد فشل ريح بني عبد المؤمن، وضعف أمر الخلافة بمراكش.

وكان له من الولد منديل وتهيم، وكان أكبرهما منديل، فقام بأمر قومه على حين عصفت رياح الفتنة، وأجلب ابن غانية على أعمال المغرب الأوسط. وسما لمنديل أمل في التغلب على ما يليه فاستأسد في عرينه، وحمى عن أشباله. ثم فسح خطوته إلى ما جاوره من البلاد، فملك جبل وانشريش والمرية وما إلى ذلك، واختط قصبة مرات. وكان بسيط متيجة لهذا العهد مستبحرا بالعمران آهلا بالقرى والأمصار.

ونقل الإخباريون أن أهل متيجة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصراً؛ فجاس خلالها، وأوطأ الغارات ساحتها وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها. وهو في ذلك يوهم التمسك بطاعة الموحدين، وأنه سلم لمن سالمهم، وحرب على من عاداهم. وكان ابن غانية منذ غلبه الموحدون على إفريقية قد أزاحوه إلى قابس وما إليها، ونزل الشيخ أبو محمد بن أبي حفص بتونس، فدفعه عن إفريقية إلى أن هلك سنة ثمان عشرة؛ فطمع يحيى بن غانية في استرجاع أمره، وأسف إلى الثغور والأمصار يعيث فيها ويخربها، ثم تجاوز إفريقية إلى بلاد زناتة، وشن عليها الغارات واكتسح ا البسائط، وتكررت الوقائع بينه وبينهم. وجمع له منديل بن عبد الرحمن، ولقيه بمتيجة، وكانت الدبرة عليه، وانفضت عنه مغراوة، فقتله ابن غانية صبرا سنة اثنتين أو ثلاث وعشرين. وتغلب على الجزائر إثر نكبته، فصلب بها شلوه، وصيره مثلا للآخرين. وقام بأمره في قومه بنوه، وكانوا نجباء فكان لهم العدة والشرف، وكانوا يرجعون في أمرهم إلى كبيرهم العباس، فتقبل مذاهب أبيه وأقصر عن بلاد متيجة.

ثم غلبهم بنو توجين على جبل وانشريش وضواحي المرية وما إلى ذلك. وانقبضوا

إلى مراكزهم الأولى بشلف، وأقاموا بها ملكاً بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام والضواحي والبسائط. واستولوا على مدينة مليانة وتنس وبرشك وشرشال

مقيمين فيها الدعوة الحفصية، واختطوا قرية مازونة.

ولما استوسق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان، واستفحل سلطانه بها، وعقد له عليها ولأخيه من قبله بنو عبد المؤمن، سما إلى التغلب على أمصار المغرب الأوسط، وزاحم بني توجين وبني منديل هؤلاء بمناكبه، فلفتوا وجوههم جميعا إلى الأمير أبي زكريا بن أبي حفص مديل الدولة بإفريقية من آل عبد المؤمن، وبعثوا إليه الصريخ على يغمراسن، فاحتشد لها جموع الموحدين والعرب، وغزا تلمسان وافتتحها كما ذكرناه.

ولما قفل إلى الحضرة عقد مرجعه لأمراء زناتة كل على قومه ووطنه: فعقد للعباس بن منديل على مغراوة، ولعبد القوي على توجين ولأولاد حبورة على ملكيش، وسوغ لهم اتخاذ الآلة فاتخذوها بمشهد منه. وعقد العباس السلم مع يغمراسن، ووفد عليه بتلمسان فلقاه مبرة وتكريما، وذهب عنه بعدها مغاضباً. يقال إنه تحدث بمجلسه يوما، فزعم أنه رأى فارسا واحدا يقاتل مايتين من الفرسان، فنكر ذلك من سمعه من بني عبد الواد، وعرضوا تكذيبه، فخرج العباس لها مغاضبا حتى أتى قومه، وأتى يغمراسن مصداق قوله، فإنه كان يعني بذلك الفارس نفسه.

وهلك العباس لخمس وعشرين سنة من بعد أبيه سنة سبع وأربعين، وقام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل، وصلحت الحال بينه وبين يغمراسن وصاروا إلى الاتفاق والمهادنة. ونفر معه بقومه مغراوة إلى غزو المغرب سنة كلدمان، وهي سنة سبع وأربعين وستماية، وهزمهم فيها يعقوب بن عبد الحق، فرجعوا إلى أوطانهم، وعاودوا شأنهم في العداوة. وانتقض عليهم أهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية. وكان من خبر هذا الانتقاض أن أبا العباس أحمد المليانى كان كبير وقته علما ودينا ورواية، وكان عالي السند في الحديث، فرحل إليه بالأعلام، وأخذ عنه الأئمة، وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة، فانتهت إليه رياسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه. ونشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية، وكان جموحا للرياسة طامحا إلى الاستبداد، وهو مع ذلك خلو من المغارم. فلما هلك أبوه جرى في شاو رئاسته طلقا، ثم رأى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده، فجمع لها

جراميزه، وقطع الدعاء للخليفة المستنصر سنة تسع وخمسين. وبلغ الخبر إلى تونس، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين في جملته "دون الريك بن هراندة" من آل أذفونشر ملوك الجلالقة، وكان نازعا إليه عن أبيه في طائفة من قومه، فنازلوا مليانة أياما. وداخل السلطان طائفة مر مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي المليانى، فسرب إليهم جندا بالليل، وافتحموها من بعض المداخل، وفر أبو علي المليانى تحت الليل. وخرج من بعض قنوات البلد، فلحق بأحياء العرب، ونزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف من بطون زغبة، فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق، فكان من أمره ما ذكرناه في أخبارهم. وانصرف عسكر الموحدين والأمير أبو حفص إلى الحضرة، وعقدوا لمحمد بن منديل على مليانة، فأقام فيها الدعوة الحفصية على سنن قومه. ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين وستين لخمس عشرة من ولايته، قتله أخواه ثابت وعياد بمنزل ظواعنهم بالخميس من بسيط بلادهم، وقتل معه عطية ابن أخيه منيف. وشاركه ثابت في الأمر واجتمع إليه قومه، وتقطع بين أولاد منديل، وخشنت صدورهم. واستغلظ يغمراسن بن زيان عليهم، وداخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنه من مليانة، ويشد عضده على رياسة قومه، فشارطه على ذلك وأمكنه من أزمة البلد سنة ثمان وستين، ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر عمى الأمر، فتم لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة. واستمكن بها يغمراسن من قياد قومه. ثم تناغى أولاد منديل في الازدلاف إلى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر، فاتفق ثابت وعايد أولاد منديل على أن يحكماه في تنس، فأمكناه منها سنة اثنتين وسبعين على اثني عشر ألفا من الذهب.

واستمرت ولاية عمر إلى أن هلك لحنة ست وسبعين، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة، وأجاز عايد أخوه إلى الأندلس للرباط والجهاد مع صاحبه زيان بن محمد بن عبد القوي، وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناتة واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يغمراسن، ونبذ إليه العهد. ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة إحدى وثمانين بين يدي مهلكه.

ولما هلك يغمراسن وقام بالأمر ابنه عثمان انتقضت عليه تنس؛ ثم ردد الغزو إلى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرا على ما بأيديهم، وملك المرية بمداخلة بني لمدية أهلها سنة سبع وثمانين.

وغلب ثابت بن منديل على مازونة، فاستولى عليها، ثم نزل له عن تنس أيضاً فملكها. ولم يزل عثمان مراغماً لهم إلى أن زحف إليهم سنة ثلاث وتسعين، فاستولى على أمصارهم وضواحيهم، وأخرجهم عنها، وألجأهم إلى الجبال. ودخل ثابت بن منديل إلى برشك ممانعا دونها، فزحف إليه عثمان وحاصره بها، حتى إذا استيقن أنه احيط به، ركب البحر إلى المغرب، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين صريخا سنة أربع وتسعين، فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه، وأقام بفاس. وكانت بينه وبين ابن الأشهب من رجالات بني عسكر صحابة ومداخلة، فجاء بعض الأيام إلى منزله، ودخل عليه من غير استئذان؟ وكان ابن الأشهب تملا، فسطا به وقتله. وثار السلطان به منه، وانفجع لموته. وكان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمدا للأمر في قومه، وولاه عليهم لعهده، واستبد بملك مغراوة دونه، ولما انصرف أبوه ثابت إلى المغرب أقام هو بأمارته على مغراوة. وهلك قريبا من مهلك أبيه، فقام بأمرهم من بعده شقيقه علي. ونازعه الأمر أخواه رحمون ومنيف، فقتله منيف، ونكر ذلك هو منهم، وأبوا من أمارتهما عليهم، فلحقا بعثمان بن يغمراسن، فأجازهما إلى الأندلس. وكان أخوهما معمر بن ثابت قائدا على الغزاة بالبغيرة فنزل لمنيف عنها، فكانت أول ولاية وليها بالأندلس. ولحق بهم أخوهم عبد المؤمن، فكانوا جميعا هنالك. ومن أعقاب عبد المؤمن يعقوب بن زيان بن عبد المؤمن، ومن أعقاب منيف بن عمر بن منيف، وجماعة منهم هم لهذا العهد بوطن الأندلس. ولما هلك ثابت بن منديل سنة أربع وتسعين كما قلناه، كفل السلطان ولده "وأهله، وكان فيهم حافده راشد بن محمد، فأصهر إليه في أخته فأنكحه إياها.

ونهض إلى تلمسان سنة ثمان وتسعين، فأناخ عليها واختط مدينة لحصارها

وسرح عساكر في نواحيها. وعقد على مغراوة وشلف لعمر بن ويغرن بن منديل، وبعث معه جيشا فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة تسع وتسعين، ووجد راشد في نفسه إذ لم يوليه على قومه، وكان يرى أنه الأحق بنسبه وصهره، فنزع عن السلطان، ولحق بجبال متيجة، ودس إلى أوليائه في مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة، فأغذ السير ولحق بهم، فافترق أمر مغراوة. وداخل أهل مازونة، فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويغرن بأزمور من ضواحي بلادهم فقتله. واجتمع عليه قومه، وسرح السلطان إليه الكتائب من بني عسكر لنظر الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومن بني ورتاجن لنظر علي بن محمد الخيري، ومن بني توجين لنظر أبي بكر بن إبراهيم بن عبد القوي، ومن الجند لنظر علي بن حسان الصبحي من صنائعه. وعقد على مغراوة لمحمد بن عمر بن منديل، وزحفوا إلى مازونة، وقد ضبطها راشد، وخلف عليها عليا وحمو ابني عمه يحيى بن ثابت. ولحق هو ببني بو سعيد مطلا عليهم وأناخت العساكر بمازونة، ووالوا عليها الحصار سنتين حتى أجهدوهم. وبعث علي بن يحيى أخاه حمو إلى السلطان من غير عهد، فتقبض عليه. ثم اضطره الجهد إلى مركب الغرور، فخرج إليهم ملقيا بيده سنة ثلاث. وأشخصه إلى السلطان فعفا عنه، واستبقاه، واحتسبهما تأنيسا واستمالة لراشد.

ثم سرح العساكر إلى قاصية الشرق لنظر أخيه أبي يحيى بن يعقوب، فنازل راشد بن محمد في معقل بني بو سعيد، وطال حصاره إياه، وأمكنته الغرة بعض الأيام في العساكر، وقد تعلقوا بأوعار الجبل زاحفين إليه، فهزمهم. وهلك في تلك الواقعة خلق حن بني مرين وعساكر السلطان، وذلك سنة أربع وسبعماية. وبلغ الخبر إلى السلطان، فأحفظه ذلك عليهم، وأمر بابن عمه علي بن يحيى وأخيه حمو ومن معهم من قومهم، فقتلوا رشقا بالسهام واستلحمهم.

ثم سرح أخاه أبا يحيى بن يعقوب ثانية سنة أربع، فاستولى على بلاد مغراوة، ولحق راشد بجبال صنهاجة من متيجة، ومعه عفه منيف بن ثابت، ومن اجتمع إليهم من الثعالبة، فنازلهم أبو يحنى بن يعقوب. وراسل راشد يوسف بن يعقوب فانعقدت بينهما السلم، ورجعت العساكر عنهم. وأجاز منيف بن ثابت مع بنيه وعشيرته إلى الأندلس، فاستقروا هنالك آخر الأيام. ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخه على تلمسان آخر سنة ست، وانعقدت السلم بين حافده أبي ثابت، وبين أبي زيان بن عثمان سلطان بني عبد الواد على أن يخلي له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من أمصارهم وأعمالهم وثغورهم، وبعثوا في حاميتهم وعمالهم وأسلموها لعمال أبي زيان. وكان راشد قد طمع في استرجاع بلاده، وزحف إلى مليانة فأحاط بها. فلما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان وصارت مليانة وتنس له، أخفق سعي راشد وأفرج عن البلد.

ثم كان مهلك أبي زيان قريبا، وولى أخوه أبو حمو موسى بن عثمان. واستولى على المغرب الأوسط، فملك تافر كينت سنة سبع، وملك بعدها مليانة والمرية، ثم ملك ننس وعقد عليها لمسامح مولاه، وقارن ذلك حركة صاحب بجاية السلطان أبي البقاء خالد ابن مولانا الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق إلى متيجة لاسترجاع الجزائر من بد ابن علان الثائر عليهم، فلقيه هنالك راشد بن محمد، وصار في جملته، وظاهره على شأنه. ولقاه السلطان تكرمة وبرأ، وعقد له ولقومه حلفا مع صنهاجة أولياء الدولة والمتغلبين على ضاحية بجاية وجبال زواوة، فاتصلت يد راشد بيد زعيمهم يعقوب بن خلوف أحد وزراء الدولة.

ولما نهض السلطان خالد للاستئثار بملك الحضرة تونس استعمل يعقوب بن خلوف على بجاية، وعسكر راشد معه بقومه، وأبلى في الحروب بين يديه وأغنى في مظاهرة أوليائه، حتى إذا ملك حضرتهم، واستولى على تراث سلفهم، أسف حاجب الدولة راشد هذا وقومه بإمضاء الحكم في بعض حشمه، تعرض للخرابة في السابلة فنقبض عليه، ورفع إلى سدة السلطان، فأمضى فيه حكم الله. وذهب راشد مغاضبا، ولحق بوليه ابن خلوف ومضطر به من زواوة. وكان يعقوب بن خلوف قد هلك، وولى السلطان مكانه

ابنه عبد الرحمن، فلم يرع حق أبيه في إكرام صديقه راشد. وتشاجر معه في بعض الأيام مشاجرة نكر عبد الرحمن فيها ملاحاة راشد له، وأنف منها، وأدل فيها راشد بمكانه من الدولة وببأس قومه، فلذعه بالقول، وتناوله عبد الرحمن وحشمه وخزاً بالرماح إلى أن أقعصوه. وانذعر جميع مغراوة، ولحقوا بالثغور القاصية، فأقفر منهم شلف وما إليه كأن لم يكونوا به. وأجاز منهم بنو منيف وبنو ويغرن إلى الأندلس للمرابطة بثغور المسلمين، فكانت منهم حامية موطنة هنالك أعقابهم لهذا العهد. وأقام في جوار الموحدين فل آخر من أوساط قومهم كانوا شوكة في عساكر الدولة إلى أن انقرضوا. ولحق علي بن راشد طفلا بعمته في قصر بني يعقوب بن عبد الحق فكفلته، وصار أولاد منديل عصبا إلى وطن بني مرين، فتولوهم وأحسنوا جوارهم، وأصهروا إليهم سائر الدولة، إلى أن تغلب السلطان أبو الحسن على المغرب الأوسط ومحا دولة آل زيان، وجمع كلمة زناتة، وانتظم مع بلادهم بلاد إفريقية وعمل الموحدين، وكانت نكبته على القيروان صدر سنة تسع وأربعين كما شرحناه قبل.

وانتقضت العمالات والأطراف، وانتزى أعياص الملك بمواطنهم الأولى، فتوثب علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف، وتملكها وتغلب على أمصارها: مليانة وتنس وبرشك وشرشال، وأعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية، وأرهفوا حدهم لمن طالبهم من القبائل. وخلص السلطان أبو الحسن من ورطته بإفريقية، ثم من ورطة البحر بمرسى بجاية إلى الجزائر يحاول استرجاع ملكه المفترق، فبعث إلى علي بن راشد وذكره ذمته فتذكر وحن، واشترط لنفسه التجافي عن ملك قومه بشلف، على أن يظاهره على بني عبد الواد فأبى السلطان أبو الحسن من اشتراط ذلك له، فتحيز عنه إلى فيئة بني عبد الواد الناجمين بتلمسان كما ذكرناه قبل، وظاهرهم عليه. وبرز إليهم السلطان أبو الحسن من الجزائر، والتقى الجمعان بشربوبة سنة إحدى وخمسين، فاختل مصاف السلطان أبي الحسن، وانهزم جمعه، وهلك ابنه الناصر، طاح دمه في مغراوة هؤلاء. وخرج إلى الصحراء ولحق منها بالمغرب الأقصى كما نذكره

بعد. وتطاول الناجمون بتلمسان من آل يغمراسن إلى انتظام بلاد مغراوة في ملكهم كما كان

لسلفهم؛ فنهض إليهم بعساكر بني عبد الواد رديف سلطانهم وأخوه أبو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن بن يغمراسن فأوطأ قومه بلاد مغراوة سنة اثنتين وخمسين، وفل جموعهم، وغلبهم على الضاحية والأمصار. وأحجر علي بن راشد بتنس في شرذمة من قومه، وأناخ بعساكره عليه وطال الحصار ووقع الغلب. ولما رأى علي بن راشد أن قد احيط به دخل إلى زاوية من زوايا قصره، وانتبذ فيها عن الناس، وذبح نفسه بحد حسامه وصار مثلا وحديثا للأخرين. واقتحم البلد لحينه، واستلحم من عثر عليه من مغراوة، ونجا الآخرون إلى أطراف الأرض، ولحقوا بأهل الدول، فاستركبوا واستلحقوا وصاروا جندا للدول، وحشما واتباعا، وانقرض أمرهم من بلاد شلف.

ثم كانت لبني مرين الكرة الثانية إلى تلمسان، وغلبوا آل زيان، ومحوا آثارهم. ثم فاء ظلهم بملك السلطان أبي عنان، وحسر تيارهم. وجدد الناجمون من آل يغمراسن دولة ثالثة بمكان عملهم على يد أبي حمو الأخير ابن موسى بن يوسف كما نذكره في أخبارهم. ثم كانت لبني مرين الكرة الثالثة إلى بلد تلمسان ونهض السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن إليها فاتح سنة اثنتين وسبعين، وسرح عساكره في أتباع أبي حمو الناجم بها من آل يغمراسن حين فر أمامه في قومه وأشياعه من العرب كما يأتي ذلك كله. ولما انتهت العساكر إلى البطحاء تلوموا هنالك أياما لإزاحة عللهم. وكان في جملتهم صبي من ولد علي بن راشد الذبيح اسمه حمزة، ربي يتيما في حجر دولتهم لذمام الصهر الذي لقومه فيهم، فكفلته نعمتهم وكنفه جوهم، حتى شب واستوى وسخط رزقه في ديوانهم وحاله بين ولدانهم. واعترض بعض الأيام قائد الجيوش الوزير أبا بكر بن غازي شاكيا، فجبهه وأساء رده، فركب الليل، ولحق بمعقل بني بو سعيد من بلد شلف، فأجاروه ومنعوه، ونادى بدعوة قومه فأجابوه. وسرح إليهم السلطان عبد العزيز وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة كبير تيربيغين في جيش كثيف من بني مرين والجند، فنزل بساحة ذلك الجبل، فحاصرهم حولا كريتا ينال منهم وينالون منه وامتنعوا عليه وانهم السلطان وزيره بالمداهنة، وسعى به منافسوه، فتقبض عليه، وسرح وزيره الأخر أبا بكر بن غازي، فنهض يجر العساكر الضخمة والجيوش الكثيفة إلى أن نزل

بهم وصبجهم القتال، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم من معقلهم. وفر حمزة بن علي في فل من قومه، فلحق ببلاد خصين المنتقضين كانوا على الدولة مع أبي زيان بن أبي سعيد الناجم من آل يغمراسن حسبما نذكر. وأتى بنو أبي سعيد طاعتهم، وأخلصوا الضمائر في مغيبهم، وحسن موقعها. وبدا لحمزة في الرجوع إليهم، فأغذ السير في لمة من قومه، حتى إذا ألم بهم نكروه لمكان ما اعتقلوا به صت حبل الطاعة، فتسهل إلى البسائط وقصد تيمزوغت يظز بها غرة ينتهزها. وبرزت إليه حاميتها ففلوا حده وردوه على عقبه، وتسابقوا في أتباعه إلى أن تقبضوا عليه، وقادوه إلى الوزير ابن غازي بن الكاس.

فأوعز إليه السلطان بقتله في جملة أصحابه، فضرب أعناقهم، وبعث بها إلى سدة السلطان. وصلب أشلاءهم على خشب مسندة نصبها لهم ظاهر مليانة، وامحى أثر مغراوة، وانقرض أمرهم، وأصبحوا خولا للأمراء، وجندا في الدول، وأوزاعا في الأقطار كما كانوا قبل هذه الدولة الأخيرة لهم. والبقاء لله وحده، وكل شيء هالك إلا وجهه.

دولة بني عبد الواد

الخبر عن دولة بني عبد الواد من هذه الطبقة الثانية

وما كان لهم بتلمسان وبلاد المغرب الأوسط

من الملك والسلطان وكيف كان

مبدأ أمرهم ومصائر أحوالهم

قد تقدم لنا في أول هذه الطبقة الثانية من زناتة ذكر بني عبد الواد هؤلاء، وأنهم من ولد بادين بن محمد إخوة توجين ومصاب وزردال وبني راشد، وأن نسبهم يرتفع إلى زحيك بن واسين بن ورشيك بن جانا، وذكرنا كيف كانت حالهم قبل الملك في مواطنهم تلك. وكان إخوانهم بمصاب وجبل راشد وفيكيك وملوية، ووصفنا من حال فتنتهم مع بني مرين إخوانهم المجتمعين معهم بالنسب في زحيك بن واسين.

ولم يزل بنو عبد الواد هؤلاء بمواطنهم تلك، وكان إخوانهم بنو راشد وبنو زردال وبنو مصاب منجدين إليهم بالنسب والحلف، وبنو توجين منابذين لهم أكثر أزمانهم، ولم يزالوا جميعا متغلبين على ضاحية المغرب الأوسط عامة الأزمان، وكانوا تبعا فيه لبني ومانوا وبني يلومي حين كان لهم التغلب فيه. وربما يقال إن شيخهم لذلك العهد كان يعرف بيوسف بن تكفا، حتى إذا نزل عبد المؤمن والموحدون نواحي تلمسان، وسارت عساكرهم إلى بلاد زناتة تحت راية الشيخ أبي حفص، فأوقعوا بهم كما ذكرناه، حسنت بعد ذلك طاعة بني عبد الواد وانحياشهم إلى الموحدين، وكانت بطونهم وشعوبهم كثيرة أظهرها فيما يذكرون ستة: بنو ياتكين وبنو وللو وبنو ورصطف ومصموحة وبنو تومرت وبنو القاسم. ويقولون بلسانهم ايت القاسم، وايت حرف الإضافة النسبية عندهم. ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنهم من ولد القاسم بن إدريس. وربما قالوا في هذا القاسم أنه ابن محمد بن إدريس أو ابن محمد بن عبد الله أو ابن محمد بن القاسم، وكلهم من أعقاب إدريس، مزعماً لا مستند له إلا اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه، مع أن البادية بعداء عن معرفة مثل هذه الأنساب. والله أعلم بصحة ذلك.

وقد قال يغمراسن بن زيان أبو ملوكهم لهذا العهد لما رفع نسبهم إلى إدريس كما يذكرونه، فقال برطانتهم ما معناه: إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله. وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا. ولم تزل رياسة بني عبد الواد في بني القاسم لشدة شوكتهم، واعتزاز

عصبتهم، وكانوا بطونا كثيرة: فمنهم بنو يكنيمن بن القاسم. وكان منهم ويغرن بن مسعود بن يكنيمن وأخواه يكنيمن وعمر، وكان أيضا أعدوي بن يكنيمن الأكبر، ويقال الأصغر. ومنهم أيضا عبد الحق بن منغفاد من ولد ويغرن. وكانت الرياسة عليهم لعهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاد واعدوى بن يكنيمن. وعبد الحق بن منغفاد هو الذي استنفد الغنائم من يد بني مرين، وقتل المخضب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحدين لذلك. والمؤرخون يقولون عبد الحق بن معاد بميم وعين مهملة مفتوحتين وألف بعدها دال؟ وهو غلط، وليس هذا اللفظ بهذا الضبط من لغة زناتة، وإنما هو تصحيف منغفاد بميم ونون بعدها مفتوحتين، وغين بعدهما معجمة ساكنة وفاء مفتوحة، والله أعلم.

ومن بطون بني القاسم بنو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم. وكان حمامة بن مطهر من شيوخهم لعهد عبد المؤمن، وأبلى في حروب زناتة مع الموحدين، ثم حست طاعته وانحياشه ومن بطون بني القاسم أيضا بنو علي؛ وإليهم انتهت رياستهم، وهم أشدهم عصبية وأكثرهم جمعا، وهم أربعة أفخاذ: بنو طاع الله وبنو دلول وبنو كمي وبنو معطي بن جوهر، والأربعة بنو علي. ونصاب الرياسة في بني طاع الله لبني محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله. هذا ملخص الكلام في نسبهم.

ولما ملك الموحدون بلاد المغرب الأوسط وبلوا من طاعتهم وأنحياشهم ما كان سببا لاستخلاصهم؛ فأقطعوهم عامة بلاد بني يلومي وبني ومانوا، وأقاموا بتلك المواطن، وحدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمي إلى أن قتل كندوز سن بني كمي زيان بن ثابت كبير بني محمد بن زكدان وشيخهم. وقام بأمرهم بعده جابر ابن عمه يوسف بن محمد؟ فثار من كندوز بزيان ابن عمه، وقتله به في بعض أيامهم وحروبهم.

ويقال قتله غيلة، وبعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت، فنصبت عليها القدور أثافي شفاية لنفوسهم من شأن أبيه زيان.

وافترق بنو كفي، وفر بهم عبدالله ن كندوز كبيرهم، فلحقوا بتونس. ونزل على الأمير أبي زكرياء كما سنذكره بعد. واستبد جابر بن يوسف بن محمد برياسة بني عبد الواد. وأقام هذا الحي من بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط، حتى إذا فشل ريح بني عبد المؤمن، وانتزى يحيى بن غانية على جهات قابس وطرابلس، وردد الغزو والغارات على بسائط إفريقية والمغرب الأوسط فاكتسحها وعاث فيها، وكبس الأمصار فاقتحمها، وانتهب بلاد زناتة، وقتل أمراءهم ، ودخل تلمسان ووهران واستباحهما وغيرهما من بلاد المغرب الأوسط، وألح على تاهرت بالغارة وإفساد السابلة وانتهاب الزرع، وحطم النعم، إلى أن خربت وعفى رسمها لسني الثلاثين من المائة السابعة. وكانت تلمسان لذلك العهد نزلا للحامية ومناخا للسيد من القرابة الذي يضم نشرها، ويذب عن أنحائها. وكان المأمون استعمل على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد، وكان غفلا ضعيف التدبير. وغلب الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية، وكان عاملا على الوطن، وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن جرها ما كان حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها، فأغرى السيد أبا سعيد بجماعة مشيخة منهم وفدوا عليه، فتقبض عليهم واعتقلهم.

وكان في حامية تلمسان لمة من بقايا لمتونة تجافت الدولة عنهم، وأثبتهم عبد المؤمن في الديوان، وجعلهم مع الحامية. وكان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم بن إسماعيل بن علان، وشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد، فردوه فغضب وحمى أنفه، وأجمع الانتقاض والقيام بدعوة ابن غانية، فجدد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق، فاغتار الحسن بن حبون لحينه، وتقبض على السيد أبي سعيد، وأطلق المشيخة من بني عبد الواد، ونقض طاعة المأمون، وذلك سنة أربع وعشرين. فطير الخبر إلى ابن غانية فأغذ إليه السير. ثم بدا له في أمر بني عبد الواد، ورأى أن ملاك أمره في خضد شوكتهم وخفض جناحهم، فحدث نفسه بالفتك بمشيختهم، ومكر بهم في دعوة واعدهم لها. وفطن لتدبير ذلك جابر بن يوسف شيخ

بني عبد الواد، فواعده اللقاء والمؤازرة، وطوى له على النث، وخرج إبراهيم بن علان إلى لقائه، ففتك به جابر. وبادر إلى البلد فنادى بدعوة المأمون

وطاعته، وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم، وما أوقعهم فيه من ورطة ابن غانية، فحمدوا رأيه وشكروا جابراً على صنيعه، وجددوا البيعة للمأمون. واجتمع إلى جابر في أمره هذا كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد، وبعث إلى المأمون بطاعته واعتماله في القيام بدعوته، فخاطبه بالشكر، وكتب له العهد على تطمسان وسائر بلاد زناتة على رسم السادة الذين كانوا يلون ذلك من القرابة، فاضطلع بأمر المغرب الأوسط، وكانت هذه الولاية ركابا إلى صهوة الملك الذي اقتعدوه. ثم انتقض عليه أهل ندرومة بعد ذلك، فنازلهم، وهلك في حصارها بسهم غرب أثبته سنة تسع وعشرين.

وقام بالأمر من بعده ابنه الحسن، وجدد له المأمون عهده بالولاية، ثم ضعف عن الأمر وتخفى عنه لستة أشهر من ولايته. ودفع إليه عمه عثمان بن يوسف، وكان سيء الملكة كثير العسف والجور، فثارت به الرعايا بتلمسان وأخرجوه سنة إحدى وثلاثين، وارتضوا لمكانه ابن عمه زكران بن زيان بن ثابت الملقب بأبي عزة فاستدعوه لها، وولوه على أنفسهم وبلدهم، وسلموا له أمرهم. وكان مضطلعا بأمر زناتة مستبداً برياستهم ومستوليا على سائر الضواحي، فنفس أبو مطهر عليه وعلى قومه بني علي إخوانهم ما آتاهم الله من الملك، وأكرمهم به من السلطان. وجسدوا زكران وسلفه فيما صار لهم من الملك، فشاقوه ودعوا إلى الخروج عليه. واتبعهم بنو راشد بن محمد أحلافهم منذ عهد الصحراء، وجمع لهم أبو عزة سائر قبائل بني عبد الواد، فكانت بينه وبينهم حرب سجال هلك في بعض أيامها سنة ثلاث وثلاثين. وقام بالأمر من بعده أخوه يغمراسن بن زيان، فوقع التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار. وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله، وكان له ذلك سلما إلى الملك الذي أورثه بنيه سائر الأيام.

الخبر عن تلمسان وما تأدى إلينا من أحوالها من لدن الفتح إلى أن تأثل بها سلطان بني عبد الواد ودولتهم:

هذه المدينة قاعدة المغرب الأوسط، وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن بما كانت في مواطنهم، ولم نقف على أخبارها فيما قبل ذلك. وما يزعم بعض العوام من ساكنها أنها صفحة فراغ أزلية البناء، وإن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أكادير منها، فأمر بعيد ني التحصيل، لأن موسى عليه السلام لم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يتسع ملكهم لإفريقية فضلاً عما وراءها، وإنما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العالم في تفضيل ما ينسب إليهم أو ينسبون إليه من بلد أو أرض أو علم أو صناعة. ولم نقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأن أبا المهاجر الذي ولي إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية توغل في ديار المغرب، ووصل إلى تلمسان، وبه سميت عيون المهاجر قريبا منها. وذكرها الطبري عند ذكر أبي قرة اليفرني وأجلابه مع أبي حاتم والخوارج مع عمر بن حفص بطبنة. ثم قال فأفرجوا عنه، وانصرف أبو قرة إلى مواطنه بنواحي تلمسان. وذكرها ابن الرقيق أيضاً في أخبار إبراهيم بن الأغلب قبل استبداده بإفريقية، وأنه توغل في غزوه إلى المغرب ونزلها، واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين تلم سين ومعناهما تجمع من اثنين، يعنون إلى البر والبحر.

ولما خلص إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن إلى المغرب الأقصى واستولى عليه، نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن، وأمكنه من تلمسان فملكها، واختط مسجدها، وصنع منبره، وأقام بها أشهرا وانكفأ راجعا إلى المغرب. وجاء على أثره من المشرق أخوه سليمان بن عبد الله، فنزلها وولاه أمرها. ثم هلك إدريس، وضعف أمرهم. ولما بويع لابنه إدريس من بعده، واجتمع إليه برابرة

المغرب، نهض إلى تلمسان سنة تسع وتسعين ومائة، فجدد مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنين، ودوخ فيها بلاد زناتة، واستوسقت له طاعتهم. وعقد عليها لبني محمد ابن عفه سليمان. ولما هلك إدريس الأصغر، واقتسم بنوه أعمال المغربين بإشارة أمه كنزة، كانت تلمسان في سهمان عيسى بن إدريس ن محمد بن سليمان وأعمالها لبني أبيه محمد بن سليمان. فلما انقرضت دولة الأدارسة من المغرب، وولي أمره موسى بن أبي العافية بدعوة الشيعة، نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة، وغلب عليها أميرها لذلك العهد الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، ففرعنها إلى مليلة، وبنى حصناً لامتناعه بناحية نكور، فحاصره مدة، ثم عقد له سلما على حصنه.

ولما تغلب الشيعة على المغرب الأوسط أخرجوا أعقاب محمد بن سليمان من سائر أعمال تلمسان، فأخذوا بدعوة بني امية من وراء البحر وأجازوا إليهم. وتغلب يعلى بن محمد اليفرني على بلاد زناتة والمغرب الأوسط؟ فعقد له الناصر الأموي عليها وعلى تلمسان أعوام أربعين وثلاثماية. ولما هلك يعلى، وقام بأمر زناتة بعده محمد بن الخير بن محمد بن خزر داعية الحكم المستنصر، فملك تلمسان أعوام ستين. وهلك في حروب صنهاجة، وغلبوهم على بلادهم، وانجلى إلى المغرب الأقصى. ودخلت تلمسان في عمالة صنهاجة إذ انقسمت دولتهم، وافترق أمرهم. واستقل بإمارة زناتة وولاية المغرب زيري بن عطية؟ وطرده المنصور بن أبي عامر عن المغرب، فصار إلى بلاد صنهاجة، وأجلب عليها، ونازل معاقلها وأمصارها: مثل تلمسان ووهران وتنس وأشير والمسيلة. ثم عقد المظفر بعد حين لابنه المعز بن زيري على عمل المغرب سنة ست وتسعين، واستعمل على تلمسان ابنه يعلى بن زيري، واستقرت ولايتها في عقبه إلى أن انقرض أمرهم على يد لمتونة. وعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تينعمر المسوفي وأخيه تاشفين من بعده، واستحكمت الفتنة بينه وبين المنصور بن الناصر صاحب القلعة من ملوك بني حماد، ونهض إلى تلمسان وأخذ بمخنقها، وكان يغلب عليها كما ذكرنا ذلك كله في مواضعه.

ولما غلب عبد المؤمن لمتونة، وقتل تاشفين بن علي بوهران خربها وخرب تلمسان بعد أن قتل الموحدون عامة أهلها، وذلك أعوام أربعين من المائة السادسة. ثم راجع رأيه فيها، وندب الناس إلى عمرانها، وجمع الأيدي على رم ما تثلم من أسوارها وعقد عليها لسليمان بن وانودين من مشايخ هنتاتة وآخى بين الموحدين وبين هذا الحي من بني عبد الواد بما بلى من طاعتهم وانحياشهم. ثم عقد عليها لابنه السيد أبي حفص، ولم يزل آل عبد المؤمن من بعد ذلك يستعملون عليها من قرابتهم وأهل بيتهم، ويرجعون إليه أمر المغرب كله وزناتة أجمع، اهتماما بأمرها واستعظاما لعملها.

وكان هؤلاء الأحياء من زناتة بنو عبد الواد وبنو توجين وبنو راشد قد غلبوا على ضواحي تلمسان والمغرب الأوسط، وملكوها وتقلبوا في بسائطها، واحتازوا بأقطاع الدولة الكثير من أرضها والطيب من بلادها والوافر للجباية من قبائلها، فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول لاعتمار أرضهم وازدراع فدنهم وجباية الخراج من رعاياهم. وكان بنو عبد الواد من ذلك فيما بين البطحاء وملوية، ساحله وريفه وصحراءه. وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم إلى تحصينها وتشييد أسوارها، وحشد الناس إلى عمرانها، والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور. وكان من أعظمهم اهتماما بذلك وأوسعهم فيه نظرا السيد أبو عمران موسى ابن أمير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين على عهد أبيه يوسف بن عبد المؤمن. واتصلت أيام ولايته فيها، فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها. ووليها من بعد السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن، وتقبل فيها مذهبه. ولما كان من أمر بني غانية وخروجهم من ميورقة سنة إحدى وثمانين ما قدمناه وكبسوا بجاية فملكوها، وتخطوا إلى الجزائر ومليانة فغلبوا عليهما، تلافى السيد أبو الحسن أمره بإمعان النظر في تشييد أسوارها والاستبلاغ في تحصينها، وسد فروجها، وأعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها أمنع معاقل المغرب، وأحسن أمصاره. وتقبل ولاتها بهذا المذهب من بعده في المعتصم بها. واتفق من الغرائب أن أخاه

السيد أبا زيد هو الذي دفع لحرب بني غانية، فكان لهما في رقع الخرق والمدافعة عن الدولة آثار. وكان ابن غانية قد اجتمع إليه ذؤبان العرب من الهلاليين بإفريقية، وخالفهم زغبة إحدى بطونهم إلى الموحدين، وتحيزوا إلى زناتة المغرب الأوسط، وكان مفزعهم جميعا ومرجع نقضهم وإبرامهم إلى العامل بتلمسان من السادة في مثواهم وحامي حقيقتهم. وكان ابن غانية كثيرا ما يجلب على ضواحي تلمسان وبلاد زناتة ويطرقها بمن معه من ناعق الفتنة إلى أن خرب الكثير من أمصارها مثل تاهرت وغيرها فأصبحت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وأم هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب، والكافلة لهم المهيئة في حجرها مهاد نومتهم بما خربت المدينتان اللتان كانتا من قبل قواعد الدول السالفة والعصور الماضية وهما: أرشكول بسيف البحر، وتاهرت فيما بين الريف والصحراء قبلة البطحاء. وكان خراب هاتين المدينتين فيما خرب من أمصار المغرب الأوسط في فتنة ابن غانية، وبأجلاب هؤلاء الأحياء من زناتة وطلوعهم على أهلها بسوم الخسف والعيث والنهب، وتخطف الناس من السابلة وتخريب العمران، ومغالبتهم حاميتها من عساكر الموحدين: مثل قصر عجيسة وزرقة والخضراء وشلف ومتيجة وحمزة ومرسى الدجاج والجعبات والقلعة، فلم تبصر بها نار ولا لفحت بها لنافخ ضرمة، ولا صرخت لها أخر الدهر ديكة. ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخطتها تتسع، والصروح بها بالاجر والقرميد تعالى وتشاد؛ إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب. ورحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام. وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن استقلال يغمراسن بن زيان بالملك والدولة بتلمسان وما إليها وكيف مهد الأمر لقومه و أصاره تراثا لبنيه:

كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأسا، وأعظمهم في

النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلا على حماى الملك واضطلاعا بالتدبير والرياسة، مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده. وكان مرموقا بعين التجلة مؤملاً للأمر عند المشيخة. وتعظمة من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبه العامة. فلما ولي هذا الأمر بعد مهلك أخيه أبي عزة زكدان بن زيان سنة ثلاث وثلاثين، فقام به أحسن قيام، واضطلع بأعبائه، وظهر على بني مطهر وبني راشد الخارجين على أخيه، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه. وأحسن السيرة في الرعية، واستمال عشيره وقبيله وأحلافهم من زغبة بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الروم والغز رامحة وناشبة. وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب، وبعث في الجهات العمال، ولبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيسا للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه. ووفد عليه لأول دولته ابن وضاح إثر دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الأندلس، فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله، وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له. ووفد في جملته أبو بكر بن الخطاب المبايع لأخيه بمرسية، وكان مرسلا بليغا، وكاتبا مجيدا، وشاعرا محسناً، فاستكتبه وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ. ولم يزل يغمراسن محاميا عن غيله محاربا لعدوه. وكانت له مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلهم من آل أبي حفص مواطن في التمرس به ومنازلة بلده، نحن ذاكروه كذلك. وبينه وبين أقتاله بني مرين قبل ملكهم المغرب وبعد ملكه وقائع متعددة. وله على زناتة الشرق من توجين ومغراوة في فل جموعهم، وانتساف بلادهم وتخريب أوطانهم أيام مذكورة وآثار معروفة، نشير إلى جميعها إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكرياء علي تلمسان ودخول يغمراسن في دعوته:

ولما استقل يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان والمغرب الأوسط، وظفر بالسلطان، وعلا

كعبه على سائر أحياء زناتة، قسوا عليه ما آتاه الله من العز، وكرمه به من الملك، فنابذوه العهد وشاقوه الطاعة، وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة، فشمر لحربهم ونازلهم في ديارهم، وأحجرهم في حصونهم ومعتصماتهم من شواهق الجبال وممتنع الأمصار. وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع مذكورة معروفة، وكان متولي كبر هذه المشاقة عبد القوي بن العباس شيخ بني توجين أقتالهم من بني بادين، والعباس بن منديل بن عبد الرحمن وإخوته أمراء مغراوة. وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص منذ استقل بأمر إفريقية، واقتطعها عن الإيالة المؤمنية سنة خمس وعشرين كما ذكرناه، متطاولا إلى احتياز المغرب والاستيلاء على كرسي الدعوة بمراكش، وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتئم ما يسمو إليه من ذلك، فكان يداخل امراء زناتة، فيرغبهم ويراسلهم بذلك على الأحياء من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين ومغراوة. وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن، أقام دوعوتهم بعمله متحيزا إليهم سلما لوليهم وحربا على عدوهم. وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده الإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا عام سبعة وثلاثين تقمنا لمسراته، وميلا إليه عن جانب أقتاله بني مرين المجلبين على المغرب والدولة. واحفظ الأمير أبا زكرياء يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ما كان من اتصال يغمراسن بالرشيد، وهو من جواره بالمحل القريب، واستكره ذلك. وبينما هو على ذلك إذ وفد عليه عبد القوي بن العباس، وولد منديل بن محمد صريخا على يغمراسن، فسهلوا له أمره وسولوا له الاستيلاء على تلمسان، وجمع كلمة زناتة، واعتداد ذلك ركابا لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين وانتظامه في أمره، وسلما لارتقاء ما يسمو إليه من ملكه، وبابا للولوج على أهله، فحركه أملاؤهم وهزه إلى النعرة صريخهم، وأهاب بالموحدين وسائر الأولياء والعساكر إلى الحركة على تلمسان، واستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في عمله من بني سليم ورياح بظعنهم فأهطعوا لداعيه، ونهض سنة تسع وثلاثين في عساكر ضخمة وجيوش وافرة، وسرح إمام حركته عبد القوي بن العباس وأولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة وأتباعهم وذؤبان

قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم من العرب، وضرب لهم موعدا لموافاتهم في تخوم بلادهم. ولما نزل زاغر قبلة تيطرى منتهى مجالات رياح وبني سليم في المغرب، وافته هنالك أحياء زغبة

من بني عامر وص يد، وارتحلوا معه حتى نازل تلمسان، فجمع عساكر الموحدين وحشد زناتة وظعن المغرب، بعد أن قدم إلى يغمراسن الرسل من مليانة والأعذار والبراءة والدعاء إلى الطاعة، فرجعهم بالخيبة.

ولما حلت العساكر الموحدين بساحة البلد، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء نضحتهم ناشبة السلطان بالنبل، فانكشفوا ولاذوا بالجدران، وأعجزوا من حماية الأسوار، فاستمكنت المقاتلة من الصعود. ورأى يغمراسن أن قد احيط بالبلد، فقصد باب العقبة من أبواب تلمسان ملتفا على ذويه وخاصته، واعترضته عساكر الموحدين، فصمم نحوهم وجندل بعض أبطالهم، فأفرجوا له ولحق بالصحراء. وانسلت الجيوش إلى البلد من كل حدب، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال. ولما تجفى غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب راجع الموحدون بصائرهم، وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها لإقامة دعوته الدائلة من دعوة عبد المؤمن والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه، وتبرأ أمراء زناتة منه ضعفا عن مقاومة يغمراسن ، وعلما بأنه الفحل الذي لا بقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته. وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر، فاختطفوا الناس من حوله، وأطلوا من المراقب عليه. وخاطب يغمراسن خلال ذلك الأمير أبا زكرياء رغبا في القيام بدعوته بتلمسان، فراجعه بالإسعاف واتصال اليد على صاحب مراكش، وسوغه على ذلك جباية اقتطعها له، وأطلق أيدي العمال ليغمراسن لجبايتها. ووفدت أمه سوط النساء لاشتراط القبول، فأكرم موصلها وأسنى جائزتها وأحسن وفادتها ومنقلبها، وارتحل إلى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله. وفي أثناء طريقه وسوس إليه بعض الحاشية باستبداد يغمراسن عليه، وأشاروا بإقامة منافسيه من زناتة وامراء المغرب الأوسط شجا في صدره ومعترضا عن مرامه، وإلباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيه فأجابهم. وقلد عبد القوي بن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوقي وعلي بن منصور المليكشي من قومهم ووطنهم، وعهد إليهم بذلك، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوها بحضرته وبمشهد من ملوك

الموحدين، وأقاموا مراسمها ببابه، وأغذ السير إلى تونس قرير العين بامتداد ملكه،

وبلوغ وطره، والإشراف على إذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وإدالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته. ودخل يغمراسن بن زيان ووفى للأمير أبي زكرياء بعهده، وأقام له الدعوة على سائر منابره، وصرف إلى مشانيه من زناتة وجو عزائمه، فأذاق عبد القوي بن العباس وأولاد منديل نكال الحرب، وسامهم سوء العذاب والفتنة، وجاس خلال ديارهم وتوغل في بلادهم، وغلبهم على الكثير من ممالكهم، وشرد من الأمصار والقواعد ولاتهم وأشياعهم ودعاتهم، ورفع عن الرعية ما نالهم من عدوانهم وسوء ملكتهم وثقل عسفهم وجورهم. ولم يزل على تلك الحال إلى أن كان من حركة صاحب مراكش بسبب أخذ يغمراسن بالدعوة الحفصية ما نذكره إن شاء الله تعالى

الخبر عن نهوض السعيد صاحب مراكش ومنازلته يغمراسن بجبل تامززدكت ومهلكه هنالك:

لما انقضت دولة بني عبد المؤمن، وانتزى الثوار والدعاة بقاصية أعمالهم وقطعوها عن ممالكهم، فاقتطع ابن هود ما وراء البحر من جزيرة الأندلس واسبتد بها، ووري بالدعاء للمستنصر بن الظاهر خليفة بغداد من العباسيين لعهده، ودعا الأمير أبو زكريا بى أبي حفص بإفريقية لنفسه وسما إنى جمع كلمة زناتة، والتغلب على كرسي الدعوة بمراكش، فنازل تلمسان وغلب عليها سنة أربعين. وقارن ذلك ولاية السعيد علي المأمون إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان شهما حازماً يقظاً بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته، وفاوض الملأ في تثقيف أطرافها وتقويم مائلها. وأثار حفائظهم ما وقع من بني مرين في ضواحي المغرب، ثم في أمصاوه واستيلائهم على مكناسة، وإقامتهم الدعوة الحفصية فيها كما نذكره. فجهز العساكر وأزاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وقبائله، واحتشد كافة المصامدة. ونهض من مراكش اخر سنة خمس وأربعين يريد القاصية، ويشرد بني مرين عن الأمصار الدانية. واعترض العساكر والحشود بوادي بهت،

وأغد السير إلى تازي، فوصلته هنالك طاعة بني مرين كما نذكره. ونفر معه عسكر منهم، ونهض إلى تلمسان وما وراءها. ونجا يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد بأهليهم وأولادهم إلى قلعة لامز زدكت قبلة وجدة، فاعتصموا بها.

ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغمراسن مؤديا للطاعة ثابتا في مذاهب الخدمة، ومتوليا من حاجات الخليفة بتلمسان لما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعذرا عن وصول يغمراسن، فلج الخليفة في شأنه ولم يعذره. وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه، وساعده في ذلك كانون بن جرمون السفياني صاحب الشورى بمجلسه ومن حضر من الجلة. ورجعوا عبدونا لاستقدامه، فتثاقل خشية على نفسه. واعتمد السعيد الجبل في عساكره وأناخ بها في ساحه وأخذ بمخنقهم ثلاثا، ولرابعتها ركب مهجرا على حين غفلة من الناس في قايلتهم ليتطوف على المعتصم، ويتقرى مكانه. وبصر به فارس من القوم بعرف بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان، كان أسفل الجبل للاحتراس، وقريبا منه يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر، فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه. وقتل يعقوب بن جابر وزيره يحيى بن عطوش. ثم استلحموا لوقتهم مولييه ناصحا من المعلوجي وعنبرا من الخصيان، وقائد جند النصارى أخو القمط، ووليدا يافعا من ولد السعيد.

ويقال إنما كان يوم عبا العساكر وصعد الجبل للقتال، وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه، فتواثب به هؤلاء الفرسان وكان ما ذكرناه، وذلك لصفر من سنة ست وأربعين. ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأجفلوا، وبادر يغمراسن إلى السعيد، وهو صريع بالأرض، فنزل إليه وحياه وفداه؛ وأقسم له على البراءة من هلكته، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فافر، وانتهب المعسكر بجملته، وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والفازات. واختص يغمراسن بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه: منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، يزعمون أنه أحد المصاحف التي انتسخت لعهد خلافته، وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد

الرحمن الداخل، حتى صار في ذخائر لمتونة فيما صار إليهم من ذخائر ملوك الطوائف بالأندلس، ثم إلى ذخائر الموحدين من خزائن لمتونة، وهو لهذا العهد في خزائن بني مرين بفاس فيما استولوا عليه من ذخيرة آل زيان حين غلبهم إياهم على تلمسان، واقتحامها عنوة على ملكها منهم عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن، فريسة السلطان أبي الحسن، مقتحمها غلابا سنة سبع وثلاثين كما نذكره. ومنها العقد المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر، المشتمل على مئين متعددة من حصبائه يسمى بالثعبان، وصار في خزائن بني مرين منذ ذلك الغلاب فيما اشتملوا عليه من ذخيرتهم، إلى أن تلف في البحر عند غرت الأسطول بالسلطان أبي الحسن بمراسي بجاية مرجعه من تونس حسبما نذكره بعد، إلى ذخائر من أمثاله وطرف من أشباهه بما يستخلص الملوك لخزائنهم ويعنون به من ذخائرهم. ولما سكنت النغرة وركد عاصف تلك الهيمة نظر يغمراسن في شأن مواراة الخليفة، فجهز ورفع علي الأعواد إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه. ثم نظر في شأن حرمه واخته تاعزونت الشهيرة الذكر، بعد أن جاءها واعتذر إليها مما وقع، وأصحبهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهم ألحقوهن بدرعة عند تخوم طاعتهم، فكان له بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم، ورعي مراتب أ الملك. ورجع إلى تلمسان، وقد خضدت شوكة بني عبد المؤمن وأمنهم على سلطانه. والبقاء لله وحده.

الخبر عفا كان بينه وبين بني مرين من الأحداث سائر أيامه:

قد ذكرنا ما كان من هذين الحيين من المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة، بما كانت مجالات الفريقين بالصحراء متجاورة، وكان التخم بين الفريقين من وادي صا إلى فيكيك. وكان بنو عبد المؤمن عند فشل الدولة وتغلب بني مرين على ضاحية المغرب يستجيشون ببني عبد الواد مع عساكر الموحدين على بني مرين فيجوسون خلال المغرب ما بين تازى إلى فاس إلى القصر في سبيل المظاهرة للموحدين والطاعة لهم. وسنذكر في أخبار بني مرين كثيرا من ذلك. فلما هلك السعيد وأسف بنو مرين إلى ملك المغرب،

سما ليغمراسن أمل في مزاحمتهم. وكان أهل فاس بعد تغلب أبي يحيى بن عبد الحق عليهم قد نقموا على قومه سوء السيرة، وتمشت رجالاتهم في اللياذ بطاعة الخليفة المرتضى، ففعلوا فعلتهم في الفتك بعامل أبي يحيى بن عبد الحق، والرجوع إلى طاعة الخليفة. وأغذ أبو يحيى السير إلى منازلهم، فحاصرهم شهورا. وفي أثناء هذا الحصار اتصلت المخاطبة بين الخليفة المرتضى ويغمراسن بن زيان في الأخذ بحجرة أبي يحيى بن عبد الحق عن فاعر، فأجاب يغمراسن داعيه، واستنفر لها إخوانه من زناتة فنفر معه عبد القوي بن عطية بقومه من بني توجين وكافة القبائل من زناتة والمغرب، ونهضوا جميعا إلى المغرب. وبلغ خبرهم إلى أبي يحيى بن عبد الحق بمكانه من حصار فاس، فجمر كتائبه عليها، ونهض للقائهم في بقية العساكر، والتقى الجمعان بايسلى من ناحية وجدة. وكانت هنالك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشفت فيها جموع يغمراسن، وهلك منهم يغمراسن بن تاشفين وغيره، ورجعوا في ففهم إلى تلمسان. واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب والفتنات سائر أيامه، وربما تخللتها المهادنات قليلا.

وكان بينه وبين يعقوب بن عبد الحق ذمة مواصلة أوجب له رعيها، وكثيرا ما كان يثني عنه أخاه أبا يحيى من أجلها. ونهض أبو يحيى بن عبد الحق سنة خمس وخمسين إلى قتاله، وبرز إليه يغمراسن، وتزاحفت جموعهم بأبي سليط؛ فانهزم يغمراسن واعتزم أبو يحيى على أتباعه، فثناه عن ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق.

ولما قفل إلى المغرب، صمد يغمراسن إلى سجلماسة، لمداخلة كانت بينه وبين المنبات من عرب المعتل، أهل مجالاتها وذئاب فلاتها، حدثته نفسه اهتبال الغرة في سجلماسة من أجلها، وكانت قد صارت إلى إيالة أبي يحيى بن عبد الحق منذ ثلاث كما ذكرناه في أخبارهم. ونذر بذلك أبو يحمى، فسابق إليها يغمراسن بمن حضره من قومه فثقفها وسد فرجها. ووصل يغمراسن عقب ذلك بعساكره، وأنا بها وامتنعت عليه، فأفرج عنها قافلا إلى تلمسان. وهلك أبو يحمى بن عبد الحق إثر ذلك منقلبه إلى فاس، فاستنفر يغمراسن أولياءه من زناتة وأحياء زغبة. ونهض إلى المغرب سنة سبع وخمسين، وانتهى إلى كلدامان. ولقيه يعقوب بن عبد الحق في قومه فأوقع

به، وولى يغمراسن منهزما. ومر بطريقه بتافرسيت فانتسفها وعاث في نواحيها. ثم تداعوا للسلم ووضع أوزار الحرب، وبعث يعقوب بن عبد الحق ابنه أبا مالك لذلك فتولى عقده وإبرامه. ثم كان التقاؤهما سنة تسع وخمسين وستمائة

بواجر قبالة بني يزناسن، واستحكم عقد الوفاق بينهما بعد ذلك، واتصلت المهادنة إلى أن كان بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن كائنة النصاري وإيقاع يغمراسن بهم:

كان يغمراسن من بعد مهلك السعيد وانفضاض عساكر الموحدين قد استخدم طائفة من جند النصارى الذين كانوا في جملته، مستكثرا بهم معتدا بمكانهم ومباهيا بهم في المواقف والمشاهد. وناولهم طرفا من حبل عنايته، واعتزوا به واستفحل أمرهم بتلمسان، حتى إذا كانت سنة اثنتين وخمسين بعد مرجعه من بلاد توجين في إحدى حركاته إليها، كانت قصة غدرهم الشنعاء التي أحسن الله في دفاعها عن المسلمين. وذلك أنه ركب في بعض أيامه لاعتراض الجنود بباب المغرمادين من أبواب تلمسان. وبينما هو واقف في موكبه عند قايلة الضحى عدا عليه قائدهم، وبادر النصارى إلى محمد بن زيان اخي يغمراسن فقتلوه وأشار له بالنجوى، فبرز من الصف لإسراره وأمكنه من اذنه، فتنكبه النصراني وقد خالطه روعة أحس منها يغمراسن بمكره فانحاص منه. وركض النصراني أمامه يطلب النجاة. وتبين الغدر، وثارت بهم الدهماء من الحامية والرعايا، فأحيط بهم من كل جانب، وتناولتهم أيدي الهلاك في كل مهلك قعصاً بالرماح وهبرا بالسيوف وشدخا بالعصي والحجارة حتى استلحموا، وكان يوما مشهودا. ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان حذرا من غائلتهم. ويقال إن محمد بن زيان هو الذي داخل القائد في الفتك بأخيه يغمراسن، وأنه إنما قتله عندما لم يتم لهم الأمر تبريا من مداخلته، فلم يمهله غاشي الهيعة للتثبت في شأنها. والله أعلم.

الخبر عن تغلب يغمراسن علي سجلماسة ثم مصيرها بعد إلي أيالة بني مرين:

كان عرب المعقل منذ دخول عرب الهلاليين إلى الصحراء المغرب الأقصى أحلافا وشيعا لزناتة، وأكثر انحياشهم إلى بني مرين إلا ذوي عبيد الله منهم بما كانت مجالاتهم لصق مجالات بني عبد الواد أو مشاركة لها. ولما استفحل شأن بني عبد الواد بين أيدي ملكهم زاحموهم عنها بالمناكب، ونبذوا إليهم العهد واستخلصوا دونهم المنبات من ذوي منصور أقتالهم فكانوا حلفاء وشيعة ليغمراسن ولقومه. وكان سجلماسة في مجالاتهم ومنقلب رحلتهم، وكانت قد صارت إلى ملك بني مرين ثم استبد بها القطراني؛ ثم ثاروا به ورجعوا إلى طاعة المرتضى. وتولى كبر ذلك علي بن عمر كما ذكرناه في أخبار بني مرين. ثم تغلب المنبات على سجلماسة، وقتلوا عاملها علي بن عمر سنة اثنتين وستين، وآثروا يغمراسن بملكها، وداخلوا أهل البلد في القيام بدعوته وحملوهم عليها. وجأجأوا بيغمراسن، فنهض إليها في قومه، وأمكنوه من قيادها فضبطها، وعقد عليها لولده يحيى. وأنزل معه ابن اخته حنينة، واسمه عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع من ولد محمد، وأنزل معهما يغمراسن بن حمامة فيمن معهم من عشائرهم وحشمهم. فأقام ابنه يحيى أميراً عليها إلى أن هلك، فأدال منه بعبد الملك ابن اخته، فلم يزل والياً عليها إلى أن غلب يعقوب بن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم. وأطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب، فوجه عزمه إلى انتزاع سجلماسة من طاعة يغمراسن. وحف إليها في العساكر والحشود من زناتة والعرب والبربر، ونصبوا عليها آلات الحصار، إلى أن سقط جانب من سورها، فاقتحموها منه عنوة في صفر سنة ثلاث وسبعين واستباحوها، وقتل القائدان عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة ومن معهم من بني عبد الواد وامراء المنبات، وصارت إلى طاعة بني مرين آخر الأيام. والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

الخبر عن حروب يغمراسن مع يعقوب بن عبد الحق:

قد ذكرنا ما كان من شأن بني عبد المؤمن عند فشل دولتهم، واستطالة بني مرين عليهم في الاستظهار ببني عبد الواد واتصال اليد بهم في الأخذ بحجرة عدوهم من بني مرين عنهم. ولما هلك المرتضى وولي أبو دبوس سنة خمس وستين، وحمي وطيس فتنته مع يعقوب بن عبد الحق، فراسل يغمراسن في مدافعته، وأكد العهد وأسنى الهدية، فأجابه إليها يغمراسن، وشن الغارات على ثغور المغرب وأضرمها نارا. وكان يعقوب بن عبد الحق محاصرا لمراكش فأفرج عنها ورجع إلى المغرب، واحتشد جموعه، ونهض إلى لقائه. وتزاحف الفريقان بوادي تلاغ، وقد استكمل كل تعبيته، وكانت الوقيعة على يغمراسن استبيحت فيها حرمه واستلحم قومه، وهلك ابنه عمر أبو حفص أعز ولده عليه ي أتراب له من عشيره: مثل ابن عبد الملك بن حنينة، وابن يحيى بن مكن، وعمر بن إبراهيم بن هشام، فرجع عنه يعقوب بن عبد الحق إلى مراكش حتى انقضى شأنه في التغلب عليها، ومحا أثر بني عبد المؤمن منها، وفرغ لمحاربة بني عبد الواد. وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل. ونهض إلى بني عبد الواد سنة سبعين، فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائهم من مغراوة والعرب، وتزاحفوا بايسلي من نواحي وجدة، فكانت الدبرة على يغمراسن. وانكشفت جموعه، وقتل ابنه فارس، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره نارا تفاديا من معرة اكتساحه. ونجا إلى تلمسان فانحجر بها، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة، ثم نازله بتلمسان، واجتمع إليه هنالك بنو توجين مع أميرهم محمد بن عبد القوي، وصل يده بيد السلطان على يغمراسن وقومه، وحاصروا تلمسان أياما فامتنعت عليهم، وأفرجوا عنها. وولى كل إلى عمله ومكان ملكه، حسبما نذكره في أخبارهم. وانعقدت بينهما المهادنة من بعد ذلك، وفرغ يعقوب بن عبد الحق للجهاد، ويغمراسن لمغالبة توجين ومغراوة على بلادهم إلى أن ى ن من شأنهم ما نذكره.

الخبر عن شأن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وما كان بينهم من الأحداث:

كانت أحياء من مغراوة في مواطنهم الأولى من نواحي شلف قد سالمتهم الدول

عند تلاشي ملكهم، وساموهم الجباية فرضوا بها: مثل بنيئ ورسيفين وبني يليت وبني ورتزمير. وكان فيهم سلطان لبني منديل بق عبد الرحمن من أعقاب آل خزر ملوكهم الأولى، ومنذ عهد الفتح وما بعده على ما ذكرناه في خبرهم. فلما انتثر عقد الخلافة بمراكش، وتشظت عصاها، وكثر الثوار والخوارج بالجهات، واستقل منديل بن عبد الرحمن،ينوه من بعده بتلك الناحية، وملكوا مليانة وتنس وبرشك وشرشال وما إليها، وتطاولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها. ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشريش وما إليه، فتناولوا الكثير من بلاده، ثم أزاحهم عنها بنو عطية وقومهم من بني توجين المجاورون لها في مواطنهم بأعلى شلف شرقي أرض السرسو، وكان ذلك لأول دخول أحياء زناتة الناجعة بأرض القبلة إلى التلول، فتغلب بنو عبد الواد على نواحي تلمسان إلى وادي صا. وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلد المدية، إلى جبل وانشريش، إلى مرات، إلى الجعبات. وصار التخم لملك بني عبد الواد سيك والبطحاء: فمن قبليها لمواطن بني توجين، ومن شرقها مواطن مغراوة. وكانت الفتنة بين بني عبد الواد وبين هذين الحيين منذ أول دخولهم إلى التلول، وكان المولى الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص يستظهر بهذين الحيين على بني عبد الواد ويراغمهم بهم، حتى كان من فتح تلمسان ما قدمناه، وألبس جميعهم شارة الملك على ما ذكرناه ونذكره في أخبارهم، فزاحموا يغمراسن بعدها بالمناكب وصرف هو إليهم وجه النقمات والحروب.

ولم يزل الشأن ذلك حتى انقرض ملك الحيين لعهد ابنه عثمان بن يغمراسن وعلى يده، ثم على يد بني مرين كما يأتي ذكره. ولما رجع يغمراسن بن زيان من لقاة بني مرين بايسلي من نواحي وجدة التي كانت سنة سبع وأربعين، وكان معه فيها عبد القوي بن عطية بقومه من بني

توجين، وهلك مرجعه منها، فنبذ يغمراسن العهد إلى ابنه محمد الأمير بعده، وزحف إلى بلاده فجاس خلالها، ونازل حصونها فامتنعت عليه. وأحسن محمد بن عبد القوي في دفاعه، ثم زحف ثانية سنة خمسين إليهم، فنازل حصن تافركينت من حصونهم. وكان به على بني زيان حافد محمد بن عبد القوي، فامتنع به في طائفة من لومه. ورحل عنه يغمراسن كظيما، ولم يزل يغمراسن بعدها يشن الغارة على بلادهم ويجمر الكتائب على حصونهم. وكان بتافركنيت صنيعه من صنائع بني عبد القوي، ونسبه في صنهاجة أهل ضاحية بجاية، اختص بهذا الحصن ورسخت قدمه فيه، واعتز بكثرة ماله وولده فأحسن الدفاع عنه، وكان له مع يغمراسن في الامتناع عليه أخبار مذكورة، حتى سطا به بنو محمد بن عبد القوي حين شرهوا إلى نعمته، وأنفوا من استبداده فأتلفوا نفسه وتخطفوا نعمته، فكان حتف ذلك الحصن في حتفه حما يأتي ذكره. وعندما شبت نار الفتنة بين يغمراسن وبين محمد بن عبد القوي، وصل محمد يده بيعقوب بن عبد الحق. فلما نازل يعقوب تلمسان سنة سبعة بعد أن هدم وجدة، وهزم يغمراسن بايسلي، جاءه محمد بن عبد القوي بقومه من بني توجين، وأقام معه على حصارها. ورحلوا بعد الامتناع عليهم، فرجع محمد إلى مكانه، ثم عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان سنة ثمانين وستماية بعد إيقاعه بيغمراسن في خرزوزة، فلقيه محمد بن عبد القوي بالقصبات. واتصلت أيديهم على تخريب بلاد يغمراسن مليا، فنازلوا تلمسان أياما، ثم افترقوا ورجع كل إلى بلده.

ولما خلص يغمراسن بن زيان من حصاره زحف إلى بلادهم، وأوطأ عساكره أرضهم، وغلب على الضاحية، وخرب عمرانها إلى أن تملكها بعده ابنه عثمان كما نذكر. وأما خبره مع مغراوة فكان عماد رأيه فيهم التضريب بين بني منديل بن عبد الرحمن للمنافسة التي كانت بينهم في رياسة قومهم. ولما رجع من واقعة تلاغ سنة ست وستين، وهي الواقعة التي هلك فيها ولده عمر زحف بعدها إلى بلاد مغراوة فتوغل فيها وتجاوزها إلى من وراءهم من مليكش والثعالبة، وأمكنه عمر

من مليانة سنة ثمان وستين على شرط المؤازرة والمظاهرة على إخوته، فملكها يغمراسن يومئذ وصار الكثير من مغراوة إلى ولايته، وزحفوا إلى المغرب سنة سبعين. ثم زحف بعدها إلى بلادهم سنة اثنتين وسبعين، فتجافى له ثابت بن منديل عن تنس بعد أن أثخن في بلادهم ورجع عنها، فاسترجعها ثابت. ثم نزل له عنها ثانيا سنة إحدى وثمانين بين يدي مهلكه عندما تم له الغلب عليهم والإثخان في بلادهم، إلى أن كان الاستيلاء عليها لابنه عثمان على ما نذكره.

الخبر عن انتزاء الزعيم ابن مكن ببلد مستغانم:

كان بنومكن هؤلاء من عالية القرابة من بني زيان يشاركونهم في نسب محمد بن زكدان بن تيدوكسن بن طاع الله، وكان لمحمد هذا أربعة من الولد كبيرهم يوسف: ومن ولده جابر بن يوسف أول ملوكهم، وثابت بن محمد. ومن ولده زيان بن ثابت أبو الملوك من بني عبد الواد، ودرع بن محمد. ومن ولده عبد الملك بن محمد بن علي بن قاسم بن درع المشتهر بأمه حنينة أخت يغمراسن بن زيان ومكن بن محمد. وكان له من الولد يحيى وعمرش؛ وكان من ولد يحيى الزعيم وعلي؛ وكان يغمراسن بن زيان كثيرا ما يستعمل قرابته في الممالك ويوليهم على العمالات؛ وكان قد استوحش من يحيى بن مكن وابنه الزعيم وغربهما إلى الأندلس بم فأجاز من هنالك إلى يعقوب بن عبد الحق سنة ثمانين ولقياه بطنجة في إحدى حركات جهاده. وزحف يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان عامئذ وهما في جملته، فأدركتهما النعرة على لومهما وآثرا مفارقة السلطان إليهم؛ فأذن لهما في الانطلاق ولحقا بيغمراسن بن زيان. حتى إذا كانت الواقعة عليه بخرزوزة سنة ثمانين كما قدمناه، وزحف بعدها إلى بلاد مغراوة، وتجافى له ثابت بن منديل عن مليانة، وانكفأ راجعا إلى تلمسان، استعمل على ثغر مستغانم الزعيم بن يحيى بن مكن. فلما

وصل إلى تلمسان انتقض عليه، ودعا إلى الخلات، ومالأ عدوه من مغراوة على المظاهرة عليه، فصمد إليه يغمراسن وأحجره بها حتى لاذ منه بالسلم على الإجازة، فعقد له وأجازه. ثم أثره أباه يحيى، واستقر بالأندلس إلى أن هلك يحيى سنة اثنتين وتسعين. ووفد الزعيم بعد ذلك على يوسف بن يعقوب وسخطه لبعض النزعات؟ فاعتقله وفر من محبسه. ولم يزل الاغتراب مطوحا به إلى أن هلك. والبقاء لله.

ونشأ ابنه الناصر بالأندلس، فكانت مثواه وموقف جهاده إلى أن هلك. وأما أخوه علي بن يحيى فأقام بتلمسان، وكان من ولده داود بن علي كبير مشيخة بني عبد الواد وصاحب شوراهم. وكان منهم أيضا إبراهيم بن علي، عقد له أبو حمو الأوسط على ابنته فكان منها ولد ذكر، وكان لداود ابنه يحيى بن داود استعمله أبو سعيد بن عبد الرحمن في دولتهم الثانية على وزارته، فكان من شأنه ما نذكره في أخبارهم. والأمر لله.

الخبر عن شأن يغمراسن في معاقدته مع ابن الأحمر والطاغية علي فتنة يعقوب بن عبد الحق والأخذ بحجرته:

كان يعقوب بن عبد الحق لما أجاز إلى الجهاد، وأوقع بالعدو، وخرب حصونهم، نازل إشبيلية وقرطبة، وزلزل قواعد كفرهم. ثم أجاز ثانية، وتوغل في دار الحرب وأثخن فيها. وتخلى له ابن أشقيلولة عن مالقة فملكها. وكان سلطان الأندلس يومئذ الأمير محمد المدعو بالفقيه، ثاني ملوك بني الأحمر، هو الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق للجهاد بما عهد له أبوه الشيخ بذلك. فلما استفحل أمر يعقوب بالأندلس، وتعاقب الثوار إلى اللياذ به خشيه ابن الأحمر على نفسه، وتوقع منه مثل فعلة يوسف بن تاشفين بابن عباد، فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم. وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه وكانت مالقة لعمر يحيى بن محلى؛ استعمله عليها يعقوب بن عبد الحق حين ملكها من يد ابن أشقيلولة؛ فاستماله ابن الأحمر وخاطبه مقارنة ووعدا، وأداله بشلوبانية من مانقة طعمة خالصة له؛ فتخلى عن مالقة إليها. وأرسل الطاغية أساطيله في البحر لمنع الزقاق من إجازة السلطان وعساكره، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجرة يعقوب، وشن الغارات على ثغوره ليكون

ذلك شاغلا له عنهم. فبادر يغمراسن بإجابتهم، وترددت الرسل منه إلى الطاغية ومن الطاغية إليه كما نذكره. وبث السرايا والبعوث في نواحي المغرب، فشغل يعقوب عن شأن الجهاد حتى لقد سأله المهادنة؛ وأن يفرغ لجهاد العدو فأبى عليه وكان ذلك مما دعى يعقوب إلى الصمود إليه، ومواقعته بخرزوزة كما ذكرناه. ولم يزل شأنهم ذلك مع يعقوب بن عبد الحق وأيديهم متصلة عليه من كل جهة، وهو ينتهز الفرصة في كل واحد متى أمكنه منهم حتى هلك وهلكوا. والله وارث الأرض.

الخبر عن شأن يغمراسن مع الخلفاء من بني حفص الذين كان يقيم بتلمسان دعوتهم ويأخذ قومه بطاعتهم:

كان زناتة يدينون بطاعة خلفاء الموحدين من بني عبد المؤمن أيام كونهم بالقفار، وبعد دخولهم إلى التلول. فلما فشل أمر بني عبد المؤمن، ودعا الأمير أبو زكرياء بن أبي حفص بإفريقية لنفسه، ونصب كرسي الخلافة للموحدين بتونس، انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين، وأملوه للكرة، وأوفد زناتة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة. ولاذ مغراوة وبنو توجين بظل دعوته ودخلوا في طاعته، واستنهضوه لتلمسان؛ فنهض إليها وافتتحها سنة أربعين. ورجع إليها يغمراسن واستعمله عليها وعلى سائر ممالكها؛ فلم يزل مقيما لدعوته. واتبع أثره بنو مرين في إقامة الدعوة له فيما غلبوا عليه من بلاد المغرب، وبعثوا إليه ببيعة مكناسة وتازى والقصر كما نذكره في أخبارهم، إلى ما دانوا به ولابنه المستنصر من بعده من خطاب التمويل والإشادة بالطاعة والانقياد، حتى غلبوا على مراكش وخطبوا باسم المستنصر على منابرها حينا من الدهر. ثم تبين لهم بعد متناول تلك القاصية عليه؟ فعطلوا منابرهم من أسماء أولئك، وأقطعوهم جانب الوداد والموالاة. ثم سموا إلى اللقب والتفنن في الشارة الملوكية كما تقتضيه طبيعة الدول، وأما يغمراسن وبنوه فلم يزالوا آخذين بدعوتهم واحدا بعد واحد، متجافين عن اللقب أدبا معهم، مجددي البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة منهم، يوفدون بها كبار أبنائهم وأولي الرأي من قومهم. ولم يزل الشأن ذلك. ولما هلك الأمير أبو زكرياء، وقام ابنه محمد المستنصر بالأمر من بعده، وخرج عليه أخوه

الأمير أبو إسحاق في إحياء الدواودة من رياح، ثم غلبهم المستنصر جميعا، ولحق الأمير أبو إسحاق بتلمسان في أهله، فأكرم يغمراسن نزلهم، وأجاز إلى الأندلس للمرابطة بها والجهاد، حتى إذا هلك المستنصر سنة خمس وسبعين، واتصل به خبر مهلكه، ورأى أنه أحق بالأمر فأجاز البحر من حينه، ونزل بمرسى هنين سنة سبع وسبعين. ولقاه يغمراسن مبرة وتوقيرا، واحتفل بقدومه، وأركب الناس لتلقيه، وأتاه بيعته على عادته مع سلفه، ووعده النصرة من عدوه والمؤازرة على أمره. وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده؛ فأسعفه وأجمل في ذلك وعده. وانتقض محمد بن أبي هلال عامل بجاية على الواثق، وخلع طاعته، ودعا للأمير أبي إسحق، واستحثه للقدوم فأغذ السير من تلمسان، وكان من شأنه أن ما قدمناه في أخباره. فلما كانت سنة إحدى وثمانين، وزحف يغمراسن إلى بلاد مغراوة، وغلبهم على الضواحي والأمصار، بعث من هنالك ابنه إبراهيم، وتسميه زناتة برهوم، وبكنى أبا عامر. أوفده في رجال من قومه على الخليفة أبي إسحاق لأحكام الصهر بينهما، فنزلوا منه على خير نزل من أسناء الجراية ومضاعفة الكرامة والمبرة؛ وظهر من آثاره في حروب ابن أبي عامر ما مد الأعناق إليه وقصر الشيم الزناتية على بيته. ثم انقلب آخرا بظعينته محبوا محبورا، وابتنى بها عثمان لحين وصولها، وأصبحت عقيلة قصره، فكان ذلك مفخرا لدولته وذكرا له ولقومه. ولحق الأمير أبو زكرياء ابن الأمير أبي إسحاق بتلمسان بعد خلوصه من مهلكة قومه في واقعة الداعي ابن أبي عمارة عليهم بمرماجنة سنة اثنتين وثمانين؛ فنزل من عثمان بن يغمراسن صهره خير نزل برا واحتفاء وتكريما وملاطفة. وسربت إليه أخته من القصر أنواع التحف والأنس، ولحق به أولياؤه من صنائع دولتهم، وكبيرهم أبو الحسن محمد ابن الفقيه المحدث أبي بكر بن سيد الناس اليعمري فتفيأوا من كرامة الدولة بهم ظلا وافرا، واستنهضوه إلى تراث ملكه. وفاوض أبا مثواه عثمان بن يغمراسن في ذلك؛ فنكره لما كان قد أخذه بدعوة صاحب الحضرة. وأوفد عليه رجال دولته بالبيعة على العادة في ذلك؛ فحدث الأمير

أبو زكرياء نفسه بالفرار عنه. ولحق بداود بن هلال بن عطاف أمير البدو من بني عامر إحدى بطون زغبة؛ فأجاره وأبلغه مأمنه

بحي الدواودة أمراء البدو بعمل الموحدين. نزل منهم على عطية بن سليمان بن سباع كما قدمناه، واستولى على بجاية عنة أربع وثمانين بعد خطوب ذكرناها، واقتطعها وسائر عملها عن ملك عمه صاحب الدعوة بتونس أبي حفص، ووفى لداود بن عطاف وأقطعه بوطن بجاية عملا كبيرا أفرده لجبابته، كان فيه أيقدارن بالخميس من وادي بجاية. واستقل الأمير أبو زكرياء بمملكة بونة وقسنطينة وبجاية والجزائر والزاب وما وراءها. وكان هذا الصهر وصلة له مع عثمان بن يغمراسن وبنيه. ولما نزل يوسف بن يعقوب تلمسان سنة ثمان وتسعين، بعث الأمير أبو زكرياء المدد من جيوشه إلى عثمان بن يغمراسن؛ وبلغ الخبر بذلك إلى يوسف بن يعقوب؛ فبعث أخاه أبا يحيى في العساكر لاعتراضهم والتقوا بجبل الزاب؛ فكانت الدبرة على عسكر الموحدين واستلحموا هنالك. وتسفى المعركة لهذا العهد بمرسى الرؤوس. واستحكمت من أجل ذلك صاغية الخليفة بتونس إلى بني مرين، وأوفد عليهم مشيخة من الموحدين يدعوهم إلى حصار بجاية، وبعث معهم الهدية الفاخرة. وبلغ خبرهم إلى عثمان بن يغمراسن من وراء جدرانه، فتنكر لها و أسقط ذكر الخليفة من منابره ومحاه من عمله؛ فنسي لهذا العهد. والله مالك الأمور.

الخبر عن مهلك يغمراسن بن زيان وولاية ابنه عثمان وما كان في دولته من الأحداث:

كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة إحدى وثمانين، واستعمل عليها ابنه عثمان، وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيهم. ونزل له ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فتناولها من يده. ثم بلغه الخبر بإقبال أخيه أبي عامر برهوم من تونس بابنة السلطان أبي إسحاق عرس ابنه؛ فتلوم هنالك إلى أن لحقه بظاهر مليانة؛ فارتحل إلى تلمسان وأصابه الوجع في طريقه. وعندما احتل شربويه اشتد به وجعه، فهلك هنالك آخر ذي القعدة من سنته. والبقاء لته وحده. فحمله ابنه أبو عامر على أعواده، وواراه في خدر موريا بمرضه إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيك. ثم أغذ السير إلى تلمسان؛ فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه؟ فبايعه الناس

وأعطوه صفقة أيمانهم. ثم دخل إلى تلمسان؛ فبايعه العامة والخاصة. وخاطب

لحينه الخليفة بتونس أبا إسحاق وبعث إليه ببيعته؛ فراجعه بالقبول وعقد له على عمله على الرسم. ثم خاطب يعقوب بن عبد الحق يطلب منه السلم، لما كان أبوه يغمراسن أوصاه به.

حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي قال: سمعت من السلطان أبو حمو موسى بن عثمان وكان قهرمانا بداره، قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان– ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم– فقال له يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها. فإياك واعتماد لقاثهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافىء حشد العدو بحشدك. ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك. فعلقت وصية الشيخ بقلبه، واعتقد عليها ضمائره، وجنح إلى السلم مع بني مرين ليفرغ عزمه لذلك. وأوفد أخاه محمد بن يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدوة الأندلسية في إجازته الرابعة إليها؛ فخاض إليه البحر ووصله باركش؛ فلقاه برا وكرامة؛ وعقد له من السلم ما أحب. وانكفأ راجعا إلى أخيه؛ فطابت. نفسه وفرغ لافتتاح البلاد الشرقية، كما نذكره إن شاء الله لعالى.

الخبر عن شأن عثمان بن يغمراسن مع مغراوة وبني توجين وغلبه علي معاقلهم والكثير من أعمالهم:

لما عقد عثمان بن يغمراسن السلم مع يعقوب بن عبد الحق، صرف وجهه إلى الأعمال الشرقية من بلاد توجين ومغراوة وما وراءها من عمل الموحدين؛ فتغلب أولا على ضواحي بني توجين ودوخ قاصيتها؛ وصار إلى بلاد مغراوة كذلك؛ ثم إلى متيجة؛ فانتسق نعمها وخطم زروعها. ثم تجاوز إلى بجاية فحاصرها كما نذكره بعد. وامتنعت عليه وانكفأ راجعا في طريقه بمازونة فحاصرها وأطاعته، وذلك سنة ست وثمانين. ونزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن

تنس؛ فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في أيالته. ثم عطف في سنته على بلاد توجين؛ فاكتسح حبوبها واحتكرها بمازونة استعدادا لما يتوقع من حصار مغراوة إياها. ثم دلف إلى تافر كنيت، فحاصرها وأخذ بمخنقها. وداخل قائدها غالبا الخصي، من موالي محمد بن عبد القوي، كان مولى سيد الناس منهم، فنزل له غالب عنها واستولى عليها واكفأ إلى تلمسان. ثم نهض إلى بلاد بني ترجين سنة سبع وثمانين؛ فغلبهم على وانشريش مثوى ملكهم ومنبت عزهم، وفر أمامه أميرهم مولى بني. زرارة من ولد محمد بن عبد القوي. وأخذ الحلف منهم فلحق بضواحي المدية في الأعشار وأولاد عزيز من قومه. واتبع عثمان بن يغمراسن آثارهم وشردهم عن تلك الضاحية. وهلك مولى زرارة في مفره. وكان عثمان قبل ذلك قد دوخ بلاد بني يدللتين من بني توجين، ونازل رؤساءهم أولاد سلامة بالقلعة المنسوبة إليهم مرات فامتنعوا عليه؛ ثم أعطوه أيديهم على الطاعة ومفارقة لومهم بني توجين إلى سلطان بني يغمراسن؟ فنبذوا العهد إلى بني محمد بن عبد القوي أمرائهم منذ العهد الأول. ووصلوا أيديهم بعثمان وألزموا رعاياهم وأعمالهم المغارم له، إلى أن ملك وانشريش من بعدها كما نذكر ذلك في أخبارهم.

وصارت بلاد بني توجين كلها من عمله، واستعمل الحشم بجبل وانشريش. ثم نهض بعدها إلى المدية، وبها أولاد عزيز من توجين فنازلها، وقام بدعوته فيها قبائل من صنهاجة يعرفون بلمدية وإليهم تنسب؛ فأمكنوه منها سنة ثمان وثمانين؛ وبقيت في إيالته سبعة أشهر؛ ثم انتقضت عليه. وزحف إلى إيالة أولاد عزيز وصالحوه عليها، وأعطوه من الطاعة ما كانوا يعطونه لمحمد بن عبد القوي وبنيه، فاستقام أمره في بني توجين، ودانت له سائر أعمالهم. ثم خرج سنة تسع وثمانين إلى بلاد مغراوة لما كانوا ألبا عليه لبني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حمو بشلف مركز عملهم؛ فأقام به وقفل هو إلى الحضرة. وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة، وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزالوا بها. ونهض عثمان إليهم سنة ثلاث وتسعن من بعدها فانحجزوا بمدينة برشك، وحاصرهم بها أربعين يوما، ثم افتتحها. وخاض ثابت بن منديل البحر إلى المغرب؛ فنزل على

يوسف بن يعقوب كما ذكرناه ونذكره. واستولى عثمان على سائر عمل مغراوة كما

استولى على عمل توجين؟ فانتظم بلاد المغرب الأوسط كلها وبلاد زناتة الأولى؟ ثم شغل بفتنة بني مرين كما نذكره بعد. والملك لله وحده.

الخبر عن منازلة بجاية وما دعا إليها:

قد ذكرنا أن المولى أبا زكرياء الأوسط ابن السلطان أبي إسحاق من بني أبي حفص، لحق بتلمسان عند فراره من بجاية أمام شيعة الدعي ابن أبي عمارة، ونزل على عثمان بن يغمراسن خير نزل. ثم هلك الدعي ابن أبي عمارة، واستقل عمه الأمير أبو حفص بالخلافة، وبعث إليه عثمان بن يغمراسن بطاعته على العادة، وأوفد عليه وجوه قومه، ودس الكثير من أهل بجاية إلى المولى أبي زكرياء يستحثونه للقدوم، ويعدونه إسلام البلد إليه. وفاوض عثمان بن يغمراسن في ذلك فأبى عليه، فألحق البيعة بعمه الخليفة بالحضرة؛ فطوى عنه الخبر وتردد في القبض أياما. ثم لحق بأحياء زغبة في مجالاتهم بالقفر، ونزل على داود بن هلال بن عطاف. وطلب عثمان بن يغمراسن من داود إسلامه فأبى عليه، وارتحل معه إلى أعمال بجاية، ونزلوا إلى أحياء الدواودة كما قدمناه. ثم استولى المولى أبو زكرياء بعد ذلك على بجاية في خبر طويل قد ذكرناه في أخباره. واستحكمت القطيعة بينه وبين عثمان، وكانت سببا لاستحكام الموالاة بين عثمان وبين الخليفة بتونس. فلما زحف إلى عمل مغراوة سنة ست وثمانين، وتوغل في قاصية المشرق، أعمل الرحلة إلى عمل بجاية، ودوخ سائر أقطارها. ثم نازلها من بعد ذلك يروم كيدها بالاعتمال في مرضاة الخليفة بتونس، ويسر بذلك حسواً في ارتغاء؛ فأناخ عليها بعساكره سبعا؛ ثم أفرج عنها منقلبا إلى المغرب الأوسط؛ فكان من فتح مازونة وتافركنيت ما قدمناه.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وشأن تلمسان في الحصار الطويل:

لما هلك يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين على السلم المنعقدة بينه وبين بني عبد الواد لشغله بالجهاد، وقام بالأمر من بعده في قومه ابنه يوسف كبير ولده على حين

اتبعهم أنفسهم شأن الجهاد. وأسفهم يغمراسن وابنه بممالاة الطاغية وابن الأحمر فعقد يوسف السلم مع الطاغية لحينه، ونزل لابن الأحمر عن ثغور الأندلس التي كانت لهم، وفرغ لحرب بني عبد الواد، واستتب له ذلك لأربع من مهلك أبيه، دلف إلى تلمسان سنة تسع وثمانين، ولاذ منه عثمان بالأسوار فنازلها أربعين صباحا، وقطع شجراءها ونصب عليها المجانيق والآلات. ثم أحس بامتناعها فأفرج عنها وانكفأ راجعا. وتقبل عثمان بن يغمراسن، مذهب أبيه في مداخلة ابن الأحمر والطاغية، وأوفد رسله عليهما فلم يغن ذلك عنه شيئا، وكان مغراوة قد لحقوا بيوسف بن يعقوب على تلمسان فنالوا منها أعظم النيل. فلما أفرجوا عن تلمسان نهض عثمان إلى بلادهم فدوخها وغلبهم عليها، وأنزل بها ابنه أبا حمو كما قدمناه. فلما كانت سنة خمس وتسعين نهض يوسف بن يعقوب حركته الثانية فنازل ندرومة؛ ثم ارتحل عنها إلى ناحية وهران. وأطاعه أهل جبل كيذرة وتاسكدلت رباط عبد الحميد أن الفقيه أبي زيد اليزناسني، ثم كر راجعا إلى المغرب. وخرج عثمان بن يغمراسن، فأثخن في تلك الجبال لطاعتهم عدوه واعتراضهم جنده واستباح رباط تاسكدلت. ثم غزاه يوسف بن يعقوب ثالثا سنة ست وتسعين ورجع إلى المغرب. ثم أغزاه رابع سنة سبع وتسعين فنازل تلمسان، وأحاط بها معسكره، وشرعوا في البناء. ثم أفرج عنها لثلاثة أشهر، ومر في طريقه بوجدة، فأمر بتجديد بنائها وجمع الفعلة عليها. واستعمل أخاه أبا يحيى بن يعقوب على ذلك، فأقام لشانه، ولحق يوسف بالمغرب. وكان بنو توجين قد نازلوا تلمسان مع يوسف بن يعقوب، وتولى كبر ذلك منهم أولاد سلامة أمراء بني يدللتن منهم، وأصحاب القلعة المنسوبة إليهم. فلما أفرج سنها خرج إليهم عثمان بن يغمراسن، فدوخ بلادهم، وحاصرها بالقلعة ونال منهم أضعاف ما نالوا منه. وطال مغيبه في بلادهم؛ فخالفه أبو يحيى بن يعقوب إلى ندرومة؛ فاقتحمها بعسكره بمداخلة من قائدها زكرياء بن يخلف بن المطغرى صاحب تاونت. فاستولى بنو مرين على ندرومة وتاونت. وجاء يوسف بن يعقوب على أثرها فوافاهم ودلفوا جميعا إلى تلمسان. وبلغ الخبر إلى عثمان بمكانه من

حصار القلعة، فطوى المراحل إلى ظمسان، فسبق إليها يوسف بن يعقوب ببعض يوم. ثم أشرفت طلائع بني مرين عشي ذلك اليوم، فأناخوا بها في شعبان سنة ثمان وتسعين، وأحاط العسكر بها من جميع جهاتها. وضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجا من الأسوار محيطا بها، وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سفاها المنصورة. وأقام على ذلك سنين يغاديها بالقتال ويرواحها. وسرح عساكر لافتتاح أمصار المغرب الأوسط وثغوره، فملك بلاد مغراوة وبلاد بني توجين كما ذكرناه في أخباره. وجثم هو بمكانه من حصار تلمسان لا يعدوها كالأسد الضاري على فريسته، إلى أن هلك عثمان وهلك هو من بعده كما نذكره. وإلى الله المصير.

الخبر عن مالك عثمان بن يغمراسن وولاية ابنه أبي زيان وانتهاء الحصار من بعده إلى غايته:

لما أناخ يوسف بن يعقوب بعسكره على حسان، انحجر بها عثمان وقومه واستسلموا، والحصار آخذ بمخنقهم. وهلك عثمان لخامسة السنين من حصارهم سنة ثلاث وسبعماية، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو زيان محمد. أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الأبلي، وكان في صباه قهرمان دارهم قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس، وكان قد أعذ لشربه لبناً. فلما أخذ منه الديماس وعطش، دعا بالقدح وشرب اللبن ونام، فلم يكن بأوشك إن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم، تفاديا من معرة غلب عدوهم إياهم قال: وجاء الخادم إلى قعيدة بيته زوجه بنت السلطان أبي إسحاق ابن الأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس وأخبرها الخبر؛ فجاءت ووقفت عليه واسترجعت وخيمت على الأبواب بسدادها. ثم بعثت عن ابنيه محمد أبي زيان وموسى أبي حموا فعزتهما عن أبيهما. وأحضر مشيخة بني عبد الواد، وعرضوا لهم بمرض السلطان، فقال أحدهم مستفهما عن الشأن ومترجما عن القوم: السلطان معنا آنفا، ولم يمتد الزمن لوقوع المرض، فإن يكن هلك فخبرونا؛ فقال له أبو حمو: وإذا هلك فما أنت صانع؛ فقال: إنما نخشى من مخالفتك، وإلا فسلطاننا

أخوك الأكبر أبو زيان. فقام أبو حمو من مكانه، وأكب على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه. واقتدى به المشيخة؛ فانعقدت بيعته لوقته. واشتمل بنو عبد الواد على سلطانهم، واجتمعوا إليه، وبرزوا لقتال عدوهم على العادة، فكأن عثمان لم يمت.

وبلغ الخبر إلى يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارهم؛ فتفجع له وعجب من صرامة قومه من بعده. واستمر حصار له إياهم إلى تمام ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزوله، نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل امة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطط والفيران، حتى لزعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناسي، وخربوا السقف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق، بما تجاوز حدود العوائد. وعجز وجدهم عنه، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة ويتبايعون به، مقداره اثنتي عشر رطلا ونصف مثقالين ونصف من الذهب العين، وثمن الرأس الواحد من البقر ستين مثقالا، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف. وأثمان اللحمان من الجيف: الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهما، والهر الواحد بمثقال ونصف، والكلب بمثله، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله، والدجاجة بستة عشر درهما، والبيفى واحدة بستة دراهم والعصافير كذلك. والأوقية من الزيت باثنتي عشر درهماً، ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين. ومن الفول بمثلها. ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك. والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال. ومن الخس بعشرين درهما، ومن اللفت بخمسة عشر درهما. والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين ومن الإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم.

واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها، واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها. ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة وخطب الملوك سلمه ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية، وكذلك رسل

صاحب مصر والشام وهديتهم، واعتز اعتزازا لا كفاء له كما يأتي في أخباره.
وأنهك الجهد حامية بني يغمراسن وقبيلتهم وأشرفوا على الهلاك، فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة، فكيف الله لهم الصنيع

الغريب. ونفس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف بن يعقوب على يد خصي من العبدي أسخطته بعض النزعات الملوكية، فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه، وطعنه بخنجر قطع أمعاءه؛ وأدرك فسيق إلى وزرائه ومزقوا أشلاءه، فلم يبوء بشسع من نعل عبيدهم كما ذكرناه. والأمر لله وحده.

وأذهب الله العناءة عن آل زيان وقومهم وساكني مدينتهم، فكأنما نشروا من الأجداث. وكتبوا لها في سكتهم ما أقرب فرج الله استغرابا لحادثتها. حدثني شيخنا محمد بن إبراهيم الأبلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج، وهو يوم الأربعاء في خلوة من زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد فاستوصاه بكتمانها. وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبره فوجم لها، وجلسوا سكوتا لا ينطقون، وإذا بالخادم دعد قهرمانة القصر من وصايف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم خرجت من القصر إليهم؛ فوقفت وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء، وقد احيط بكم، وأسف لالتهامكم عدوكم، ولم يبق إلا فواق بكيئة لمصارعكم، فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم، وقربونا إلى مهالكنا. فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم. فالتفت أبو حمو إلى أخيه، وكان من الشفقة بمكان وقال: لقد صدقتك الخبر فما تنتظر فيهم؟ فقال: يا موسى! أرجئني ثلاثا، لعل الله يجعل بعد عسر يسرا، ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن، وتعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت، ويقضي الله ما شاء. فغضب له أبو حمو ونكر الإرجاء في ذلك، وقال: إنا نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضبا، وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء. قال ابن حجاف: وأنا بمكاني بين يديه واجم، لا أملك متأخرا ولا متقدما، إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرسي الباب يشير إلي أن إذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسدة القصر؛ فلم أطق أرجع جوابه إلا بالإشارة. وانتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً؛ فأذنته واستدعاه. فلما وقف بين يديه قال له: إن يوسف بن

يعقوب هلك الساعة، وأنا رسول حافده أبي ثابت إليكم. فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه، حتى أبلغ الرسول رسالته

بمسمع منهم، وكانت إحدى المغربات في الأيام.

وكان من خبر هذه الرسالة أن يوسف بن يعقوب لما هلك، تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته، وثحيز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن لخؤلة كانت له فيهم، فاستجاش بهم، واعصوصبوا عليه. وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن أن يعطوه الالة، ويكونوا مفزعا له ومأمنا إن أخفق مسعاه. على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين؛ فعاقدوه عليها. ووفى لهم لما تم أمره، ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم. وجأجأ بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم، وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأقصى. واستمكن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب الأوسط كلها؛ إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن شأن السلطان أبي زيان من بعد الحصار إلى حين مهلكه:

كان من أول ما افتتح به السلطان أبو زيان أمره بعد الخروج من هوة الحصار، وتناوله الأعمال من أيدي بني مرين، أن نهض من تلمسان، ومعه أخوه أبو حمو آخر ذي الحجة من سنة ست وسبعماية. فقصد بلاد مغراوة، وشرد من كان هنالك منهم في طاعة بني مرين، واحتاز الثغور من أيدي عمالهم، ودوخ قاصيتها. ثم عقد عليها لمسامح مولاه، ورجع عنها. ونهض إلى السرسو؛ وكان العرب قد تملكوه أيام الحصار؛ وغلبوا زناتة عليه من سويد والديالم ومن إليهم من بني يعقوب بن عامر؛ فأجفلوا أمامه. واتبع آثارهم إلى أن أوقع بهم وانكفأ راجعا. ومر ببلاد بني توجين، فاقتضى طاعة من كان بقي بالجبل من بني عبد القوي والحشم فأطاعوه، ورياستهما يومئذ لمحمد بن عطية الأصم من بني عبد القوي. وقفل إلى تلمسان لتسعة أشهر من خروجه، وقد ثقف أطراف ملكه، ومسخ أعطاف دولته. فنظر في إصلاح قصوره ورياضه، ورم ما تثلم من بلده. وأصابه المرض خلال ذلك؛ فاشتد وجعه سبعا؛ ثم هلك أخريات شوال من سنة سبع. والبقاء لله وحده.

الخبر عن محو الدعوة الحفصية من منابر تلمسان:

كانت الدعوة الحفصية بإفريقية قد انقسمت بين أعياصهم في تونس وبجاية وأعمالها، وكان التخم بينها بلد عجيسة ووشتاتة. وكان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص ابن الأمير أبي زكرياء الأول منهم، وله الشفوف على صاحب بجاية والثغور الغربية بالحضرة. فكانت بيعة بني زيان له ودعاؤهم على منابرهم باسمه، وكانت لهم مع المولى الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان الصهر بينهم وبينه، وكانت الوحشة قد اعترضت ذلك عندما نازل عثمان بجاية كما قدمناه. ثم تراجعوا إلى وصلتهم واستمروا عليها إلى أن نازل يوسف بن يعقوب تلمسان، والبيعة يومئذ للخليفة بتونس السلطان أبي عصيدة بن الواثق، والدعوة على منابر تلمسان باسمه، وهو حاقد عليهم ولايتهم للأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب الثغر. فلما نزل يوسف بن يعقوب على تلمسان، وبعث عساكره في قاصية المشرق، واستجاش عثمان بن يغمراسن بضاحية بجاية؛ فسرح عسكرا من الموحدين لمدافعتهم عن تلك القاصية. والتقوا معهم بجبل الزان، فانكشف الموحدون بعد معترك صعب واستلحمهم بنو مرين. وشحمى المعترك لهذا العهد بمرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط في ذلك المجال من الرؤوس واستحكمت المنافرة لذلك بين يوسف بن يعقوب وصاحب بجاية، فأوفد الخليفة بتونس على يوسف بن يعقوب مشيخة الموحدين تجديدا لوصلة سلفهم مع سلفه، وإغراء بصاحب بجاية وعمله. فساء موقع ذلك من عثمان بن يغمراسن، وأحفظه موالاة الخليفة لعدوه، فعطل منابره من ذكره، وأخرج قومه وإيالته عن دعوته. وكان ذلك آخر المائة السابعة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة أبى حمو الأوسط موسى بن عثمان وما كان فيها من الأحداث:

لما هلك الأمير أبو زيان، قام بالأمر من بعده أخوه السلطان أبو حمو في أخريات سنة سبع كما

قدمناه، وكان صارما يقظا حازما داهية قوي الشكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة، وهو أول ملوك زناتة. رتب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف لذلك لأهل ملكه حده، وقلب لهم مجن بأسه، حتى دلوا لعز الملك وتأدبوا بآداب السلطان. سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة يقول، ويعنيه: موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة؛ وإنما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان، فحد حدودها وهذب مراسمها. ولقن عنه ذلك أقتاله وأنظاره منهم، فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه. انتهى كلامه. ولما استقل بالأمر افتتح شأنه بعقد السلم مع سلطان بني مرين لأول دولته، فأوفد كبراء دولته على السلطان أبي ثابت، وعقد له السلم كما رضي. ثم صرف وجهه إلى بني توجين ومغراوة، فردد إليهم العساكر، حتى دوخ بلادهم وذلل صعابهم. وشرد محمد بن عطية الأصم عن نواحي وانشريش، وراشد بن محمد عن نواحي شلف وكان قد لحق بها بعد مهلك يوسف بن يعقوب فأزاحه عنها. واستولى على العملين، واستعمل عليها، وقفل إلى تلمسان.

ثم خرج سنة عشر في عساكره إلى بلاد بني توجين، ونزل تافركنيت، وسط بلادهم. فشرد الفل من أعقاب محمد بن عبد القوي عن وانشريش، واحتاز رياستهم في نجني توجين دونهم. وأدال منهم بالحشم وبني تيغرين. وعقد لكبيرهم يحيى بن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريش، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدية وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بن علي على قومه بني يدللتن إحدى بطون بني نوجين، وأهل الناحية الغربية من عملهم. وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعا من صنائعه قائده يوسف بن حبون الهواري، وأذن له في اتخاذ الآلة. وعقد لمولاه مسامح على بلاد مغراوة، وأذن له أيضا في اتخاذ الآلة. وعقد لمحمد ابن عمه يوسف على مليانة، وأنزله بها، وقفل إلى تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن استنزال زيرم بن حماد بن ثغر برشك وما كان من قتله:

كان هذا الغمر من مشيخة هذا المصر لوفور عشيره من مكلاته داخله وخارجه، واسمه زيري بالياء، فتصرفت فيه العامة، وصار زيرم بالميم. ولما غلب يغمراسن على بلاد مغراوة دخل أهل هذا المصر في طاعته. حتى إذا هلك حدثت هذا الغمر نفسه بالانتزاء والاستبداد بملك برشك، ما بين مغراوة وبني عبد الواد، ومدافعة بعضهم ببعض. فاعتزم على ذلك وأمضاه، وضبط برشك لنفسه سنة ثلاث وثمانين. ونهض إليه عثمان بن يغمراسن سنة أربع بعدها، ونازله فامتنع. ثم زحف سنة ثلاث وتسعين إلى مغراوة، فلجأ ثابت بن منديل إلى برشك وحاصره عثمان بها أربعين يوما. ثم ركب البحر إلى المغرب كما قلناه وأخذ زيرم بعده بطاعة عثمان بن يغمراسن، دافعه بها، وانتقض عليه، مرجعه إلى تلمسان. وشغل بنو زيان بعدها بما دهمهم من شأن الحصار، فاستبد زيرم هذا ببرشك واستفحل شأنه بها. واتقى بني مرين عند غلبهم على أعمال مغراوة وتردد عساكرهم فيها بإخلاص الطاعة والانقياد. فلما انقشع إيالة بني مرين بمهلك يوسف بن يعقوب، وخرج بنو عثمان بن يغمراسن من الحصار، رجع إلى ديدنه من التمريض في الطاعة، ومقاولة طرفها على البعد. حتى إذا غلب أبو حمو على بلاد مغراوة، وتجاوزت طاعته هذا المصر إلى ما وراءه، خشيه زيري على نفسه، وخطب منه الأمان، على أن ينزل له عن المصر. فبعث إليه صاحب الفتيا بدولته أبا زيد عبد الرحمن بن محمد الإمام، كان أبوه من أهل برش، وكان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة. وفر ابنه عبد الرحمن هذا وأخوه عيسى، ولحقا بتونس فقرا بها، ورجعا إلى الجزائر فأوطناها. ثم انتقلا إلى مليانة، واسنعملهما بنو مرين في خطة القضاء بمليانة. ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة. وكان فيهم منديل بن محمد الكناني صاحب أشغالهم المذكور في أخبارهم. وكانا يقرآن ولده محمدا، فأشادا

على أبي زيان وأبي حمو بمكانهم من العلم، ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع، حتى إذا استقل بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطمر من تلمسان لطلب العلم. وابتنى لهما دارين عن جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك. واختصهما بالفتيا والشورى، فكانت لهما في دولته قدم عالية. فلما طلب زيري هذا الأمان من أبي حمو وأن يبعث إليه من يأمن معه في الوصول إلى بابه، بعث إليه أبا زيد عبد الرحمن الأكبر منهما، فنهض لذلك بعد أن استأذنه أن يثأر منه بأبيه إن قدر عليه، فأذن له. فلما احل ببرشك أقام بها أياما، يناديه فيها زيري ويراوحه بمكان نزله، وهو يعمل الحيلة في اغتياله حتى أمكنته. فقتله في بعض تلك الأيام سنة ثمان وسبعماية، وصار أمر برشك إلى السلطان أبي حمو وانمحى منها أثر المشيخة والاستبداد. والأمور بيد الله سبحانه.

الخبر عن طاعة الجزائر واستنزال ابن علان منها وذكر أوليته:

كانت مدينة الجزائر هذه من أعمال صنهاجة، ومختطها بلكين بن زيري، ونزلها بنوه من بعده. ثم صارت إلى الموحدين، وانتظمها بنو عبد الرحمن في أمصار المغربين وإفريقية. ولما استبد بنو أبو حفص بأمر الموحدين، وبلغت دعوتهم بلاد زناتة. وكانت تلمسان ثغرا لهم، واستعملوا عليها يغمراسن وبنيه من بعده، وعلى ضواحي مغراوة بني منديل بن عبد الرحمن، وعلى وانشريش وما إليه من عمل بني توجين محمد بن عبد القوي وبنيه. وبقي ما وراء هذه الأعمال إلى الحضرة لولاية الموحدين من أهل دولته، فكان العامل على الجزائر من الموحدين أهل الحضرة.

وفي سنة أربع وستين انتقضوا على المستنصر ومكثوا في ذلك الانتقاض سبعا. ثم أوعز إلى أبي هلال صاحب بجاية بالنهوض إليها في سنة إحدى وسبعين، فحاصرها أشهرا وأفرج عنها. ثم عاودها بالحصار سنة أربع وسبعين أبو الحسن بن ياسين بعساكر الموحدين، فاقتحمها عليهم عنوة واستباحها. وتقبض على مشيختها فلم يزالوا معتقلين بها إلى أن هلك المستنصر. ولما انقسم أمر بني أبي حفص، واستقل الأمير أبو زكرياء الأوسط بالثغور الغربية وأبوه، وبعثوا إليه بالبيعة، وولى عليهم ابن أكمازير.

وكانت ولايتها لبطة من قبل، فلم يزل هو واليا عليها إلى أن أسن وهرم. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصا به، ومتصرفا في أوامره ونواهيه، ومصدرا لأمارته. وحصل له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه. فلما هلك ابن أكمازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بمدينته، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره. وضرب أعناقهم وأصبح مناديا بالاستبداد، واتخذ الآلة، واستركب واستلحق من الغرباء والثعالبة عرب متيجة، واستكثر من الرجال والرماة. ونازلته عساكر بجاية مرارا، فامتنع عليهم.

وغلب مليكش على جباية الكثير من بلاد متيجة، ونازله أبو يحيى بن يعقوب بعساكر بني مرين عند استيلائهم على البلاد الشرقية، وتوغلهم في القاصية، فأخذ بمخنقها وضيق عليها. ومر بابن علان القاضي أبو العباس الغماري رسول الأمير خالد إلى يوسف بن يعقوب؛ فأودعه الطاعة للسلطان والضراعة إليه في الإبقاء؛ فأبلغ ذلك عنه وشفع له؛ فأوعز إلى أخيه أبي يحيى بمصالحته. ثم نازله الأمير خالد من بعد ذلك؛ فامتنع عليه. وأقام على ذلك أربع عشرة سنة، وعيون الخطوب تحرزه، والأيام تستجمع لحربه. فلما غلب السلطان أبو حمو على بلاد بني توجين، واستعمل يوسف بن حيون الهواري على وانشريش، ومولاه مسامحا على بلاد مغراوة، ورجع إلى تلمسان. ثم نهض سنة اثنتي عشرة إلى بلاد شلف، فنزل بها، وقدم مولاه مسامحا في العساكر فدوخ متيجة من سائر نواحيها، وترس الجزائر، وضيق حصارها حتى مسهم الجهد. وسأل ابن علان النزول على أن يستشرط لنفسه، فتقبل السلطان اشتراطه. وملك السلطان أبو حمو الجزائر وانتظمها في أعماله. وارتحل ابن علان في جملة مسامح، ولحقوا بالسلطان بمكانه من شلف؟ فانكفأ إلى تلمسان وابن علان في ركابه؟ فأسكنه هنالك ووفى له بشرطه إلى أن هلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة صاحب المغرب إلى تلمسان وأولية ذلك:

لما خرج عبد الحق بن عثمان من أعياص الملك على السلطان أبي الربيع بفاس،

وبايع له الحسن بن علي بن أبي الطلاق شيخ بني مرين بمداخلة الوزير رحو بن يعقوب كما قدمناه في أخبارهم. وملكوا تازى، وزحف إليهم السلطان أبو الربيع؛ فبعثوا وفدهم إلى السلطان أبو حمو صريخا. ثم أعجلهم أبو الربيع وأجهضهم على تازى؛ فلحقوا بالسلطان أبي حمو، ودعوه إلى المظاهرة على المغرب، ليكونوا رداء له دون قومهم. وهلك السلطان أبو الربيع خلال ذلك. واستقل بملك المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق؛ فطالب السلطان أبا حمو بإسلام أولئك النازعين إليه؛ فأبى من إسلامهم وإخفار ذمته فيهم. وأجازهم البحر إلى العدوة؛ فأغضى له السلطان أبو سعيد عنها وعقد له السلم. ثم استراب يعيش بن يعقوب بن عبد الحق بمكانه عند أخيه السلطان أبي سعيد لما سعى به عنده، فنزع إلى تلمسان. وأجاره السلطان أبو حمو على أخيه؛ فأحفظه ذلك ونهض إلى تلمسان سنة أربع عشرة. وعقد لابنه الأمير أبي علي وبعثه في مقدمته، وصار هو في الساقة. ودخل أعمال تلمسان على هذه التعبية؛ فاكتسح بسائطها. ونازل وجدة؟ فقاتلها وضيق عليها. ثم تخطاها إلى تلمسان؛ فنزل بساحتها. وانحجز موسى بن عثمان من وراء أسوارها، وغلب على ضواحيها ورعاياها. وسار السلطان أبو سعيد في عساكره يتقرى شعارها وبلادها بالحطم والانتساف والعبث. فلما احيط به، وثقلت وطأة السلطان عليه، وحذر المغبة منهم، ألطف الحيلة في خطاب الوزراء الذين كان يسرب أمواله فيهم، ويخادعهم عن نصائح سلطانهم، حتى اقتضى مراجعتهم في شأن جاره يعيش بن يعقوب، وإدالته من اخته، ثم بعث خطوطهم بذلك إلى السلطان أبي سعيد؛ فامتلأ قلبه منها خشية، واستراب بالخاصة والأولياء، ونهض إلى المغرب على تعبيته ثم كان خروج ابنه عمر عليه بعد مرجعه، وشغلوا عن تلمسان وأهلها برهة من الدهر، حتى تم أمر الله في ذلك عند وقته. والله تعالى أعلم.

الخبر عن مبدأ حصار بجاية وسرح الداعية إليه:

لما خرج السلطان أبو سعيد إلى المغرب، وشغل عن تلمسان، فزع أبو حمو لأهل

القاصية من عمله. وكان راشد بن محمد بن ثابت بن منديل قد جاء من بلاد زواوة أثناء هذه الغمرة؛ فاحتل بوطن شلف؛ واجتمع إليه أوشاب قومه. وحين تجلت الغمرة عن السلطان أبي حمو، نهض إليه بعد أن استعمل ابنه أبا تاشفين على تلمسان، وجمع له الجموع، ففر أمامه ناجيا إلى مثوى اغترابه ببجاية. وأقام بنو أبي سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته، فاحتل السلطان أبو حمو بوادي نهل، فخيم به. وجمع أهل أعماله لحصار بني أبي سعيد شيعة راشد بن محمد، واتخذ هنالك قصره المعروف باسمه. وسرح العساكر لتدويخ القاصية. ولحق به هنالك الحاجب ابن أبي حي مرجعه من الحج سنة إحدى عشرة وسبعماية، فأغراه بملك بجاية ورغبه فيه. وكان له فيها طمع منذ رسالة السلطان أبي يحيى إليه. وذلك أنه لما انتقض على أخيه خالد دعى لنفسه بقسنطينة. ونهض إلى بجاية، فانهزم عنها كما قدمناه في أخباره. وأوفد على السلطان أبي حمو بعض رجال دولته مغريا له بابن خلوف وبجاية. ثم بعث إليه ابن خلوف أيضا يسأله المظاهرة والمدد، فأطمعه ذلك في ملك بجاية. ولما هلك ابن خلوف كما قدمناه، لحق به كاتبه عبد الله بن هلال، فأغراه واستحثه، وعداه عن ذلك شأن الجزائر. فلما استولى على الجزائر، بعث مسامحا مولاه في عسكر مع ابن أبي حي، فبلغوا إلى جبل الزان. وهلك ابن أبي في، ورجع مسامح. ثم شغله عن شأنها زحف. وفرغ من أمر عدوه، ونزل بلد شلف كما ذكرنا آنفا. ولحق به عثمان بن سباع بن يحيى، وعثمان بن سباع بن شبل أمير الدواودة، يستحثونه لملك الثغور الغربية من عمل الموحدين، فاهتز لذلك وجمع له الجموع: فعقد لمسعود ابن عفه أبي عامر برهوم على عسكر وأمره بحصار بجاية، وعقد لمحمد ابن عفه يوسف قائد مليانة على عسكر، ولمولاه مسامح على عسكر آخر. وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد. وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء. وانطلقوا إلى وجههم ذلك، وفعلوا الأفاعيل كل فيما يليه. وتوغلوا في البلاد الشرقية، حتى انتهوا إلى بلاد بونة. ثم انقلبوا من هنالك، ومروا في طريقهم بقسنطينة، ونازلوها أياما.

وصعدوا جبل ابن ثابت المطل عليها، فاستباحوه. ثم مروا ببني باورار، فاستباحوها وأضرموها واكتسحوا سائر ما مروا عليه. وحدثت بينهم المنافرة حسدا ومنافسة، فافترقوا ولحقوا بالسلطان. وأقام مسعود بن برهوم محاصرا لبجاية، وبنى حصاً باصفوان لمقامته. وكان يسرح الجيوش لقتالها، فتجول في ساحتها ثم رجع إلى الحصن. ولم يزل كذلك حتى بلغه خروج محمد بن يوسف، فأجفل عنها على ما نذكره الأن، فلم يرجعوا لحمارها إلا بعد مدة. والله تعالى أعلم.

الخبر عن خروج محمد بن يوسف ببلاد بني توجين وحلاب السلطان معه:

لما رجع محمد بن يوسف من قاصية المشرق كما قدمناه، وسابقه إلى السلطان موسى بن علي الكردي، وجوانحه تلتهب غيظاً وحقدا عليه. وسعى به عند السلطان؟ فعزله عن مليانة؛ فوجم لها. وشاله زيارة ابنه الأمير أبي تاشفين بتلمسان، وهو ابن اخته فأذن له. وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى عن ذلك. وأراد هو الرجوع إلى معسكر السلطان؛ فخلى سبيله. ولما وصل إليه تنكر له وحجبه؛ فاستراب وملا قلبه الرعب. وفر من المعسكر ولحق بالمدية. ونزل على يوسف بن حسن بن عزيز عاملها للسلطان من بني توجين. فيقال إنه أوثقه اعتقالاً حتى غلبه قومه على بغيته من الخروج معه، لما كان السلطان أبو حمو يوسقهم به من نزعاته. فأخذ له البيعة على قومه ومن إليهم من العرب. وزحفوا إلى السلطان بمعسكره من نهل، فلقيهم في عساكره؟ فكانت الدبرة على السلطان، ولحق بتلمسان، وغلب محمد بن يوسف على بلاد بني توجين ومغراوة، ونزل مليانة. وخرج السلطان من تلمسان لأيام من دخولها، وقد جمع الجموع، وأزال العلل. وأوعز إلى مسعود ابن عمه برهوم بمكانه من حصار بجاية، بالوصول إليه بالعساكر، ليأخذ بحجرتهم من ورائهم. وخرج محمد بن يوسف من مليانة لاعتراضه، واستعمل على مليانة يوسف بن حسن بن عزيز؟ فلقيه ببلاد مليكش وانهزم محمد من يوسف. ولجأ إلى جبل موصاية، وحاصره بها مسعود بن

برهوم أياما، تم أفرج عنه. ولحق بالسلطان؛ فنازلوا جميعا مليانة. وافتتحها السلطان عنوة وجيء بيوسف بن حسن أسيرا من مكمنه ببعض المسارب؛ فعفا عنه وأطلقه. ثم زحف إلى المدية؛ فملكها وأخذ الرهن من أهل تلك النواحي؛ وقفل إلى تلمسان. واستطال محمد بن يوسف على النواحي؛ ففشت دعونه في تلك القاصية. وخاطب مولانا السلطان أبا يحيى بالطاعة؟ فبعث إليه بالهدية والآلة؛ وسوغه سهام يغمراسن بن زيان من إفريقية. ووعده بالمظاهرة وغلب سائر بلاد بني توجين. وبايع له بنو تيغرين أهل جبل وأنشريش؛ فاستولى عليه. تم نهض السلطان إلى الشرق سنة سبع عشرة، وملك المدية، واستعمل عليها يوسف بن حسن لمدافعه محمد بن يوسف، واستبلغ في أخذ الرهن منه ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد. ورجع إلى تلمسان، ونزلهم بالقصبة، وهي الغور الفسيحة الخطة، تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن. وكان يبالغ في ذلك، حتى كان بأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهط. وتجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة، فملأ تلك القصبة بأبنائهم وأخوانهم. وشحنها بالأمم تلو الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء. واختط لهم المساجد، فجمعوا بها لصلاة الجمعة. ونفقت بها الأسواق والصنائع. وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن. ولم يزل محمد بن يوسف بمكان خروجه من بلاد بني توجين إلى أن هلك السلطان. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقتل السلطان أبي حمو وولاية ابنه أبي تاشفين من بعده:

كان السلطان أبو حمو قد اصطفى مسعود ابن عمه برهوم، وتبناه من بين عشيرته

وأولي قرباه لمكان صرامته ودهائه، واختصاص أبيه برهوم المكنى أبا عامر بعثمان بن يغمراسن شقيقه من بين سائر الإخوة؛ فكان يؤثره على بنيه ويفاوضه في شؤونه، ويصله إنى خلواته. وكان قد دفع إلى أبنه عبد الرحمن أبا تاشفين أترابا له من المعلوجي يقومون بخدمته في مرباه ومنشأه، كان منهم هلال المعروف بالقطلاني، ومسامح المسمى بالصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي بن تكرارت وفرج الملقب شقورة، وكان ألصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالا، وكان أبو حمو كثيرا ما يقرعه ويوبخه إرهافا في اكتساب الخلال، وربما يقذع في تقريعه لما كان عفا الله عنه فحاشا فتحفظه لذلك. وكان مع ذلك شديد السطوة متجاوزا بالعقاب حدوده في الزجر والأدب، فكان أولئك المعلوجي تحت رهب منه، وكانوا يغرون لذلك مولاهم أبا تاشفين بأبيه، ويبعثون غيرته بما يذكرون له من اصطفائه ابن أبي عامر دونه. وقارن ذلك أن مسعود بن أبي عامر أبلى في لقاء محمد بن يوسف الخارج على أبي حمو البلاء الحسن عندما رجع من حصار بجاية، فاستحمد له السلطان ذلك، وعير ولده عبد الرحمن بمكان ابن عفه هذا من النجابة والصرامة يستجد له بذلك خلالا ويغريه بالكمال. وكان عمه أبو عامر إبراهيم بن يغمراسن مثريا بما نال من جوائز الملوك في وفاداته، وما أقطع له أبوه وأخوه سائر أيامهما.

ولما هلك سنة ست وتسعين استوصى أخاه عثمان بولده فضمهم ووضع تراثهم بموح ماله، حتى يؤنس منهم الرشد في أحوالهم. حتى إذا كانت غزاة ابنه أبي سرحان مسعود هذه، وعلا فيها ذكره وبعد صيته؛ رأى السلطان أبو حمو أن يدفع إليه تراث أبيه لاستجماع خلاله؛ فاحتمل إليه من المودع. ونمي الخبر إلى ولده أبي تاشفين وبطانته السوء من المعلوجي؛ فحسبوه مال الدولة قد احتمل إليه لبعد عهدهم عما وقع في تراث أبي عامر أبيه، واتهموا السلطان بإيثاره بولاية العهد دون ابنه؛ فأغروا أبا تاشفين بالتوثب على الأمر، وحملوه على الفتك بمشتويه مسعود بن أبي عامر، واعتقال السلطان أبي حمو ليتم له الاستبداد. وتحينوا لذلك قايلة الهاجرة عند منصرف السلطان من مجلسه، وقد اجتمع إليه ببعض حجر القصر خاصة من البطانة، وفيهم مسعود بن أبي عامر والوزراء من بني الملاح.

وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخلصهم السلطان لحجابته سائرأيامه، وكان مسمى الحجابة عندهم قهرمانة الدار والنظر في الدخل والخرج، وهم أهل بيت من

قرطبة كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير والدراهم، وربما دفعوا إلى النظر في ذلك ثقة بأمانتهم؛ ونزل أولهم بتلمسان مع جالية قرطبة فاحترفوا بحرفتهم الأولى، وزادوا إليها الفلاحة. واتصلوا بخدمة عثمان بن يغمراسن وابنه، وكان لهم في دولة أبي حمو مزيد حظوة وعناية؟ فولى على حجابته منهم لأول دولته محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ابنه محمد الأشقر من بعده، ثم ابنه إبراهيم بن محمد من بعدهما. واشترك معه من قرابته علي بن عبد الله بن الملاح؟ فكانا يتوليان مهمة بداره ويحضران خلوته مع خاصته؛ فحضروا يومئذ مع السلطان بعد انقضاء مجلسه كما قلناه؛ ومعه من القرابة مسعود القتيل وحماموش بن عبد الملك بن حنينة، ومن الموالي معروف الكبير ابن أبي الفتوح بن عنتر من ولد نصر بن علي أمير بني يزناتن من توجين وكان السلطان قد استوزره، فلما علم أبو ناشفين باجتماعهم هجم ببطانته عليهم، وغلبوا الحاجب على بابه حتى ولجوه متسايلين بعد أن استمسكوا من إغلاقه، حتى إذا توسطوا الدار اعتوروا السلطان بأسيافهم فقتلوه. وخام أبو تاشفين عنها، فلم يعرجوا عليه. ولاذ أبو سرحان منهم ببعض زوايا الدار، واستمكن من غلقها دونهم، فكسروا الباب وقتلوه، واستلحموا من كان هنالك من البطانة، فلم يفلت إلا الأقل. وهلك الوزراء بنو الملاح، واستبيحت منازلهم. وطاف الهاتف بسكك المدينة بأن أبا سرحان غدر بالسلطان، وأن ابنه أبا تاشفين ثار منه، فلم يخف على الناس الشان. وكان موسى بن علي الكردي قائد العساكر قد سمع الصيحة وركب إلى القصر، فوجده مغلقاً دونه، فظن الظنون، وخشي استيلاء مسعود على الأمر، فبعث عن العباس بن يغمراسن، كبير القرابة، فأحضره عند باب القصر، حتى إذا مر بهم الهاتف واستيقن مهلك أبي سرحان، رد العباس على عقبه إلى منزله. ودخل إلى السلطان أبي تاشفين، وقد أدركه الدهش من الواقعة، فثبته ونشطه لحقه، وأجلسه بمجلس أبيه، وتولى له عقد البيعة على قومه خاصة وعلى الناس عامة، وذلك آخر جمادى الأولى من تلك السنة. وجهز السلطان إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم، وأصبح مثلا في الاخرين، والبقاء لله.

وأشخص السلطان لأول بيعته سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن، وأجازهم إلى العدوة حذراً من مغبة ترشيحهم، وما يتوقع من الفتن على الدولة من تبلهم، وقلد حجابته مولاه هلالاً، فاضطلع بأعبائها، واستبد بالعقد والحل والإبرام

والنقض صدرا من دولته، إلى أن نكبه حسبما نذكره. وعقد ليحيى بن موسى السنوسي من صنائع دولتهم على شلف وسائر أعمال مغراوة، وعقد لمحمد بن سلامة بن علي على عمله من بلاد بني يدللتن من توجين، وعزل أخاه سعدا، فلحق بالمغرب. وعقد لموسى بن علي الكردي على قاصية الشرق، وجعل له حصار بجاية، وأغرى دولته بتشييد القصور واتخاذ الرياض والبساتين؛ فاستكمل ما شرع فيه أبوه من ذلك وأربى عليه؛ فاحتفلت القصور والمصانع في الحسن ما شاءت، واتسعت أخباره على ما نذكره.

الخبر عن نهوض السلطان أبي تاشفين إلى محمد بن يوسف بجبل وانشريش واستيلائه عليه:

كان محمد بن يوسف بعد مرجع السلطان أبي حمو عنه كما ذكرناه قد تغلب على

جبل وانشريش ونواحيه، واجتمع إليه الفل من مغراوة، فاستفحل أمره، واشتدت في تلك النواحي شوكته. وأهم السلطان أبا تاشفين أمره، فاعتزم على النهوض إليه، وجمع لذلك، وأزاح العلل. وخرج من تلمسان سنة تسع عشرة، واحتشد سائر القبائل من زناتة والعرب، وأناخ على وانشريش، وقد اجتمع به توجين ومغراوة مع محمد بن يوسف. وكان بنو تيغرين من بني توجين، بطانة ابن عبد القوي، يرجعون في رئاستهم إلى عمر بن عثمان بن عطية حسبما نذكره، وكان قد استخلص سواه من بني توجين ث ونه فأسفه بذلك، وداخل أبا تاشفين، ووعده أن ينحرف عنه، فاقتحم السلطان عليهم الجبل وانحجروا جميعا بحصن توكال، فخالفهم عمر بن عثمان في قومه إلى السلطان بعد أن حاصرهم ثمانيا، فتخرم الجمع واختل الأمر وانفض الناس فاقتحم الحصن. وتقبض على محمد بن يوسف، وجيء به أسيرا إلى السلطان وهو في موكبه، فعدد عليه، ثم وخزه برمحه. وتناوله الموالي برماحهم فأقعصوه وحمل رأسه على القناة إلى تلمسان، فنصب بشرفات البلد. وعقد لعمر بن عثمان على جبل وأنشريش وعمال بني عبد القوي، ولسعيد العربي من مواليه على عمل المدية. فزحف إلى الشرق، فأغار على آحياء رياح وهم بوادي الجنان حيث الثنية المفضية من بلاد حمزة إلى القبلة، وصبح أحياءهم فاكتسح أموالهم ومضى في وجهه إلى بجاية، فعرس

بساحتها ثلاثا، وبها يومئذ الحاجب يعقوب بن عمر فامتنعت عليه، فظهر له وجه المعذرة لأوليائهم في استحصانها لهم. وقفل إلى تلمسان إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حصار بجاية والفتنة الطويلة مع الموحدين التي كان فيها حتفه وذهاب سلطانه وانقراض الأمر عن قومه برهة من الدهر:

لما رجع السلطان أبو تاشفين من حصار بجاية سنة تسع عشرة اعتمل في ترديد البعوت إلى قاصية الشرق، والإلحاح بالغزو على بلاد الموحدين، فأغزاها جيوشه سنة عشرين، فدوخوا ضواحي بجاية وقفلوا. ثم أغزاهم ثانية سنة إحدى وعشرين، وعليهم موسى بن علي الكردي، فانتهى إلى قسنطينة وحاصرها فامتنعت عليه فأفرج عنها، وابتنى حصن بكر لأول مضيق الوادي، وادي بجاية. وأنزل به العسكر لنظر يحيى بن موسى قائد شلف، وقفل إلى تلمسان. ثم نهض موسى بن علي ثالثة سنة اثنتين وعشرين فدوخ نواحي بجاية ونازلها أياما. وامتنعت عليه فأفرج عنها. ووفد سنة ثلاث وعشرين على السلطان حمزة بن عمر بن أبي الليل كبير البدو بإفريقية صريخا على صاحب إفريقية مولانا السلطان أبي يحيى، فبعث معه العساكر من زناتة وعامتهم من بني توجين وبني راشد، وأفر عليهم القواد وجعلهم لنظر قائده موسى بن على الكربي، ففصلوا إلى إفريقية، فخرج السلطان للقائهم، فانهزموا بنواحي مرمجنة. وتخطفتهم الأيدي فاستلحموا، وقتل مسامح مولاه، ورجع موسى بن علي بالفل فاتهمه السلطان بالادهان، وكان من نكبته ما نذكر في أخباره. وسير العساكر سنة أربع وعشرين فدوخت نواحي بجاية، ولقيه ابن سيد الناس فهزموه، ونجا إلى البلد.

ووفد على السلطان سنة خمس وعشرين مشيخة سليم: حمزة بن عمر بن أبي

الليل وطالب بن مهلهل، الفحلان المتزاحمان في رياسة الكعوب. ومحمد بن مسكين من بني القوس كبراء حكيم، فاستحثوه للحركة واستصرخوه على إفريقية، وبعث معهم العساكر لنظر قائده موسى بن علي. ونصب لهم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد من أعياص الحفصيين. وخرج مولانا السلطان أبو يحيى من تونس للقائهم، وخشيهم على قسنطينة، فسابقهم إليها، فأقام موسى بن علي بعساكره على قسنطينة. وتقدم إبراهيم بن أبي بكر الشهيد في أحياء سليم إلى تونس، فملكها كما ذكرناه في أخبارهم. وامتنعت قسنطينة على موسى بن علي، فأفرج عنها لخمس

عشرة ليلة من حصارها وعاد إلى تلمسان. ثم أغزاه السلطان سنة ست وعشرين في الجيوش، وعهد إليه بتدويخ الضاحية ومحاصرة الثغور، فنازل قسنطينة وأفسد نواحيها. ثم رجع إلى بجاية فحاصرها، حتى إذا

اعتزم على الإقلاع ورأى أن حصن بكر غير صالح لتجمير الكتائب عليهما لبعده، ارتاد للبناء عليها فيما هو أقرب منه، فاختط بمكان سوق الخميس على وادي بجاية مدينة لتجهيز الكتائب بها على بجاية، وجمع الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر، فتمت لأربعين يوما، وسموها تامزيزدكت باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة، وأنزل بها عسكراً يناهز ثلاثة آلاف. وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إلى حيث كانت، والادم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذوا الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم. فثقلت وطأتهم على بجاية واشتد حصارها وغلت أسعارها.

وبعث مولانا السلطان أبو يحيى جيوشه وقواده سنة سبع وعشرين، فسلكوا إلى

بجاية على جبل بني عبد الجبار، وخرج بهم قائدها أبو عبد الله بن سيد الناس إلى ذلك الحصن. وقد كان موسى بن علي عند بلوغ خبرهم إليه استنفر الجنود من ورائه، وبعث إلى القواد قبله بالبراز فالتقى الجمعان بناحية تامزيزدكت، فانكشف ابن سيد الناس ومات ظافر الكبير مقدم الموالي من المعلوجي بباب السلطان واستبيح معسكرهم. ولما سخط السلطان قائده موسى بن علي ونكبه كما نذكره في أخباره أغرى يحيى بن موسى السنوسي في العساكر إلى إفريقية ومعه القواد، فعاثوا في نواحي قسنطينة وانتهوا إلى بلد بونة ورجعوا. وفي سنة تسع وعشرين بعدها وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين صريخا، ووفد معه أو بعده عبد الحق بن عثمان، فحل الشول من بني مرين. وكان قد نزل على مولانا السلطان أبي يحيى منذ سنين، فسخط بعض أحواله ولحق بتلمسان، فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه لنظر يحيى بن موسى. ونصب لهم حمد بن أبي بكر بن أبي عمران من أعياص الحفصيين، ولقيهم مولانا السلطان أبو يحيى بالرياس من نواحي بلاد هوارة، وانخذل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه، وانكشفت جموعه واستولوا على ظعائنه بما فيها من الحريم. وعلى ولديه أحمد وعمر، فبعثوا بهم إلى ظمسان، ولحق مولانا السلطان أبو يحيى بقسنطينة وقد أصابه بعض الجراحة في

حومة الحرب. وسار يحيى بن موسى وابن أبي عمران إلى تونس، فاستولوا عليها. ورجع يحيى بن موسى عنهم بجموع زناتة لأربعين يوما من دخولها، فقفل إلى تلمسان، وبلغ الخبر إلى مولانا السلطان أبي يحيى بقفول زناتة عنهم، فنهض

إلى تونس، وأجهض عنها ابن أبي عمر بعد أن كان أوفد من بجاية على ملك الغرب ابنه أبا زكرياء يحيى، ومعه أبو محمد بن تافراكين من مشيخة الموحدين، صريخا على أبي تاشفين فكان ذلك داعية إلى انتقاض ملكه كما نذكره بعد. وداخل السلطان أبو تاشفين بعض أهل بجاية، ودلوه على عورتها، واستقدموه فنهض إليها ودخلها، ونذر بذلك الحاحب ابن سيد الناس فسابقه إليها، ودخلها يوم نزوله عليها، وقتل من اتهمه بالمداخلة، وانحسم الداء. وأقلع السلطان أبو تاشفين عنها، وولى عيسى بن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت، وأوعز إليه ببناء حصن أقرب إلى بجاية عن تامزيزدكت، فبناه باليالوتة من أعلى الوادي قبالة بجاية. فأخذ بمخنقها واشتد الحصار إلى أن أخذ السلطان أبو الحسن بحجرتهم؛ فانجفلوا جميعا إلى تلمسان؛ وتنفس مخنق الحصار عن بجاية. ونهض مولانا السلطان أبو يحيى بجيوشه من تونس إلى تامزيزدكت سنة اثنتين وثلاثين؛ فخربها في ساعة من نهار كأن لم تغن بالأمس؛ حسبما ذكرنا ذلك في أخباره. والله تعالى أعلم.

الخبر عن معاودة الفتنة مع بني مرين وحصارهم تلمسان ومقتل السلطان أبي تاشفين بن أبي حمو:

كان السلطان أبو تاشفين قد عقد السلم لأول دولته مع السلطان أبي سعيد ملك المغرب؛ فلما انتقض عليه ابنه عمر سنة اثنتين وعشرين من بعد المهادنة الطويلة من لدن استبداده بسجلماسة؛ بعث ابنه القعقاع إلى أبي تاشفين في الأخذ بحجرة أبيه عنه، ونهض إلى مراكش فدخلها. وزحف إليه السلطان أبو سعيد، فبعث أبو تاشفين قائده موسى بن علي في العساكر إلى نواحي تازى؛ فاستباح عمل كارت واكتسح زروعه وقفل. واعتدها عليه السلطان أبو سعيد، وبعث أبو تاشفين وزيره داود بن علي بن مكن رسولاً إلى السلطان أبي علي بسجلماسة، فرجع عنه مغاضبا. وجنح أبو تاشفين بعدها إلى التمسك بسلم السلطان أبي سعيد، فعقد لهم ذلك وأقاموا عليها مدة. فلما وفد ابن مولانا السلطان أبي يحيى على السلطان أبي سعيد ملك المغرب، وانعقد الصهر بينهم كما ذكرناه في أخبارهم، وهلك السلطان أبو

سعيد، نهض السلطان أبو الحسن إلى تلمسان بعد أن قدم رسله إلى السلطان أبي تاشفين في أن يقلع جيوشه عن حصار بجاية،

ويتجافى للموحدين عن عمل تدلس فأبى وأساء الرد، وأسمع الرسل بمجلسه هجر القول. وأقذع لهم الموالي في الشتم لمرسلهم بمسمع من أبي تاشفين؛ فأحفظ ذلك السلطان أبا الحسن، ونهض في جيوشه سنة اثنتين وثلاثين إلى تلمسان؛ فتخطاها إلى تاسالة وضرب لها معسكره وأطال المقامة. وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران. ووافاهم مولانا السلطان أبو يحيى ببجاية؛ وقد جمع لحرب بني عبد الواد وهدم تامزيزدكت؛ وجاء لموعد السلطان أبي الحسن معه أن يجتمعا بعساكرهما لحصار تلمسان فنهض من بجاية إلى تامزيزدكت وأجفل منها عسكر بني عبد الواد وتركوها قواء. ولحقت بها عساكر الموحدين؛ فعاثوا فيها تخريبا ونهبا. وانطلقت الأيدي على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات والأدم، فنسفت وألصقت جدرانها بالأرض. وتنفس مخنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى وراء تخومهم.

وفي خلال ذلك انتقض أبو علي ابن السلطان أبي سعيد على أخيه، وصمد من

مقره بسجلماسة إلى درعة، وفتك بالعامل وأقام فيها دعوته، كما نذكر ذلك بعد. وطار الخبر إلى السلطان أبي الحسن بمحله من تاسالة؛ فنكص راجعا إلى المغرب لحسم دائه؛ وراجع السلطان أبو تاشفين عزه وانبسطت عساكره في ضواحي عمله؛ وكتب الكتائب وبعث بها مددا للسلطان أبي علي. ثم استنفر قبائل زناتة، وزحف إلى تخوم المغرب سنة ثلاث وثلاثين ليأخذ بحجرة السلطان أبي الحسن على أخيه، وانتهى إلى ثغر تاوريرت. ولقيه هنالك تاشفين ابن السلطان أبي الحسن في كتيبة جمرها أبوه معه هنالك لسد الثغور، ومعه منديل بن حمامة شيخ تيربيغين من بني مرين في قومه. فلما برزوا إليه انكشف ورجع إلى تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على أخيه وقتله سنة أربع وثلاثين، جمع لغزو تلمسان وحصارها، ونهض إليها سنة خمس، وقد استنفد وسعه في الاحتفال بذلك. وأحاطت بها عساكره وضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الحفائر أطبقت عليهم، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم. وسرح كتائبه إلى القاصية من كل

جهة؛ فتغلب على الضواحي وافتتح الأمصار جميعا، وخرب وجدة كما يأتي ذكر ذلك كله. وألح عليها بالقتال يغاديها ويراوحها، ونصب المجانيق، وانحجر بها مع السلطان أبي تاشفين زعماء زناتة من بني توجين وبني عبد الواد وكان عليهم في بعض

أيامها اليوم المشهور الذي استلحمت فيه أبطالهم وهلك أمراؤهم. وذلك أن السلطان أبا الحسن كان يباكرهم في الأسحار؛ فيطوف من وراء أسواره التي ضرب عليهم شرطا يرتب فيه المقاتلة، ويثقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل، وأبو تاشفين يبث العيون في ارتصاد فرصة فيه. وأطاف في بعض الأيام منتبذا عن الجملة فكمنوا له؛ حتى إذا سلك ما بين البلد والجبل انقضوا عليه يحسبونها فرصة قد وجدوها؛ وضايقوه حتى كاد سرعان الناس أن يصلوا إليه. وأحس أهل المعسكر بذلك؛ فركبوا زرافات ووحدانا. وركب ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك جناحا عسكره وعقابا جحافله، وتهاوت إليهم صقور بني مرين من كل جو فانكشف عسكر البلد ورجعوا القهقرى، ثم ولوا الإدبار منهزمين لا يلوي أحد منهم على أحد. واعترضهم مهوى الخندق فتطارحوا فيه وتهافتوا على ردمه؛ فكان الهالك يومئذ بالروم أكثر من الهالك بالقتل. وهلك من بني توجين يومئذ عمر بن عثمان كبير الحشم وعامل جبل وانشريش، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن وصاحب القلعة تاوعزدوت وما إليها من عملهم، وهما ما هما في زناتة، إلى أشباه لهما وأمثال استحلموا في هذه الوقائع؛ فقص هذا اليوم جناح الدولة وحطم منها؛ واستمرت منازلة السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين؛ فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلابا. ولجأ السلطان أبو تاشفين إلى باب قصره في لمة من أصحابه، ومعه ولدان عثمان ومسعود، ووزيره موسى بن علي وعبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من أعياص بني مرين، وهو الذي لحق بهم من تونس كما ذكرناه. وسيأتي ذكره وخبره. ومعه يومئذ ابنا أخيه أبو رزين وأبو ثابت، فمانعوا دون القصر مستميتين إلى أن استلحموا ورفعت رؤوسهم على عصي رماح؛ فطيف بها. وغصت سكك البلد من خارجها وداخلها بالعساكر وكظت أبوابها بالزحام، حتى لقد كب الناس على أذقانهم وتواقعوا فوطئوا بالحوافر وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابين، حتى ضاق المذهب بين السقف ومسلك الباب، فانطلقت الأيدي على المنازل نهبا واكتساحا. وخلص السلطان إلى المسجد الجامع، واستدعى رؤوس الفتيا والشورى: أبا زيد عبد الرحمن، وأبا موسى عيسى ابني الإمام، قدمهما من أعماله لمكان معتقده في أهل

العلم، فحضرا ورفعا إليه أمر الناس، وما نالهم من معرة ووعظاه فأناب.
ونادى مناديه برفع الأيدي عن ذلك، فسكن الاضطراب وأقصر العيث.
وانتظم السلطان أبو الحسن

أمصار المغرب الأوسط وعمله إلى سائر أعماله، وتاخم الموحدين بثغوره، وطمس رؤوس الملك لآل زيان ومعالمه، واستتبع زناتة عصبا تحت لوائه من بني عبد الواد وتوجين ومغراوة، وأقطعهم ببلاد المغرب أسهاما أدالهم بها من تراثهم بأعمال تلمسان، فانقرض ملك آل يغمراسن برهة من الدهر إلى أن أعاده منهم أعياص سموا إليه بعد حين عند نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان كما نذكره، فأومض بارقة وهبت ريحه. والله يؤتي فلكه من يشاء.

الخبر عن رجال دولته وهم موسي بن علي ويحيى بن موسي ومولاه هلال وأوليتهم ومصائر أمولهم:

واختصاصهم بالذكر لما طار من شهرتهم وارتفع من صيتهم: فأما موسى بن علي الحاجب الهالك مع السلطان، فأصله من قبيلة الكرد من أعاجم المشرق، وقد أشرنا إلى الخلاف في نسبهم بين الأمم. وذكر المسعودي منهم أصنافا سماهم في كتابه من الشاهجان والبرسان والكيكان إلى آخرين منهم، وإن مواطنهم ببلاد أذربيجان والشام والموصل، وإن منهم نصارى على رأي اليعقوبية وخوارج على رأي البراءة من عثمان وعلي. انتهى كلامه. وكان منهم طوائف بجبل شهرزور من عراق العرب، وعافتهم يتقلبون في الرحلة وينتجعون لسائمتهم مواقع الغيث، ويتخذون الخيام لسكناهم من اللبود، وجل مكاسبهم الشاء والبقر من الأنعام، وكانت لهم عزة وامتناع بالكثرة ورياسات ببغداد أيام تغلب الأعاجم على الدولة واستبدادهم بالرياسة. ولما طمس ملك بني العباس، وغلب الططر على بغداد سنة ست وخمسين وستماية، وقتل ملكهم هلاون آخر خلفاء العباسيين، وهو المستعصم. ثم ساروا في ممالك العراق وأعماله، فاستولوا عليها، وعبر الكثير من الكرد نهر الفرات فرارا أمام الططر لما كانوا يدينون به من المجوسية. وصاروا في إيالة الترك، فاستنكف أشرافهم وبيوتاتهم من المقام تحص سلطانهم. وأجاز منهم إلى المغرب عشيرتان يعرفان ببني لوين وبين تابير فيمن إليهم مر الأتباع، ودخلوا المغرب لآخر دولة الموحدين. ونزلوا على المرتضى بمراكش، فأحسى تلقيهم وأكرم مثواهم، وأسنى لهم الجراية والأقطاع، وأحلهم بالمحل الرفيع من الدولة ولما انتقض أمر الموحدين بحدثان وصولهم صاروا إلى ملكة بني مرين، ولحق

بعضهم بيغمراسن بن زيان، ونزع إلى صاحب إفريقية يومئذ المستنصر، بيت من بني تابير لا أعرفهم؛ كان منهم محمد بن عبد العزيز المعروف بالمزوار، صاحب مولانا السلطان أبي يحيى وآخرون غيره: منهم وكان من أشهر من بقي في إيالة بني مرين منهم. ثم من بني تابير علي بن حسن بن صاف وأخوه سلمان ومن بني لوين خضر بن محمد، ثم بنو محمود، ثم بنو بوصة. وكانت رياسة بني تابير لسلمان وعلي، ورياسة لوين الخضر بن محمد. وكادت تكون الفتنة بينهم كما كانت في مواطنهم الأولى؛ فإذا تعدوا للحرب توافت إليهم أشياعهم من تلمسان، وكان نصالهم بالسهام لما كانت القسي سلاحهم. وكانت من أشهر الوقائع بينهم وقيعة بفاس سنة أربع وسبعين وستماية؛ جمع لها خضر رئيس بني لوين وسليمان وعلي رئيسا بني تابير، واقتتلوا خارج بأب الفتوح. وتركهم يعقوب بن عبد الحق لشأنهم من الفتنة حياء منهم؛ فلم يعرض لهم. وكان مهلك سلمان منهم بعد ذلك مرابطا لثغر طريف عام تسعين وستماية، وكان لعلي بن حسن ابنه موسى اصطفاه السلطان يوسف بن يعقوب. وكشف له الحجاب عن داره، ورئي بين حرمه؛ فتمكنت له دالة سخط بسببها بعض الأحوال مما لم يرضه، فذهب مغاضبا ودخل إلى تلمسان أيام كان يوسف بن عبد الحق محاصرا لها؛ فتلقاه عثمان بن يغمراسن من التكرمة والترحيب بما يناسب محله وقومه ومنزلته من اصطناع السلطان. وأشار يوسف بن يعقوب على أبيه باستمالته فلقياه في حومة القتال، وحادثه واعتذر له بكرامة القوم إياه فحضه على الوفاء لهم، ورجع إلى السلطان فخبره الخبر فلم ينكر عليه. وأقام هو بتلمسان، وهلك أبوه علي بالمغرب سنة سبع وسبعماية.

ولما هلك عثمان بن يغمراسن زاده بنوه اصطناعا ومداخلة، وخلطوه بأنفسهم، وعقدوا له على العساكر لمحاربة أعدائهم، وولوه الأعمال الجليلة والرتب الرفيعة من الوزارة والحجابة. ولما هلك السلطان أبو حمو، وقام بأمره ابنه أبو تاشفين، وكان هو الذي تولى له أخذ البيعة على الناس، غص بمكانه مولاه هلال. فلما استبد عليه، وكان كثير أما ينافي موسى بن علي وينافسه، فخشي على نفسه وأجمع على إجازة البحر للمرابطة بالأندلس، فبادره هلال وتقبض عليه وغربه إلى العدوة ونزل بغرناطة، وانتظم في

الغزاة المجاهدين، وأمسك عن جراية السلطان، فلم يمد إليها يدا أيام مقامه، وكانت من أنزه ما جاء به وتحدث بها الناس فأغربوا، وأنفذت جوانح هلال لها حسدا وعداوة؛

فأغرى سلطانه بخطاب ابن الأحمر في استقدامه، فأسلمه إليه. واستعمله السلطان في حروبه وعلى قاصيته حتى كان من نهوضه بالعساكر إلى إفريقية للقاء مولانا السلطان أبي يحيى سنة سبع وعشرين. وكانت الدبرة عليه. واستلحمت زناتة، ورجع في الفل؛ فأغرى هلال السلطان وألقى في نفسه التهمة به. ونمي ذلك إليه؛ فلحق بالعرب الدواودة، وعقد مكانه على محاصرة بجاية ليحيى بن موسى صاحب شلف، ونزل هو على سليمان ويحيى ابني علي بن سباع بن يحيى من أمراء الدواودة المذكورين في أخبارهم، فلقوه مبرة وتعظيما، وأقام بين أحيائهم مدة. ثم استقدمه السلطان ورجعه إلى محله من مجلسه، ثم تقبض عليه لأشهر، وأشخصه إلى الجزائر فاعتقله بها، وضيق عليه محبسه ذهابا مع أغراض منافسة هلال، حتى إذا أسخط هلالا استدعاه من محبسه أضيق ما كان، فانطلق إليه. فلما تقبض على هلال قلد موسى بن علي حجابته، فلم يزل مقيما لرسمها إلى يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان، فهلك مع أبي تاشفين وبنيه في ساحة قصرهم كما قلناه. وانقضى أمره. والبقاء لته.

وانتظم بنوه بعد مهلكه في جملة السلطان أبي الحسن، وكان كبيرهم سعيد قد

خلص من بين القتلى في تلك الملحمة بباب القصر بعد هدء من الليل مثخنا بالجراح، وكانت حياته بعدها تعد من الغرائب، ودخل في عفو السلطان إلى أن عادت دولة بني عبد الواد، فكان له في سوقها نفاق كما نذكره والله غالب على أمره.

وأما يحيى بن موسى فأصله من بني سنوس إحدى بطون كومية، ولهم ولاء في

بني كمي، بالاصطناع والتربية. ولما فصل بنو كمي إلى المغرب قعدوا عنهم، واتصلوا ببني يغمراسن فاصطنعوهم، ونشأ يحيى بن موسى في خدمة عثمان وبنيه واصطناعهم. ولما كان الحصار ولاه أبو حمو مهمة من الطواف بالليل على الحرس بمقاعدهم من الأسوار، وقسم القوت على المقاتلة بالمقدار، وضبط الأبواب، والتقدم في حومة القتال، وكان له أعوان على ذلك من خدامه، قد لزموا الكون معه في البكر والاصال والليل والنهار،

وكان يحيى هذا منهم، فعرفوا له خدمته وذهبوا إلى اصطناعه. وكان أول ترشيحه ترديده أبي يوسف يعقوب بمكانه من حصارهم فيما يدور بينهم من المضاربة، فكان يجلي في ذلك ويؤتي من غرض مرسله. ولما خرجوا من الحصار أوفوا به على رتب الاصطناع والتنويه.

ولما ملك أبو تاشفين استعمله بشلف مستبدا بها، وأذن له في اتخاذ الآلة. ثم لما
عزل موسى بن علي عن حرب الموحدين وقاصية الشرق عزله به، وكانت المدية وتنس من عمله. فلما نازل السلطان أبو الحسن تلمسان راسله في الطاعة والكون معه؛ فتقبله وجأجأ به من مكان عمله؛ فقدم عليه بمخيمه على تلمسان؛ فاختصه بإقباله ورفع مجلسه من بساطه، ولم يزل عنده بتلك الحال إلى أن هلك بعد افتتاح تلمسان. والله مصرف الأقدار.

وأما هلال فأصله من سبي النصارى القطلونيين، أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو، فأعطاه ولده أبا تاشفين فيما أعطاه من موالي المعلوجي، ونشأ معه تربيا، وكان مختصا عنده بالمداخلة والدالة، وتولى كبر تلك الفعلة التي فعلوا بالسلطان أبي حمو. ولما ولي بعده ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان مهيبا فظا غليظا، فقعد مقعد الفصل ببابه وأرهب الناس سطوته، وزحزح المرشحين عن رتب المماثلة إلى التعلق بأهدابه، فاستولى على أمر السلطان. ثم حذر مغبة الملك وسوء العواقب، واستأذن السلطان في الحج وركب إليه من هنين بعض السفن اشتراها بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة وأقام كاتبه الحاج محمد بن حونته بباب السلطان على رسم النيابة عنه. وأقلع سنة أربع وعشرين فنزل بالإسكندرية، وصحب الحاج من مصر في جملة الأمير عليهم، ولقي في طريقه سلطان السودان من مالي منسى موسى، واستحكمت بينهما المودة. ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان، فلم يجد مكانه من السلطان. ولم يزل بعد ذلك يتنكر له وهو يسايسه بالمداراة والاستجداء إلى أن سخطه؛ فتقبض عليه سنة تسع وعشرين وأودعه سجنه؛ فلم يزل معتقلا إلى أن هلك من وجع أصابه قبيل فتح تلمسان ومهلك السلطان بأيام، فكان آية عجباء في تقارب مهلكهما واقتران سعادتهما ونحوسهما. وقد كان السلطان أبو الحسن يتبع الموالي الذين شهدوا مقتل السلطان أبي حمو، وأفلت هلال هذا من عقابه بموته. والله بالغ حكمه.

الخبر عن انتزاء عثمان بن جرار علي ملك تلمسان بعد نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان وعود الملك بذلك لبني زيان:

كان بنو جرار هؤلاء من فصائل تيدوكسن بن طاع الله وهم بنو جرار بن يعلى بن تيدوكسن، وكان بنو محمد بن زكدان يغصون بهم مذ أول الأمر، حتى صار الملك إليهم واستندوا به، فجروا على جميع الفصائل من عشائرهم ذيل الاحتقار. ونشأ عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار من بينهم مرموقا بعين التجلة والرياسة، وسعى عند السلطان أبي تاشفين بأن في نفسه تطاولا للرئاسة فاعتقله مدة، وفرمن حبسه فلحق بملك المغرب السلطان أبي سعيد فآثر محله وأكرم نزله، واستقر بمثواه فنسك وزهد. واستأذن السلطان عند تغلبه على تلمسان في الحج بالناس فأذن له، وكان قائد الركب من المغرب إلى مكة سائر أيامه، حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن على أعمال الموحدين وحشد أهل المغرب من زناتة والعرب لدخول إفريقية اندرج عثمان هذا في جملته، واستأذنه قبيل القيروان في الرجوع إلى المغرب فاذن له. ولحق بتلمسان فنزل على أميرها من ولده الأمير أبي عنان، كان قد عقد له على عملها، ورشحه لولاية العهد بولايتها، فازدلف إليه بما بثه من الخبر عن أحوال أبيه، فتلطف فيما أوح سمعه من تورط أبيه في مهالك إفريقية، وإياسه من خلاصه، ووعده بمصير الأمر إليه على ألسنة الحزى والكهان. وكان يتظنن فيه أن لديه من ذلك علما، وعلى تفيئة ذلك كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان. وظهر مصداق ظنه وإصابة قياسه، فأغراه بالتوثب على ملك أبيه بتلمسان والبدار إلى فاس لغلب منصور ابن أخيه أبي مالك عليها، وكان استعمله جده أبو الحسن هنالك وأراه آية سلطانه وشواهد ملكه. وتحيل في إشاعة مهلك السلطان أبي الحسن وإلقائه على الألسنة حتى أوهم صدقه. وتصدى الأمير أبو عنان للأمر، وتسايل إليه الفل من عساكر بني مرين، فاستلحق وبث العطاء وأعلن بالدعاء لنفسه في ربيع سنة تسع وأربعين، وعسكر خارج تلمسان للنهوض إلى المغرب. ثم استعمل عثمان بن جرار على تلمسان وعملها وارتحل إلى المغرب كما نذكره في أخبارهم. ولما فصل دعا عثمان لنفسه وانتزى على كرسيه، واتخذ الآلة وأعاد من ملك بني عبد الواد رسما لم يكن

لآل جرار، واستبد أشهرا قلائل إلى أن خلص إليه من آل زيان من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد في

نصابه، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة أبي سعيد وأبي ثابت من أل يغمراسن وما كان فيها من الأحداث:

كان الأمير يحيى جدهما من أكبر ولد يغمراسن بن زيان، وكان ولي عهده بعد
مهلك أخيه عمر الأكبر. ولما تغلب يغمراسن على سجلماسة سنة إحدى وستين وستماية استعمله عليها، فأقام بها أحوالا، وولد له هنالك ابنه عبد الرحمن. ثم رجع إلى تلمسان فهلك بها، ونشأ عبد الرحمن بسجلماسة، ولحق بتلمسان بعد أبيه، فأقام مع بني أبيه
إلى أن غص السلطان بمكانه وغربه إلى الأندلس، فمكث فيها حينا وهلك في مرابطته بثغر قرمونة في بعض أيام الجهاد. وكان له بنون أربعة: يوسف وعثمان والزعيم وإبراهيم، فرجعوا إلى تلمسان وأوطنوها أعواما، حتى إذا استولى السلطان أبو الحسن
على ملكهم وأضاف إلى دولته دولتهم نقلهم من تلمسان إلى المغرب في جملة أعياصهم. ثم سألوا إذنه في المرابطة بثغور الأندلس التي في عمله؛ فأذن لهم وفرض له العطاء وأنزلهم بالجزيرة؛ فكانت لهم في الجهاد مواقف مذكورة ومواطن معروفة. ولما استنفر السلطان أبو الحسن زناتة لغزو إفريقية سنة ثمان وأربعين كانوا في جملته مع قومهم بني عبد الواد وفي رايتهم، ومكانهم معلوم بينهم. فلما اضطرب أمر السلطان أبي الحسن، وتألب عليه الكعوب من بني سليم أعراب إفريقية، وواضعوه الحرب بالقيروان، كان بنو عبد الواد أول النازعين عنه إليهم. فلما كانت النكبة والحجز بالقيروان، وانطلقت أبدي الأعراب على الضواحي، وانتقض المغرب من سائر أعماله، أذنوا لبني عبد الواد في اللحاق بقطرهم ومكان عملهم، فمروا بتونس وأقاموا بها أياما. وخلص الملأ منهم نجيا في شأن أمرهم ومن يقدمون عليهم، فأصفقوا بعد الشورى على عثمان بن عبد الرحمن، واجتمعوا عليه لعهده بهم يومئذ، وقد خرجوا به إلى الصحراء وأجلسوه بباب مصلى العيد من تونس على درقة. ثم ازدحموا عليه بحيث توارى شخصه عن الناس، يسلمون عليه بالأمارة، ويعطونه الصفقة على

الطاعة والبيعة، حتى استكملوا جميعا، ثم انطلقوا به إلى رجالهم. واجتمع مغراوة أيضا إلى أميرهم علي بن راشد بن محمد بن ثابت بن منديل الذي ذكرناه من قبل، وتعاهدوا على الصحابة إلى أعمالهم أيرص والمهادنة آخر الأيام واستئثار كل بسلطانه وتراث سلفه، وارتحلوا على تفيئة ذلك جميعا إلى المغرب. وشنت البوادي عليهم الغارات في كل وجه، فلم يظفروا منهم بقلامة

الظفر: مثل ونيفن وبرية وأهل جبل بني ثابت. ولما مروا ببجاية وكان فيها فل من مغراوة وتوجين، نزلوا بها مند غلبوا على أعمالهم، وصاروا في جند السلطان، فارتحلوا معهم. واعترضهم بجبل الزاب برابرة زواوة، فأوقعوا بهم. وظهر من نجدتهم وبلائهم في الحروب ما هو معروف لأوليهم. ثم لحقوا بشلف فتلقتهم قبائل مغراوة، وبايعوا سلطانهم عليم بن راشد فاستوسق ملكه.

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

المجلد السابع

من تاريخ العلامة ابن خلدون

وانصرف بنو عبد الواد والأميران أبو سعيد وأبو ثابت بعد أن أحكموا العهد وأبرموا الوثاق مع علي بن راشد وقومه. وكان في طريقهم بالبطحاء أحياء سويد، ومن معهم من أحلافهم، قد نزلوا هنالك مع شيخهم ونزمار بن عريف، منهزمهم من تاسالة، أمام جيوش السلطان أبي عنان؛ فأجفلوا من هنالك ونزل بنو عبد الواد مكانهم؛ وكان في جملتهم جماعة من بني جرار بن تيدوكسن، كبيرهم عمران بن موسى؛ ففر إلى ابن عمه عثمان بن يحيى بن جرار تلمسان؛ فعمد له على حرب أبي سعيد وأصحابه؛ فنزع الجند الذين خرجوا معه إلى السلطان أبي سعيد. وانقلب هو إلى تلمسان، والقوم في أثره؛ فأدرك بطريقة وقتل. ومر السلطان إلى البلد؛ فثارت العامة بعثمان بن جرار؛ فاستأمن لنفسه من السلطان فأمنه؛ ودخل إلى قصره آخر جمادى الآخرة من سنة تسع وأربعين؛ فاقتعد أريكته وأصدر أوامره واستوزر واستكتب وعقد لأخيه أبي ثابت الزعيم على ما وراء بابه من شؤون ملكهما، وعلى القبيل والحروب، واقتصر هو على ألقاب الملك وأسمائه ولزم الدعة. وتقبض لأول دخوله على عثمان بن يحيى بن جرار؛ فأودعه المطبق إلى أن مات في رمضان من سنته؟ ويقال قتيلا. وكان من أول غزوات السلطان غزاته إلى كومية، وذلك أن كبيرهم إبراهيم بن عبد الملك كان شيخا عليهم منذ حين من الدهر، وكان ينتسب في بني عابد، وهم قوم عبد المؤمن بن علي من بطون كومية. فلما ونع هذا الهرج بتلمسان حسب أنه لا تتجلى غيابته، وحدثته نفسه بالانتزاء فدعا لنفسه، وأضرم بلاد كومية وما إليها من السواحل نارا وفتنة. وجمع له السلطان أبو ثابت، ونهض

إلى كومية فاستباحهم قتلا وسبيا، واقتحم هنين، ثم ندرومة بعدها. وتقبض على إبراهيم بن عبد الملك الخارج فجاء به معتقلا إلى تلمسان وأودعه السجن؛ فلم يزل به إلى أن قتل بعد أشهر. وكانت أمصار المغرب الأوسط وثغوره لم تزل على طاعة السلطان أبي الحسن والقيام بدعوته، وبها عماله وحاميته. وأقربها إلى تلمسان مدينة وهران؛ كان بها القائد عبو بن سعيد بن أخانا من صنائع بني مرين؛ وقد ضبطها وثقفها وملاها أقواتا ورجلا وسلاحا؛ وملا مرساها أساطيل، فكان أول ما قدموه من أعمال النهوض إليه؛ فنهض السلطان أبو ثابت بعد أن جمع قبائل زناتة والعرب، ونزل على وهران وحاصرها أياما. وكان في قلوب بني راشد أحلافهم مرض، فداخلوا قائد البلد في الانتقاض على السلطان أبي ثابت، ووعدوه الوفاء بذلك عند المناجزة، فبرز وناجزهم الحرب، فانهزم بنو راشد وجروا الهزيمة على من معهم. وقتل حمد بن يوسف بن عنان بن فارس أخي يغمراسن بن زيان من أكابر القرابة، وانتهب المعسكر. ونجا السلطان أبو ثابت إلى تلمسان إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن لقاء أبي ثابت مع الناصر ابن السلطان أبي الحسن وفتح وهران بعدها:

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان قد لحق بتونس؛ فأقام بها والعرب محاصرون له ينصبون الأعياص من الموحدين لطلب تونس واحدا بعد آخر كما ذكرناه في أخبارهم. وبينما هو يؤمل الكرة ووصل المدد من المغرب الأقصى إذ بلغه الخبر بانتثار السلك أجمع؛ وبانتقاض ابنه وحافده، ثم استيلاء أبي عنان على المغرب كله، ورجوع بني عبد الواد ومغراوة وتوجين إلى ملكهم بالمغرب الأوسط. ووفد عليه يعقوب بن علي أمير الدواودة؛ فاتفق مع عريف بن يحيى، أمير سويد وكبير مجلس السلطان، على أن يغرياه ببعث ابنه الناصر إلى المغرب الأوسط للدعوة التي كانت قائمة له بأمصاره في الجزائر ووهران وجبل وانشريش، وكان به نصر بن عمر بن عثمان بن عطية قائما بدعوته، وأن يكون عريف بن نصر في جملة الناصر لمكانه من السلطان ومكان قومه من الولاية. وكان ذلك من عريف تفاديا من المقام بتونس، فأجاب إليه السلطان وبعثهم جميعا،

ولحق الناصر ببلاد حصين فأعطوه الطاعة وارتحلوا معه. ولقيه العطاف والديالم وسويد فاجتمعوا إليه وتألبوا معه، وارتحلوا يريدون منداس. وبينما الأمير أبو ثابت يروم معارضة

الغزو إلى وهران إذ فجأه الخبر بذلك، فطير به إلى السلطان أبي عنان. وجاء العسكر من بني مرين مددا صحبة أبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، كان مستنفرا بالمغرب منذ نهوضهم إلى القيروان. وبعث عنه أبوه، فجاء مع المدد من العساكر والمال. ونهض أبو ثابت من تلمسان أول المحرم سنة خمسين، وبعث إلى مغراوة بالخبر فقعدوا عن مناصرته. ولحق ببلاد العطاف فلقيه الناصر هنالك في جموعه بوادي ورك آخر شهر ربيع الأول، فانكشفت جموع العرب وانهزموا. ولحق الناصر بالزاب؛ فنزل على ابن مزني ببسكرة، إلى أن أصحبه من رجالات سليم من أوصله إلى أبيه بتونس. ولحق عريف بن يحيى بالمغرب الأقصى، واحتل عند السلطان أبي عنان بمكانه من مجلسهم، فحصل على البغية. ورجع العرب كلهم إلى طاعة أبي ثابت وخدمته، واستراب بصغير بن عامر بن إبراهيم؛ فتقبض عليه وأشخصه معتقلا مع البريد إلى تلمسان؛ فاعتقل بها إلى أن أطلق بعد حين. وقفل أبو ثابت إلى تلمسان فتلوم بها أياما. ثم نهض إلى وهران في جمادى من سنته، فحاصرها أياما ثم افتتحها عنوة، وعفا عن علي بن أجانا القائم بها بعد مهلك أخيه عبو وعلى من معه. وأطلق سبيلهم واستولى على ضواحي وهران وما إليها، ورجع إلى تلمسان، وقد استحكمت العداوة بينه وبين مغراوة، وقد كان استجرها ما قدمناه من نعودهم عن نصره؛ فنهض إليهم في شوال من سنته والتقوا في عدوة وادي رهيو فاقتتلوا مليا. ثم انكشفت مغراوة ولحقوا بمعاقلهم، واستولى أبو ثابت على معسكرهم، وملك مازونة، وبعث ببيعتها إلى أخيه السلطان أبي سعيد. وكان على إثر ذلك وصول السلطان أبي الحسن من تونس كما نذكر، إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول السلطان أبي الحسن من تونس ونزوله بالجزائر وما دار بينه وبين أبي ثابت من الحروب ولحاقه بعد الهزيمة بالمغرب:

كان السلطان أبو الحسن بعد واقعة القيروان وحصار العرب إياه، قد طال مقامه بتونس. واستدعاه أهل المغرب الأقصى وانتقض عليه أهل بلاد الجريد، وبايعوا للفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى؟ فاجمع الرحلة إلى المغرب وركب السفن من تونس أيام الفطر من سنة خمسين؟ فعصفت به

الريح وأدركه الغرق؛ فغرق أسطوله على سواحل بجاية؛ ونجا بدمائه إلى بعض الجزر هنالك، حتى لحقه أسطول من أساطيله، فنجا فيه

إلى الجزائر وبها حمو بن يحيى بن العسري قائده وصنيعة أبيه، فنزل عليه. وبادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء. واتصل خبره بونزمار بن عريف وهو في أحياء سويد؛ فوفد عليه في مشيخة من قومه. ووفد معه نصر بن عمر بن عثمان صاحب جبل وانشريش من بني تيغرين، وعدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي الثائر بنواحي المدية من ولد عبد القوي، فأعطاه الطاعة. واستحثوه للخروج معهم فردهم للحشد، فجمعوا من إليهم من قبائل العرب وزناتة. وبينما الأمير أبو ثابت ببلاد مغراوة محاصرا لهم في معاقلهم، إذ بلغه الخبر بذلك في ربيع سنة إحدى وخمسين؛ فعقد السلم معهم ورجع إلى قتال هؤلاء؛ فأخذ علي منداس وخرج إلى السرسو قبلة وانشريش. وأجفل أمامه ونزمار، وجموع العرب الذين معه. ولحق به هنالك مدد السلطان أبي عنان قائدهم يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي؛ فاتبع أبو ثابت آثار العرب وشردهم. ولحق أحياء حصين بمعقلهم من جبل تيطرى. ثم عطف على المدية ففتحها، وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولي من صنائعهم. ثم نهض إلى حصين فافتتح عليهم الجبل فلاذوا بالطاعة، وأعطوا أبناءهم رهنا عليها فتجاوزها إلى وطن حمزة فدوخها، واستخدم قبائلها من العرب والبربر، والسلطان أبو الحسن أثناء ذلك مقيم بالجزائر. ثم قفل أبو ثابت إلى تلمسان، وقد كان استراب يحيى بن رحو وعسكره من بني مرين، وأنهم داخلوا السلطان أبا الحسن، وبعث فيه إلى السلطان أبي عنان فأداله بعيسى بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب؟ فبعثه قائدا على الحصة المرينية؛ فتقبض على يحيى بن رحو ولحقوا مع أبي ثابت بتلمسان. ثم أجازوا إلى المغرب، واعتز السلطان أبو الحسن بعد منصرفهم بابنه الناصر مع أوليائه من زناتة والعرب؛ فاستولى على المدية وقتل عثمان بن عيسى الجلولي. ثم تقدم إلى مليانة فملكها وإلى تيمزوغت كذلك. وجاء على أثره السلطان أبو الحسن أبوه، وقد اجتمعت إليه الجموع من زغبة وزناتة، ومن عرب إفريقية سليم ورياح: مثل محمد بن طالب بن مهلهل ورجال من عشيره، وعمر بن علي بن أحمد الدواودي وأخيه أبي دينار ورجالات من قومهما. وزحف على هذه التعبية، وابنه الناصر أمامه. فأجفل

علي بن راشد وقومه مغراوة عن بلادهم إلى البطحاء. وطير الخبر إلى أبي ثابت فوافاه في قومه وحشوده، وزحفا جميعا إلى السلطان أبي الحسن. والتقى الجمعان بتنغمرين من شلف، وصابروا

ملئا. وانكشف السلطان أبو الحسن وقومه، وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأثبته وهلك آخر يومه، وطعن الناصر بعض فرسان مغراوة فأثبته وهلك آخر يومه. وقتل محمد بن علي العزفي قائد أساطيله وابن البواق والقبائلي كاتبه. واستبيح معسكره وما فيه من متاع وحرم، وخلص بناته إلى وانشريش، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان بعد استيلائه على الجبل. وخلص السلطان أبو الحسن إلى أحياء سويد بالصحراء؛ فنجا به ونزمار بن عريف إلى سجلماسة كما نذكره في أخباره. ودوخ أبو ثابت بلاد بني توجين وقفل إلى تلمسان.

الخبر عن حروبهم مع مغراوة واستيلاء أبي ثابت علم بلادهم. ثم علي الجزائر ومقتل علي بن راشد بتنس علي إثر ذلك:

كان بين هذين الحيين من عبد الواد ومغراوة فتن قديمة سائر أيامهم؛ قد ذكرنا الكثير منها في أخبارهم. وكان بنو عبد الواد قد غلبوهم على أوطانهم حين قتل راشد بن محمد في جلائه أمامهم بين زواوة. ولما اجتمعوا بعد نكبة القيروان على أميرهم علي بن راشد، وجاءوا من إفريقية إلى أوطانهم من بني عبد الواد، لم يطيقوهم حينئذ أن يغلبوهم. فرجعوا إلى توثيق العقد وتأكيد العهد؛ فأبرموه وأقاموا على الموادعة والتظاهر على عدوهم، وعروق الفتنة تنبض في كل منهم. ولما جاء الناصر من إفريقية، وزحف إليه أبو ثابت، قعد عنه علي بن راشد وقومه؛ فأعتدهم عليها وأسرها في نفسه. ثم اجتمعوا بعد ذلك للقاء السلطان أبي الحسن حتى انهزم ومضى إلى المغرب. فلما رأى أبو ثابت أن قد كفى عدوه الأكبر، وفرغ لعدوه الأصغر نظر في الانتقاض عليهم. فبينما هو يروم أسباب ذلك إذ بلغه الخبر بأن بعض رجالات بني كمي من مغراوة جاؤوا إلى تلمسان ليغتالوه؛ فحمي لها أنفه. وأجمع لحربهم. وخرج من تلمسان فاتحة اثنتين وخمسين. وبعث في أحياء زغبة وبني عامر وسويد؛ فجاءوه بفارسهم وراجلهم وظعائنهم. وزحف إلى مغراوة فخاموا عن لقائه، وتحصنوا بالجبل المطل على تنس؛ فحاصرهم فيه أياما اتصلت فيها الحروب وتعددت الوقائع. ثم ارتحل عنهم فجال في نواحي البلد، ودوخ أقطارها وأطاعته مليانة والمدية وبرشك وشرشال. ثم تقدم بجموعه إلى الجزائر؛ فأحاط بها وفيها فل بني

مرين، وعبد الله ابن السلطان أبي الحسن، تركه هنالك صغيرا في كفالة علي بن سعيد بن أجانا، فغلبهم على البلاد وأشخصهم في البحر

إلى المغرب. وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حصين. وعقد على الجزائر لسعيد بن موسى بن علي الكردي، ورجع إلى مغراوة فحاصرهم بمعقلهم الأول، بعد أن انصرفت العرب إلى مشاتيها؛ فاشتد الحصار على مغراوة وأصاب مواشيهم العطش؛ فانحطت دفعة واحدة من على أعلى الجبل تطلب المورد؛ فأصابهم الدهش. ونجا ساعتئذ علي بن راشد إلى تنس، فأحاط به أبو ثابت أياما. ثم اقتحمها عليه غلابا منتصف شعبان من سنته، فاستعجل المنية وتحامل على نفسه فذبح نفسه، وافترقت مغراوة من بعده وصارت أوزاعا في القبائل. وقفل أبو ثابت إلى أن كان من حركة السلطان ما نذكره في

الخبر عن استيلاء السلطان أبي عنان علي تلمسان وانقراض أمر بني عبد الواد ثانية:

لما لحق السلطان أبو الحسن بالمغرب، وكان من شأنه مع ابنه أبي عنان إلى أن هلك

بجبل هنتاتة ما نذكره في أخبارهم. فاستوسق ملك المغرب للسلطان أبي عنان، وفرغ لعدوه. وسما لاسترجاع الممالك التي انتزعها أبوه ممن توثب عليها؛ وكان قد بعث إليه علي بن راشد؟ من مكان امتناعه بجبل تنس يسأل منه الشفاعة؛ فرد أبو ثابت شفاعته وأحفظه ذلك. وبلغه مقتل علي بن راشد؛ فأجمع غزو تلمسان، ونذر بذلك أبو سعيد وأخوه؛ فخرج أبو ثابت لحشد القبائل من زناتة والعرب منتصف ذي القعدة، ونزل بوادي شلف. واجتمع الناس عليه، ووصلته هنالك بيعة تدلس في ربيع سنة ثلاث وخمسين. غلب عليها الموحدين جابر الخراساني من صنائعهم، وبلغه بمكانه ذلك زحف السلطان أبي عنان؛ فرجع إلى تلمسان؛ ثم خرج إلى المغرب. وجاء على أثره أخوه السلطان أبو سعيد في العساكر من زناتة ومعه بنو عامر من زغبة والفل من سويد؛ إذ كان جمهورهم قد لحقوا بالمغرب لمكان عريف بن يحيى وابنه من ولاية بني مرين؛ فزحفوا على هذه التعبئة. وزحف السلطان أبو عنان في أمم المغرب لهن زناتة والعرب المعقل والمصامدة وسائر طبقات الجنود والحشد، وانتهوا جميعاً إلى أنكاد من بسيط وجدة؛ فكان اللقاء هنالك آخر ربيع الثاني من سنة ثلاث وخمسين. وأجمع بنو عبد

الواد على صدمة المعسكر وقت القائلة، وبعد ضرب الأبنية وسقاء الركاب وافتراق أهل المعسكر في حاجاتهم؛ فأعجلوهم عن ترتيب المصاف. وركب السلطان أبو عنان لتلافي الأمر، فاجتمع إليه أوشاب من الناس وانتقض سائر المعسكر، ثم زحف إليهم فيمن حضره وصدقوهم القتال؛ فاختل مصافهم ومنحوا أكتافهم وخاضوا بحر الظلماء. واتبع بنو مرين آثارهم، وتقبض على ألي سعيد

ليلتئذ فقيد أسيرا إلى السلطان، فأحضره بمشهد الملأ ووبخه. ثم تل على محبسه وقتل لتاسعه من ليالي اعتقاله. وارتحل أبو عنان إلى تلمسان، ونجا الزعيم أبو ثابت بمن معه من فل عبد الواد، ومن خلص إليه منهم ذاهبا إلى بجاية ليجد في إيالة الموحدين وليجة من عدوه، فبيتته زواوة في طريقه. وأبعد عن صحبه وأرجل عن فرسه. وذهب راجلا عاريا، ومعه رفقاء من قومه: منهم أبو زيان محمد ابن أخيه السلطان أبي سعيد، وأبو حمو موسى ابن أخيهم يوسف، ووزيرهم يحيى بن داود بن مكن. وكان السلطان أبو عنان أوعز إلى صاحب بجاية يومئذ المولى أبي عبد الله حفيد مولانا السلطان أبي بكر بأن يأخذ عليهم الطرق ويذكي في طلبهم العيون، فعثر عليهم بساحة البلد. وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ووزيرهم يحيى بن داود وأدخلوا إلى بجاية. ثم خرج صاحبها الأمير أبو عبد الله إلى لقاء السلطان أبي عنان، واقتادهم في قبضة أسره فلقيه بمعسكره بظاهر المدية، فأكرم وفادته وشكر صنيعه، وانكفأ راجعا إلى تلمسان فدخلها في يوم مشهود. وحمل يومئذ أبو ثابت وزيره يحيى على جملين يتهاديان بهما بين سماطي ذلك المحفل، فكان شأنهما عجبا. ثم سيقا ثاني يومهما إلى مصرعهما بصحراء البلد، فقتلا قعصا بالرماح وانقضى ملك آل زيان، وذهب ما أعاده لهم بنو عبد الرحمن هؤلاء من الدولة بتلمسان، إلى أن كانت لهم الكرة الثالثة على يد أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن المتمليها إلى هذا العهد على ما نذكره، ونستوفي من أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن دولة السلطان أبي حمو الأخير مديل الدولة بتلمسان في الكرة الثالثة لقومه وشرع ما كان فيها من الأحداث لهذا العهد:

كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخين السلطان أبي سعيد بتلمسان، هو وولده أبو حمو موسى، وكان متكاسلا عن مراتب الظهور، متجافيا عن التهالك في طلب العز، جانحا إلى السكون ومذاهب أهل الخير. حتى إذا عصفت بدولتهم رياح بني مرين، وتغلب السلطان أبو عنان عليهم وابتزهم ما كان بأيديهم من الملك، وخلص ابنه أبو حمو موسى مع عمه أبي ثابت إلى الشرق، وقذفت النوى بيوسف مع أشراف قومه إلى المغرب

فاستقر به. ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية أغفل أمر أبي حمو من بينهم ونبت عنه العيون؛ فنجا إلى تونس ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين؛

فأكرم نزله وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه ووفر جرايته، ونظم معه آخرين من فل قومه. وأوعز السلطان أبو عنان إليه بانزعاجهم عن قرارهم في دولته، فحمي لها أنفه وأبى عن الهضيمة لسلطانه، فأغرى ذلك السلطان أبا عنان بمطالبته. وكانت حركته إلى إفريقية ومنابذة العرب من رياح وسليم لعهده ونقضهم لطاعته كما نستوفي في أخباره.

ولما كانت سنة تسع وخمسين قبل مهلكه اجتمع أمراء الدواودة من رياح إلى الحاجب أبا محمد بن تافراكين، ورغبوه في لحاق أبي حمو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته، وأنهم ركابه لذلك ليجلب على نواحي تلمسان ويحصل للسلطان أبي عنان شغلا عنهم. وسألوه أن يجهز عليه ببعض آلة السلطان. ووافق ذلك رغبة صغير بن عامر أمير زغبة في هذا الشأن، وكان يومئذ في أحياء يعقوب بن علي وجواره، فأصلح الموحدون شأنه بما قدروا عليه ودفعوه إلى مصاحبة صغير وقومه من بني عامر. وارتحل معهم من الدواودة عثمان بن سباع ومن أحلافهم بني سعيد دعار بن عيسى بن رحاب وقومه، ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان، وأخذوا على القفر. ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنال، فقويت عزائمهم على ارتجاع ملكهم ورجع عنهم صولة بن يعقوب. وأغذ السير إلى تلمسان وبها الكتائب المجمرة من بني مرين. واتصل خبر أبي حمو بالوزير الحسن من عمر القائم بالدولة من بعد مهلك السلطان أبي عنان والمتغلب على ولده السعيد الخليفة من بعده؟ فجهز المدد إلى تلمسان من الحامية والأموال. ونهض أولياء الدولة من أولاد عريف بن يحيى أمراء البدو من العرب في قومهم من سويد ومن إليهم من العرب لمدافعة السلطان أبي حمو وأشياعه؛ فانفض جمعهم وغلبوا على تلك الموطن. واحتل السلطان أبو حمو وجموعه بساحة تلمسان وأناخوا ركائبهم عليها ونازلوها ثلاثا، ثم اقتحموها في صبيحة الرابعة. وخرج ابن السلطان أبي عنان الذي كان أميرا عليها في لمة من قومه، فنزل على صغير بن عامر أمير القوم؛ فأحسن تجلته وأصحبه من عشيرته إلى حضرة أبيه. ودخل السلطان أبو حمو إلى تلمسان يوم الأربعاء لثمان خلون من ربيع الأول سنة ستين، واحتل منها

بقصر ملكه، واقتعد أريكته وبويع بيعة الخلافة. ورجع إلى النظر في تمهيد جوانب ملكه وأخرج بني مرين عن أمصار مملكته.

الخبر عن إجفال أبي حمو عن تلمسان أمام عساكر المغرب، ثم عوده إليها:

كان القائم بأمر المغرب من بعد السلطان أبي عنان وزيره الحسن بن عمر، كافل ابنه السعيد، أخذ له البيعة على الناس، فاستبد عليه وملك أمره؛ وجرى على سياسة السلطان الهالك؛ واقتفى أثره في الممالك الدانية والقاصية في الحماية والنظر لهم وعليهم. ولما اتصل به خبر تلمسان وتغلب أبي حمو عليها؛ قام في ركائبه وشاور الملأ في النهوض إليه؛ فأشاروا عليه بالقعود وتسريح الجنود والعساكر؛ فسرح لها ابن عمه مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي من بني فردود؛ وحكمه في اختيار الرجال واستجادة السلاح وبذل الأموال واتخاذ الآلة؛ فزحف إلى تلمسان. وأتصل الخبر بالسلطات أبي حمو وأشياعه من بني عامر؛ فأفرج عنها ولحق بالصحراء. ودخل الوزير مسعود بن رحو تلمسان، وخالفه السلطان أبو حمو إلى المغرب فنزل ببسيط أنكاد. وسرح إليهم الوزير مسعود بن رحو أبن عمه عامر بن عبو بن ماساي في عسكر من كتائبه ووجه قومه؛ فأوقع بهم العرب وأبو حمو ومن معهم واستباحوهم. وطار الخبر إلى تلمسان، واختلفت أهواء من كان بها من بني مرين. وبدا ما كان في قلوبهم من المرض، لتغلب الحسن بن عمر على سلطانهم ودولتهم، فتحيزوا زرافات لمبايعة بعض الأعياص من آل عبد الحق. وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبروه، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها، وبايع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة. وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب، وتجافى عن تلمسان وشأنها، واعترضهم عرب المعقل في طريقهم إلى المغرب؛ فأوقع بهم بنو مرين وصمموا لطيتهم. ورجع السلطان أبو حمو إلى تلمسان، واستقر بحضرته ودار ملكه. ولحق به عبد الله بن مسلم فاستوزره واستنام إليه؛ فاشتد به أزره وغلب على دولته كما نذكره إلى أن هلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن مقدم عبد الله بن مسلم من مكان عمله بدرعة ونزوعه من إيالة بني مرين إلى أبى حمو وتقليده إياه الوزارة و ذكر أوليته ومصائر أموره:

كان عبد الله بن مسلم هذا، من وجوه بني زردال، من بني بادين إخوة بني عبد الواد وتوجين ومصاب، إلا أن بني زردال اندرجوا في بني عبد الواد لقلتهم واختلطوا

بنسبهم. ونشأ عبد الله بن مسلم، في كفالة موسى بن علي– لعهد السلطان أبي تاشفين مشهورا بالبسالة والإقدام، طار له ذكر، وحسن بلاؤه في حصار تلمسان. ولما تغلب السلطان أبو الحسن على بني عبد الواد، وابتزهم ملكهم واستخدمهم؛ وكان ينتقي أولي الشجاعة والإقدام منهم، فيرمي بهم ثغور المغرب. ولما اعترض بني عبد الواد، ومر به عبد الله هذا ذكر له شأنه ونعت ببأسه؛ فبعثه إلى درعة واستوصى عاملها به؛ فكان له عنه غناء؛ وفي مواقعه مع خوارج العرب بلاء حسن؛ جذب ذلك بضبعية ورقي عند السلطان منزلته وعرفه على قومه.

ولما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان، ومرج أمر المغرب، وتوثب أبو

عنان على الأمر، وبويع له بتلمسان، واستجمع حافده منصور بن أبي مالك عبد الواحد لمدافعته، وحشد حامية الثغور للقائه، وانفضت جموعه بتازى، وخلص إلى البلد الجديد ونازله، وكان عبد الله بن مسلم في جملته. ولما نازله السلطان أبو عنان، واتصلت الحرب بينهم أياما، كان له فيها ذكر. ولما رأى أنهم احيط بهم سبق الناس إلى السلطان أبي عنان، فرعى سابقته وقلده عمل درعة، فاضطلع بها مدة خلافته، وتأكدت

له أيام ولايته مع عرب المعقل وصلة وعهد ضرب بها في مؤاخاتهم بسهم. وكان السلطان أبو عنان عند خروج أخيه أبي الفضل عليه، ولحقه بجبل ابن حميدي من معاقل درعة، أوعز إليه بأن يعمل الحيلة في القبض عليه؛ فداخل ابن حميدي ووعده وبذل له؛ فأجاب وأسلمه. وقاده عبد الله بن مسلم أسيراً إلى أخيه السلطان أبي عنان فقتله. ولما استولى السلطان أبو سالم رفيق أبي الفضل في مثوى اغترابهما بالأندلس على بلاد المغرب، من بعد مهلك السلطان أبي عنان، وما كان أثره من الخطوب، وذلك آخر سنة ستين، خشية ابن مسلم على نفسه، ففارق ولايته ومكان عمله. وداخل أولاد حسين أمراء المعقل في النجاة به إلى تلمسان فأجابوه، ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال وعصبة من العشير وأولياء من العرب؛ فسر بمقدمه وقلده لحينه وزارته وشد به أواخي سلطانه وفوض إليه تدبير ملكه، فاستقام أمره وجمع القلوب على طاعته. وجأجأ بالمعقل

من مواطنهم الغربية، فأقبلوا إليه وعكفوا على خدمته. وأقطعهم بمواطن تلمسان وآخى بينهم وبين زغبة؛ فعلا كعبه واستفحل أمره، واستقامت رياسته، إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي سالم علم تلمسان ولجوعه إلى المغرب بعد أن ولى عليها أبا زيان حافد السلطان أبي تاشفين ومآل أمره:

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب، ومحا أثره الخوارج على الدولة سما

إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة، كما كان لأبيه وأخيه، وحركه إلى ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم إلى تلمسان بجباية عمله؛ فأجمع أمره على النهوض إلى تلمسان، وعسكر بظاهر فاس منتصف إحدى وستين. وبعث في الحشود فتوافت ببابه واكتملت، ثم ارتحل إليها. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو ووزيره عبد الله بن مسلم؛ فنادوا في العرب من زغبة والمعقل كافة؛ فأجابوهم إلا شرذمة قليلة من الأحلاف، وخرجوا بهم إلى الصحراء ونازل حللهم بعسكره. ولما دخل السلطان أبو سالم وبنو مرين تلمسان خالفوهم إلى المغرب، فنازلوا وطاط، وبلاد ملوية وكرسيف، وحطموا زروعها وانتسفوا أقواتها وخربوا عمرانها. وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من صنيعهم، فأهمه أمر المغرب وأجلاب المفسدين عليه. وكان في جملته من آل يغمراسن محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين، ويكنى بأبي زيان، ويعرف بالقبى، ومعناه العظيم اسرأس، فدفعه للأمر وأعطاه الالة، وكتب له كتيبة من توجين ومغراوة كانوا في جملته، ودفع إليه اعطياتهم، وأنزله أبيه بتلمسان؛ وانكفأ راجعا إلى حضرته، فأجفلت العرب والسلطان أبو حمو أمامه وخالفوه إلى تلمسان، فأجفل عنها أبو زيان وتحيز إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأوليائهم من بني توجين وسويد من قبائل زغبة. ودخل السلطان أبو حمو ووزيره عبد الله بن مسلم إلى تلمسان، وكان صغير بن عامر هلك في مذهبهم ذلك. ثم خرجوا فيمن إليهم من كافة العرب المعقل وزغبة في أتباع أبي زيان، ونازلوا بجبل وانشريش فيمن معه إلى أن غلبوه عليه، وانفض جمعه، ولحق بمكانه من إيالة بني مرين بفاس. ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين، فافتتح كثيرها وغلب على مليانة والبطحاء. ثم نهض إلى وهران ونازلها أياما واقتحمها غلاباً، واستلحم بها من بني مرين عددا. ثم تغلب على المدية والجزائر، وانزعج عنها بني مرين فلحقوا

بأوطانهم. وبعث رسله إلى السلطان أبي سالم؛ فعقد معه السلم ووضعوا أوزار الحرب. ثم كان مهلك السلطان أبي سالم سنة اثنتين وستين. وقام بالأمر من بعده عمر بن عبد الله بن علي من أبناء وزرائهم مبايعا لولد السلطان أبي الحسن

واحدا بعد آخر، كما نذكره عند ذكر أخبارهم.

الخبر عن قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله:

كان أبو زيان هذا، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد

الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، لما تقبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحيى بن داود بجباية من أعمال الموحدين، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان؛ فقتل أبا ثابت وزيره واستبقى محمدا هذا وأودعه السجن سائر أيامه؛ حتى إذا هلك واستوسق أمر المغرب لأخيه أبي سالم من بعد خطوب وأحوال يأتي ذكرها؛ امتن عليه السلطان أبو سالم وأطلقه من الاعتقال ونظمه بمجلسه في مراتب الأعياص، وأعده لمزاحمة ابن عمه. وحدث بينه وبين السلطان أبي حمو سنة اثنتين وستين بين يدي مهلكة نكراء بعد مرجعه من تلمسان، ومرجع أبي زيان حافد السلطان أبي تاشفين من بعده؛ فحقق السعي فيما نصبه له. وسما له في أبي زيان هذا أمل أن يستأثر بملك أبيه، ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون فيئة له؛ فأعطاه الالة ونصبه للملك، وبعثه إلى وطن تلمسان، وانتهى إلى تازى. ولحقه الخبر هنالك بمهلك السلطان أبي سالم. ثم كانت فتن وأحداث نذكرها في محلها. وأجلب عبد الحليم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق على فاس، واجتمع إليه بنو مرين، ونازلوا البلد الجديد. ثم انفض جمعهم، ولحق عبد الحليم بتازى كما نذكره في موضعه. ورجا من السلطان أبي حمو المظاهرة على أمره، فراسله في ذلك واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيان، فاعتقله مرضاة له، ثم ارتحل إلى سجلماسة كما نذكر بعد. ونازله في طريقه أولاد حسين من المعقل بحللهم وأحيائهم؟ فاستغفل أبو زيان ذات يوم المتوكلين به، ووثب على فرس قائم حذاه وركضه من معسكر عبد الحليم إلى حلة أولاد حسين مستجيرا بهم فأجاروه. ولحق ببني عامر على حين جفوة، كانت بين السلطان أبي حمو وبين خالد بن عامر أميرهم ذهب لها مغاضبا، فأجلب به على تلمسان. وسرح إليهم السلطان أبو حمو عسكرا فشردهم عن تلمسان. ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يقصيه إلى بلاد رياح ففعل، وأوصله إلى بلاد الدواودة فأقام فيهم. ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد، وصاحب وطن حمزة وبني حسن وما إليه، ونصبه للأمر مشافهة وعنادا للسلطان أبي حمو. ونهض إليه